



الأدب المصري

من قيام الدولة الأيوبية إلى مجيء الحملة الفرنسية

تأليف

الدكتور عبد اللطيف حمزة

رئيس قسم الصحافة

جامعة القاهرة

الناشر

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلى — القاهرة

الأرض المصري

من قيام الدولة الأيوبية إلى مجيء الحملة الفرنسية

بإشراف إدارة الفتاة العامة
بوزارة التربية والتعليم

الأدب المصري

من قيام الدولة الأيوبية إلى مجيء الحملة الفرنسية

تأليف

الدكتور عبد اللطيف حمزة

الناشر

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلى — القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

ليس خيرا للشباب العربي من أن يعرف تاريخ الوطن العربي معرفة جيدة . وليس خيرا لهذا الشباب من أن يتعرف إلى كل جزء من أجزاء هذا الوطن على حدة ؛ فيعلم شيئا عن تاريخ مصر ، وشيئا عن تاريخ سوريا ، وشيئا عن تاريخ العراق . ثم يضم أشات هذه المعلومات لتتألف له من ذلك فكرة صحيحة عن الوطن العربي كله .

من أجل ذلك سررت حين سئلت أن أضع كتابا في تاريخ الأدب المصرى منذ قيام الدولة الأيوبية إلى مجيء الحملة الفرنسية . وهى مدة طويلة تقرب من ستة قرون ونصف قرن . تعرضت مصر فى أثناءها لخطوب جسيمة ، وتقلبات عظيمة ، وذلك فى كل من الميدان السياسى ، والميدان الاجتماعى ، والميدان الأدبى الفكري فى نهاية الأمر .

وليس شك فى أن الميدان الأخير من هذه الميادين هو المقصود بهذا المؤلف الذى بين يديك . ولهذا جعلته ثلاثة كتب على النحو الذى يلى :

أولها كتاب فى الحياة السياسية والعلمية والروحية لمصر فى تلك الفترة . وضحت فيه عوامل القوة والضعف فى الدول التى تعاقبت على مصر . وتحدثت فيه عن دواعى النهضة والركود العلمى والأدبى فى تلك

العصور ، مشيراً مع هذا كله إلى البيئات والمراكز العلمية المختلفة : مثل (الجامع) و (دار الحكمة) في العهد الفاطمي ، ومثل (المدرسة) و (الخانقاه) في العهدين الأيوبي والمملوكي . أما (الأزهر) فهو المؤسسة الفاطمية الكبرى التي تولت بنفسها صيانة العلم الإسلامي في العصور الثلاثة التي أرخنا لها بوجه عام ، والعصر العثماني منها بوجه خاص .

وثانها كتاب في فن الشعر ، أوضحت فيه أولاً كيف كان من ولاية العصر الأيوبي وحكامه علماء وشعراء . وفي هذا ما فيه من تشجيع للحركة الأدبية والعلمية . ثم وصفت حركة الشعر في عهد صلاح الدين وخلفائه من بعده ، وذلك في أثناء الحروب الصليبية . ثم انتقلت من ذلك إلى الكلام عن الشعر الصوفي بعد الفراغ من الشعر السياسي . وأخيراً تعرضت لأساليب الشعر المصري ذاته ، وفرقت في ذلك بين مذهبين من مذاهبه ، وهما مذهب البديع ويمثله القاضي الفاضل خير تمثيل ، ومذهب المعاني ويمثله البهاء زهير خير تمثيل . ولكل من هذين المذهبين تلاميذ وأتباع في كل عصر من العصور الثلاثة التي أرخنا لها ، أشدنا بهم ، ونقدنا شعرهم ، وكونا لأنفسنا رأياً في تنажهم الشعري . ثالثها كتاب في فن الكتابة ، وهي أنواع : أولها الكتابة الديوانية ، وفيها كان البديع هو الغالب على جميع الرسائل . وجاء القاضي الفاضل ففرقت على يديه الكتابة الديوانية في هذا البديع إلى أذنيها ، وتبعه جميع الكتاب الديوانيين في هذه الطريقة . ثم الكتابة الهزلية وهي الكتابة التي اصطنع فيها الكتاب شيئاً من اللغة العامية ، كما اتضح لنا

ذلك في كتاب (الفاشوش في حكم قراقوش) في العصر الأيوبي ،
وكتاب (هز القحوف) في العصر العثماني . ثم الكتابة التاريخية وفيها
تتبعنا حركة المؤرخين الذين ظهروا في تلك العصور ، ووصفنا جهودهم
ووازننا بينها ما وسعنا الموازنة . وأخيرا كتبنا فصلا مستقلا عن
الأدب الشعبي في مصر معتمدين في ذلك على قصص ألف ليلة وليلة
وقصص الهلالية وسيرة الظاهر بيبرس .

(وبعد) ، فأحب أن أنه القارىء هنا إلى ثلاثة أمور :

أولها : أنني عانيت بالكتابة عن الأدب المصري على أساس من
دراسة الشخصية المصرية ، وتبع آثارها في تلك العصور حتى تم نضوجها
وتبلورت في عصر المماليك . كما أومأت إلى آثار هذه الشخصية المصرية
في المجال السياسي ، والمجال العلمي ، وفي المجالات الأدبية على اختلافها ،
وفي التصوف ، وفي الأدب الشعبي آخر الأمر .

ثانيها : أتى حرصت في أثناء ذلك كل الحرص على أن أحتفظ
لكل عصر من العصور الثلاثة التي أرخت لها بالطابع الذي يميزه .
والاساليب الشائعة فيه ، والأخبار الدالة عليه . خذ لذلك مثلي هما :
أولهما — الفصول التي تتعلق في هذا الكتاب بالحروب الصليبية . وفيها
وصف للصليبيين بأنهم كفار ملعونون . وثانيها — العبارات التي
وصف بها المصريون غيرهم من الشعوب .

في المثل الأول وصف قد يؤذى نفوس المسيحيين ؛ كما تأذى
نفوس المسلمين بما يقرءونه عن أسلافهم في كتب الصليبيين . وفي المثل

الثاني وصف للمغاربة بأوصاف لا يرضى عنها أحد في العصر الحديث .
ونحن نعرف عن هؤلاء المغاربة أنهم كانوا محل تقدير كبير يوم كانت
الخلافة الفاطمية هي صاحبة السلطان والنفوذ . فلما جاءت السلطنة
الأيوبية تغير الحال عن ذلك .

في هذه الحالات وأمثالها ليس بد للقارىء من أن يحمل هذه
العبارات على ظروف زمانها ، ويفهم مرماها في الأجواء التي
أحاطت بها .

ثالثها : أننى أوجزت القول إيجازاً في وصف الحياة العلمية نظراً
إلى أنه سبق لى أن وضعت كتاباً بعنوان « الحركة الفكرية في مصر
في العصرين ، الأيوبي والمملوكى » . وهو كتاب كبير يقع في نحو أربعائة
صفحة ، ومن أجل ذلك عنيت عناية خاصة في الكتاب الذى بين يديك
بالعصر العثماني من الناحية العلمية عناية تعوض بعض النقص في الكتاب
الذى أشرت إليه .

والله نسأل أن يحقق لنا كل ما تتمناه للوطن العربي كله من عز
ورفعة ومجد ورفاهية . والله تعالى ولى التوفيق .

عبد اللطيف حمزة

الكتاب الأول

في الحياة السياسية والعلمية والروحية

في مصر

من قيام الدولة الأيوبية إلى مجيء الحملة الفرنسية

الفصل الأول

الشخصية السياسية

تمهيد

كانت مصر في القرنين الأول والثاني للهجرة باهتة اللون غامضة الشخصية . وليس في هذا شيء من الغرابة . فقد كانت هذه البلاد العريقة في الحضارة ، القديمة في الديانة حديثة عهد بالإسلام ، تابعة تبعية مباشرة للخلافة : كانت تابعة لعمر بن الخطاب في المدينة ، ثم لبني أمية في دمشق ثم لبني العباس في بغداد . وكانت بغداد هذه تستمد قوتها من الخلفاء العباسيين الذين لم يألوا جهدا في تشجيع العلم والحضارة . حتى خلقوا منها مركزا له مكانة ممتازة في جميع العالم الإسلامي . وطنى هذا المركز على كافة المراكز الإسلامية المعروفة . ثم جاء دور هذه المراكز المعروفة التي أعقبت بغداد في الظهور . وكان من أهمها مصر وقرطبة . نعم ، أتى على كل منهما دور التفوق في العلم والحضارة ، إلا أنه قبل مجيء هذا الدور كان من العسير على الباحثين في الواقع أن يكشفوا عن الشخصية الإقليمية لمصر أو الأندلس ، كل على حدة .

غير أنه منذ منتصف القرن الثالث الهجري تقريبا استطاعت دول جديدة أن تحكم مصر حكما مستقلا عن الخلافة . وتعاقت هذه الدول

على الحكم وأتاحت لمصر فرصة لإظهار شخصيتها . فظهرت الدولة الطولونية ، فالأشيدية ثم الخلافة الفاطمية . فالسلطنة الأيوبية ، فدولة المماليك البحرية ، فدولة المماليك البرجية ، وهذه الأخيرة هي التي غلب عليها الأتراك العثمانيون . وهؤلاء هم الذين أضاعوا استقلال البلاد المصرية ، وجعلوها تابعة تبعية مباشرة للدولة العثمانية . فإذا كانت الدولة الطولونية قد حكمت مصر منذ سنة ٢٥٤ للهجرة ، وكان الفتح العثماني قد وقع في عام ٩٢٣ للهجرة ، فعنى ذلك أن مصر تمتعت باستقلالها نحواً من سبعة قرون . وهى مسافة زمنية كبيرة ، أتاحت لمصر فرصة كافية لتلعب دوراً هاماً على مسرح الحياة الإسلامية الجديدة ، وأثبتت للعالم الإسلامى أنها ذات شخصية عظيمة لا تقل فى عظمتها عن شخصية مصر فى عهد الفراعنة ، بشرط أن يحسب التاريخ حساباً كبيراً لهذا الدين الجديد ، وهو الإسلام ، كما يحسب التاريخ حساباً لهذا العنصر الجديد الذى امتزج بالمصريين ، وهو العرب .

أما الإسلام فقد جاء يدعو إلى (أخوة إسلامية) لا تعرف التفرقة بين الأقطار التى انضوت تحت رايتها . ومن ثم كان من العبث أن نحاول فهم التاريخ الوسيط لمصر وغيرها من الأقطار الإسلامية على ضوء الوطنية أو الإقليمية ، أو القومية العربية . إذ من الخير لنا والتاريخ أن ننظر إلى المصريين وغيرهم من الشعوب الإسلامية نظرة تتفق وهذه الأخوة التى دعا إليها هذا الدين ، وجعلها أساساً روحياً وسياسياً للعالم الإسلامى من أوله إلى آخره .

ولكن ما الأثر الذى تركه هذا الإسلام الجديد فى الحكم
المصرى والعقل المصرى ؟

أما أثره فى الحكم المصرى فواضح من أن مصر كانت لا تعترض على
الحاكم الأجنبى متى كان هذا الحاكم يمتنع الديانة الإسلامية . ومن أجل
هذا لم يجد المصريون غضاظة على أنفسهم فى قبول الطولونيين ، فالأخشيديين
فالفاطميين فالأكراد من بنى أيوب ، ثم المماليك .

وأما أثره فى العقل المصرى فواضح من أن مصر بحكم مركزها
من العالم الإسلامى أولا ، وبحكم مركزها الجغرافى ثانيا أصبحت محط
للكتيرين من علماء المسلمين على اختلاف أقطارهم ، بحيث كانت الرحلة
إلى مصر فى طلب المال أو العلم أكثر من الرحلة إلى غيرها من البلاد
الإسلامية الأخرى لمثل هذه الأغراض .

من أجل ذلك نستعرض تراجم الرجال فى العصور الوسطى فنرى
فلانا المصرى المقدسى ، وفلانا المغربى الإسكندري ، وفلانا الشامى
المصرى وهكذا ، وقل أن نعثر فى هذه التراجم على رجل يكتفى
بوصف أنه مغربى ، أو عراقى أو شامى ، أو مصرى ، أو مقدسى
أو حجازى .

لا شك إذن أنه كان لهذه الأخوة الإسلامية التى يمكن تسميتها
« بالقومية الإسلامية » كما كان للموقع الجغرافى الذى امتازت به البلاد
المصرية أثر لا سبيل إلى إنكاره فى العقل وفى الذوق معاً . من أجل
ذلك نجد أن مصر قد لعبت فى الإسلام نقش الدور الذى كانت تلعبه
فى عهود اليونان والرومان ، مع فارق واحد لا مناص من ذكره ؛ وهو

أن مصر في العهدين اليوناني والروماني لم تكن مستقلة ، وأنها كانت في
العهود الإسلامية التي أشرنا إليها دولة ذات سيادة وزعامة صحيحة
على العالم الإسلامي كله . وإن كانت قد دفعت الثمن غالياً للحصول على هذه
الزعامة الأخيرة . وذلك بما ضحت في محاربة الصليبيين ، وبما صدت
من هجمات المغول المعتدين ، وبما قامت به من إحياء الخلافة العباسية
بالقاهرة . وإن كان الخليفة إذ ذاك شخصاً ليس له من الخلافة
غير الاسم .

هكذا كان فيضان الشخصية المصرية على ما جاورها من الأقاليم
الإسلامية . فصر كلما أحست شيئاً من القوة الفعلية ، اتجهت بأنظارها
إلى ما جاورها من الأقطار الإسلامية فبسطت عليها شيئاً من النفوذ
السياسي أو الروحي أو الثقافي . وقد كان ذلك يتم في العصور الوسطى
بطريق القهر أو العنف ، ولكن ذلك أصبح يتم في العصور الحديثة
بطريقة أخرى ؛ هي طريقة الوحدة أو الألفة . والنتيجة واحدة في
الحالتين ؛ وهي أن مصر كانت لا تشعر بكيانها ، ولا تثق بوجودها ،
ولا تستكمل مقوماتها ، إلا إذا انضمت إليها هذه الأقطار العربية
المجاورة . بل إن هذه الأقطار المجاورة كانت هي الأخرى تستشعر القوة
الحقيقية والوجود الحقيقي بانضمامها لأختها الكبرى مصر . وبذلك
تأمين هذه الأقطار المجاورة جميع الأخطار التي تتعرض لها من العدو
الأجنبي . ومصر في أثناء ذلك كله تدرك بأن عليها واجباً لا يمكنها أن
تتخل عنه بحال ما . وهذا الواجب هو حماية العالم الإسلامي من
الأخطار التي تهدده . وهذا الواجب أيضاً هو المشاركة القوية في بناء

الحضارة الإسلامية بجميع مقوماتها من علم وفن ، وأدب ودين وخلق . وهذا الواجب مرة ثالثة هو القيام بدور « الوسيط الثقافى » بين العصور المختلفة : والشعوب المختلفة . وهل لقطر آخر ما لهذا القطر المصرى من موقع جغرافى يساعده على القيام بهذه الوساطة ؟ ولكن :

بم قويت مصر الأيوبية ومصر المملوكية ؟

استقامت لمصر فى الفترة التى تؤرخ شخصية سياسية فى منتهى القوة : وكانت لذلك أسباب كثيرة أشرنا إلى بعضها . ولا بأس من تلخيصها فيما يلى :

أولاً — قيام دولة قتيبة هى الدولة الأيوبية قضت على الخلافة الفاطمية التى بلغت من الضعف حداً أصبحت به عاجزة عن القيام بهذه المهمة الدينية السياسية الخطيرة — وهى طرد الصليبيين ، وإعادة الإمارات الصليبية إلى الراية الإسلامية .

ثانياً : — ضعف الخلافة العباسية فى بغداد ، وتعرض الحضارة الإسلامية بسبب ذلك للضياع .

ثالثاً : — نجاح الدولة الأيوبية فى زحزحة الصليبيين ، وإجبارهم على ترك الدول اللاتينية الصغيرة التى سبق لهم أن أقاموها فى الشرق ، وكانت بمثابة رقعة سوداء فى ثوب ناصع البياض كان لابد للشرق العربى من أن يتخلص منها .

رابعا : — نجاح المالك في صد تيار المغول الذين قوضوا بغداد ، وعرضوا الحضارة الإسلامية كلها — كما قلنا — للضياع . كل ذلك فضلا عن كون المالك وفقوا توفيقاً عظيماً في مكافحة الصليبيين ، وطردها البقية الباقية منهم نهائياً من الساحل .

خامساً : — محاولة المالك إحياء الخلافة العباسية في القاهرة وجلبهم الخلفاء العباسيين إليها للإقامة بها . وبذلك اكتسب السلاطين المالك صفة شرعية كبيرة خلقت لهم منزلة لا يصبو إليها غيرهم من ملوك الإسلام في ذلك الزمان . كما خلقت لمدينة القاهرة صورة في أذهان الناس أزرت — أو كادت تزرى — يومئذ بصورة بغداد وبغيرها من العواصم الإسلامية الأخرى .

تأثر الأدب المصرى بكل سبب من هذه الأسباب . فسقوط دولة وقيام أخرى ، ونجاح المسلمين في حروبهم ضد الصليبيين ، وضد المغول وإنقاذ الحضارة الإسلامية من هذا الخطر العظيم ، وإحياء الخلافة العباسية بالقاهرة بعد أن كادت تزول من الوجود بفعل أولئك المغول . كل هذه الأمور كانت أحداثاً جساماً في تاريخ العرب والإسلام وتاريخ مصر بوجه خاص ، بل كانت أعظم الأحداث على الإطلاق في تاريخ الشعوب الإسلامية في العصور الوسطى . فكان من الطبيعي أن يترك كل واحد منها ظله واضحاً في الأدب الإسلامى عامة ، والأدب المصرى بنوع أخص .

لم ضعفت مصر العثمانية ؟

بقى المجد السياسى والمجد الأدبى لمصر على هذا النحو طوال الدولتين الأيوبية والمملوكية ، حتى آن لشمس هذا المجد أن تغرب ، ولناها أن تخمد . وذلك على أيدي الأتراك العثمانيين الذين ملكوا الديار المصرية فى عام ٩٢٣ هجرية ، والعثمانيون جيل من الأجيال التركية المتشعبة من الجنس المغولى . ومعنى ذلك أن هذه النسبة التى نجت منها البلاد الإسلامية على أيدي المماليك ، عادت فأصابت هذه البلاد الإسلامية من جديد بوقوعها فريسة لشعبة من تلك الأجناس المغولية ، وهم العثمانيون الذين غلبوا المماليك ، وبدموا بذلك عهداً من عهود الظلام دام فى هذه البلاد الإسلامية نحو ثلاثة قرون ، لم تستيقظ منه مصر إلا على أصوات الحملة الفرنسية ؛ وهى الحملة التى شنّها القائد الفرنسى بوناپرت على مصر ، وبدئت بها صفحة جديدة من صفحات هذا الشرق .

لكن ما الأسباب التى أقضت بمصر إلى هذا الضعف باستثناء السبب الرئيسى منها ، وهو ضياع استقلالها وزوال سيادتها على يد الترك ؟

هنا يحدثنا التاريخ عن أمور كثيرة اصطلحت كلها على إصابة مصر بهذا الضعف الذى ترك أسوأ الآثار فى بقاء شخصيتها على ما كانت عليه من القوة والفيض .

بدأ الحكم العثمانى فى عام ٩٢٣ هـ ، واستمر إلى عام ١٢١٣ هـ .

أى أنه دام ثلاثة قرون تقريباً خضعت مصر فيها لنظام جديد من نظم الحكم وضعه السلطان سليم الأول . وكان هذا النظام يتألف من سلطات ثلاث وهى :

(سلطة الوالى) ويقوم على تنفيذ أوامر السلطان العثمانى كما رسمها له .

(وسلطة الجيش) وقد تركه السلطان لحماية البلاد وبقائها تحت سيطرة الدولة العثمانية فى كل وقت .

(وسلطة المالىك) وقد نصبهم السلطان حكاماً على المديرىات أو « السناجق » وأطلق عليهم اسم « اللىكوات » .

غير أن الفتن والمشاحنات ظلت قائمة بين هذه السلطات الثلاث . وكان ذلك أول سبب من أسباب الانهيار الذى أصاب الشخصية السياسية لمصر إذ ذاك .

وأما ثانى الأسباب المؤدية إلى هذا الانهيار ، فهو بقاء المالىك أنفسهم بمعزل عن الشعب المصرى ، ومغالاتهم فى إبراز الأموال الطائفة من جيوب الفلاحين المساكين الذين ظلوا يعانون كثيراً من ثقل الضرائب المشروعة حيناً ، وغير المشروعة حيناً ، حتى أفلسوا ودخل عليهم الفقر والعوز من أبواب متفرقة ، وأصبحوا فى حالة سيئة .

أجل ، كان من المالىك قوم أسخياء يمنحون الفلاحين وغيرهم من

أفراد الشعب الجائع شيئاً من الرعاية . ولكن هذه الحال لم تزد المالك أنفسهم إلا شعوراً بأنهم السادة . كما لم تزد المصريين أنفسهم إلا شعوراً بأنهم « العبيد » . وتلك حالة نفسية لا تورث الشعب إلا ضعفاً في الشخصية ، وتفوراً من الاشتراك في بناء الوطن المصرى بنصيب ما — قل أو كثر .

وليت الأمر وقف عند هذا الحد . بل وجدنا أن أول عمل بدأ به السلطان (سليم الأول) حكمه إذ ذاك أنه جمع أمهر الصناع في ربوع مصر — وكان عددهم يربى على الآلاف — وبعث بهم جميعاً إلى تركيا لينهضوا هناك بشتى الصنائع التى حرم منها المصريين بالقوة .

على أن الكساد الصناعى سار معه جنباً إلى جنب كساد آخر فى شئون الزراعة والتجارة . وزاد الطين بلة وقبح الأوبئة والمجاعات التى توالى على مصر سنين عديدة . فنخص بالذكر منها سنوات ١٦٠٣ ، ١٦١٩ ، ١٦٢١ ، ١٦٢٥ ، ١٦٤٥ للميلاد . وفى الوباء الأخير بنوع خاص خربت من القرى المصرية أكثر من مائتى قرية بادت كلها عن آخرها ، وزلت زوالاً من رقعة مصر كأن لم تغن بالأمس !

ومع هذا وذاك فقد كانت تلك الكوارث الشداد بما يمكن احتماله بشكل من الأشكال لولا أن مصر منيت فى ذلك العصر بكارثة الكوارث ومصيبة المصائب ، ونعنى بها تحويل التجارة الهندية من مصر والشام والبحر الأبيض المتوسط إلى طريق المحيط الأطلنطى وجنوب أفريقيا . حدث ذلك على أيدي البرتغال وأواخر العهد المملوكى الذى — أعفى

فى أيام السلطان الغورى — ولكن آثاره السيئة ظهرت بجلاء تحت الحكم العثماني الذي شامت المقادير أن يكون مقرونا بكل هذه المحن التي أشرنا إليها .

كل ذلك والجنود الذين تتألف منهم الحامية التركية يشغبون على الوالى مرة ، وعلى المماليك الذين عينهم السلطان حكاماً على السناجق مرة أخرى .

وبقى هؤلاء الجنود يشتغلون بجمع السلطة فى أيديهم حتى جعلوا من الولاية ألعبه لهم . وصارت كل طائفة من الجنود تستولى على جملة من التجار أو المزارعين أو الفلاحين ، وغيرهم من طبقات المال فيقتسمون معهم الأرباح . وفى نظير ذلك يحمونهم من أداء الحقوق التي عليهم للحكومة !

على هذا النحو بقيت مصر ككرة تتلقفها السلطات الثلاث يضرب بعضها بعضاً ، ويأتمر بعضها ببعض .

فرقة تشبكت الحامية بالمماليك ، ويفيد من ذلك الوالى . وأخرى تشغب الحامية على الوالى ، ويتنفع بذلك المماليك وهكذا . أما الشعب نفسه فهو هذه الكرة التي تتقاذفها السلطات الثلاث ! !

وبقى الأمر على هذا النحو حتى قوى شأن مملوك كبير من المماليك المصريين . هو « على بك الكبير » . وكان قد سعى بذكائه وجراته حتى أصبح يلقب « بشيخ البلد » وهو اسم لرعيم المماليك وحاكم القاهرة فى وقت معا .

واستطاع على بك الكبير أن يثير في نفوس المماليك شعورا بالنخوة المصرية ، وأن يذكّرهم بمجد المماليك البحرية والمماليك البرجية . وبهذه الطريقة نفرهم من الباب العالي ومن الأتراك . فاجتمع رأيهم على خلع الباشا أو الوالى ، وطرده من مصر ، وإعلان استقلال البلاد عن الدولة العثمانية .

كان ذلك سنة ١١٨٣ هـ - ١٧٦٩ م والدولة العثمانية يومئذ في حرب ضد روسيا . فاتهز على بك الكبير هذه الفرصة أيضا وفتح بلاد الحجاز والشام وضمهما إلى مصر .

غير أن هذا الاتعاش البسيط على يد هذا المملوك لم يدم إلا ريثما استقرت الأمور في اثنين آخرين من المماليك هما د مراد بك ، ود ابراهيم بك . وكانا قد اتفقا على أن يفتسما بينهما شياخة البلد . ثم عادا إلى خلافهما القديم وهو الخلاف الذى لفت إلهما أنظار الأوروبيين ، ومن أجله أتى القائد الفرنسى (بوناپرت) فى حملته المشهورة على مصر .



الفصل الثاني

الشخصية العلمية

دخل الفاطميون مصر ومعههم دعوة جديدة حرصوا على نشرها في البلاد المصرية ، وهى الدعوة الفاطمية التى أطلقوا عليها اسم « الدعوة الهادئة » و « دعوة الحق » .

وكان من مراكز هذه الدعوة إذ ذاك قصر الخلافة من جهة ، والجوامع الكبرى التى من أهمها « الجامع الأزهر » من جهة ثانية .

وكان للفاطميين - فضلا - عن كل ذلك عناية كبيرة (بالمكتبات) يلحقونها بقصر الخلافة نفسه ، ويلحقون بهذه المكتبات مجامع علمية كالجمع الذى أنشأه الوزير يعقوب ابن كلس ، وجعل نفقته ألف دينار فى كل شهر .

وأخيرا سمعنا « بدار العلم ، أو « دار الحكمة » ، وهى الدار التى أسسها الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥ للهجرة . فأزرت هذه الدار بشهرة المراكز العلمية التى سبق ذكرها ، وغطت شهرتها على شهرة تلك المراكز ، ووصل الخليفة بها مكتبة ذات ردهة كبيرة للمطالعة . وكان بالمكتبة حجرة كبيرة للاجتماعات والمباحثات . وقد ترك أمر هذه الدار وملحقاتها لرعاية رجل من أكبر رجالات الدولة - هو داعي الدعاة -

الذى كان عليه أن يلقي دروسه في دار الحكمة يومى الإثنين والخميس من كل أسبوع ، ويأتى لمباحه العلماء والدعاة . وكان للنساء في هذه الحلقات العلمية مكان خاص بهن .

ويبدو أن الأغراض التى أنشئت من أجلها دار الحكمة ثلاثة في مجملها :

الأول : استيعاب الكتب والمطالعات والمحاضرات .

والثاني : تثقيف القضاة بعد أن يتموا دراستهم في الجامع الأزهر .

والثالث : تعليم الدعاة الذين كان عليهم أن يتلقوا دروس النحو والمنطق والفلسفة والنجوم في الجامع الأزهر . ثم يغادرونه بعد ذلك إلى دار الحكمة ليطموا تعليمهم هناك .

وبينما كانت (دار الحكمة) وغيرها من المراكز العلمية الهامة تقوم بعملها في العهد الفاطمى على هذا النحو إذا بمؤسسة أخرى كانت قد نمت وترعرعت في الأوساط السنية في الشرق الإسلامى . وهذه المؤسسة الجديدة هى (المدرسة) .

والمدرسة بناء في وسطه صحن كبير مربع الشكل . وفي كل جانب من الجوانب الأربعة لهذا الصحن إيوان مقبب . ويراعى في بناء المدرسة دائماً أن تكون على سمت القبلة . ولكل مدرسة محراب . ومن هنا لم تخرج المدرسة في الواقع عن كونها مسجداً أو جامعاً .

بل أصبح من الصعب التفرقة فيما بعد بين الجامع والمدرسة . ورسم المدرسة العام على شكل صليب . ولكنها تبدو من قريب أنها على

شكل مربع . وذلك لأن مساكن الأساندة والطلبة تملأ فراغ المثلثات الأربعة التي يحدتها الشكل المصلب .

وفي النصف الثاني من القرن الثالث الهجري انتشرت المدارس المنسوبة إلى الوزير (نظام الملك) في كل من بغداد ونيسابور والموصل والبصرة .

ثم في القرن السادس الهجري تحمس لبناء المدارس السلطان صلاح الدين الأيوبي ، بناها بمصر وكان قد سبقه إلى بنائها نور الدين محمود بدمشق .

والمهم هنا أن إنشاء المدارس والإكثار منها كان جزءاً من الخطة التي وضعها صلاح الدين لإزالة الدولة الفاطمية ، ولإثارة الشعور الديني ضد الأوربيين في الحروب الصليبية .

ومعنى ذلك أنه بينما كانت الجنود تقاثل الفرنج في الميدان إذا بالعلماء والفقهاء يهتئون النفوس ويفزون الأذهان ويفتحون البلاد المصرية فتحاً مذهبياً لإحلال المذهب السني محل المذهب الشيعي ، ولبث الروح الدينية الذي كان لابد منه لدفع الخطر الصليبي :

وهكذا كان العمل الذي تقوم به المدرسة عملاً ذا شقين : أحدهما يتجه إلى داخل البلاد لإعادتها إلى المذهب السني الذي أراد القضاء عليه رجال الدولة الفاطمية . والآخر يتجه إلى ميدان القتال لتقوية الروح المعنوية التي لابد منها للمسلمين في حمة الحروب الصليبية .

(البيئات العلمية في العصرين الأيوبي والمملوكي)

لأن نظرة واحدة إلى تلك المدارس التي ظهرت بمصر منذ أواخر العصر الفاطمي ترينا أن هذه المدارس توزعت على بيئات ثلاث هي :
(بيئة الإسكندرية) ومن مدارسها مدرسة ابن السلار . وابن السلار هذا وزير كردى سنى كان يعمل فى خدمة الدولة الفاطمية . وقد نشأت مودة قوية بينه وبين نور الدين محمود صاحب دمشق ، وصاحب اليد الطولى فى مقاومة الفرنج . أنشئت هذه المدرسة عام ٥٤٦ هـ . وكان يقوم على إدارتها إمام عظيم من أئمة المسلمين وعالم كبير من علماء الحديث ؛ هو الحافظ السلفى (بكسر السين وقح اللام) وقد أدركه صلاح الدين وكان يسعى إليه لسماحه واغتنام فرصة حياته على حد تعبيره إذ ذاك .

(بيئة القاهرة) ومن أشهر المدارس التى أنشأها صلاح الدين فى تلك البيئة مدرسة للشافعية بجوار الجامع العتيق عرفت بأسماء شتى : منها المدرسة الناصرية (نسبة إلى الملك الناصر صلاح الدين) . ومنها مدرسة ابن زين التجار (نسبة إلى العالم الشافعى الذى طالت مدته بهذه المدرسة ، ومنها المدرسة الشريفة وهكذا .

كما بنى صلاح الدين بالقاهرة مدرسة للمالكية هى المدرسة القمحية (نسبة إلى القمح الذى كانت تحصل عليه من ضيعه تزرعه بجهة الفيوم وقفها صلاح الدين على هذه المدرسة التى عرفت كذلك بدار الغزل) .

وبعد موت الخليفة العاضد وزوال الدولة الفاطمية نشط صلاح الدين فى بناء طائفة أخرى من المدارس ومنها : مدرسة للفقهاء الحنفية

هى المدرسة السيوفيه . ومدرسة بجوار الإمام الشافعى . وأخرى بجوار
المشهد الحسينى . وأحصى المؤرخون مجموعة المدارس التى بنيت بالقاهرة
وضواحيها فى العهد الأيوبى فإذا بها خمس وعشرون مدرسة كان من
أهمها جميعا :

المدرسة الكاملية :

وكانت تسمى دار الحديث . وهى المدرسة التى أنشأها السلطان
الملك الكامل محمد من أعظم سلاطين بنى أيوب وقد فرغ من إنشائها
عام ٦٦٢ هـ . وتعتبر الدار الثانية فى الترتيب بين الدور التى تخصصت
فى الشرق الإسلامى لدراسة الحديث . أما الدار الأولى فهى التى بناها
نور الدين محمود بدمشق . وقد كان من أشهر تلك المدارس أيضا :

المدرسة الصالحية :

بناها الملك الصالح نجم الدين أيوب عام ٦٣٩ هـ . وكانت أشبه شىء
بجامعة كبرى ذات كليات أربع تختص كل واحدة منها بمذهب من
المذاهب الأربعة المعروفة . وهى الحنفى والمالكى والشافعى والحنبل .

ثم المدرسة الفاضلية :

نسبة إلى القاضى الفاضل . بناها عام ٥٨٠ هـ . ولهذه المدرسة شهرة
فى التاريخ . ومرجع ذلك إلى المكتبة العظيمة التى ألحقها القاضى الفاضل
بهذه المدرسة وجمع فيها من كتب العصر الفاطمى وحده مائة ألف مجلد !
(بيئة قوص) . وأما البيئة الثالثة فيها عدا بيئة الإسكندرية وبيئة
القاهرة فهى بيئة قوص . ومن أشهر مدن هذه البيئة (أسنا) و (إدفو)

و (قنا) . وقد أحصى بعض العلماء بمجموع المدارس التي أنشئت بهذا الإقليم فإذا بها ست عشرة مدرسة بذلك كلها جهودا مضيئة في تخليص البلاد المصرية من المذهب الذي أتت به الدولة الفاطمية والعودة بالبلاد إلى المذهب السني الذي تحمست له الدولتان الأيوبية والمملوكية .

* * *

ومضى سلاطين المماليك في هذه السياسة التعليمية التي سبقتهم إليها سلاطين بني أيوب . فنافس بعضهم بعضا في بناء المدارس ، ومن أشهرها يومثد على سبيل المثال :

مدرسة الظاهر بيبرس :

أسسها عام ٦٦٠ هـ ، بحجة يقال لها (بين القصرين) بالقاهرة ، وزودها بمكتبة هائلة ، وجعلها تعنى بسائر العلوم ، ووقف عليها أوقافا عظيمة : ولما فرغ من بنائها سنة ٦٦٢ هـ دعا العلماء والفقهاء والقراء للاجتماع بها . فجلس أتباع المذهب الشافعي بالإيوان القبلي ، والحنفية بالإيوان البحري وأهل الحديث بالإيوان الشرقي ، والقراء بالإيوان الغربي . وعين لكل فريق منهم مدرسا خاصا . وعندما اكتمل جمعهم تناظروا في شتى المسائل ، ثم مدت لهم الأسطة . وقام بعض الشعراء فأنشدوا شعرا أشادوا فيه بهذه المدرسة . ولما فرغوا من مجلسهم وهبهم السلطان الظاهر بيبرس كثيرا من المنع . وقد أسس الظاهر مدرسته هذه على نمط المدارس الأيوبية . ولم يكتف بيبرس بهذه المدرسة ، بل بنى بجوارها « مكتبا » يتعلم فيه الأيتام من أبناء المسلمين القراءة

والكتابة، ويحفظون فيه القرآن الكريم. وقررن في الحزب كل يوم، والكساء في فصل الشتاء والصيف.

ولم تقف مهمة الظاهر بيبرس عند هذا الحد بل تعداه إلى العناية بالجامع الأزهر نفسه، فجدد في بنائه، وردّه إلى الحال التي كان عليها زمن الفاطميين، وجعل منه مثابة للعلماء والفقهاء والمدرسين والباحثين. وقصده الطلاب من جميع أنحاء العالم الإسلامي. وبذلك تمت للقاهرة مكانتها العلمية والأدبية، ونبع كثيرون من الكتاب والأدباء والعلماء ومن جملتهم محي الدين بن عبد الظاهر صاحب كتاب «السيرة الظاهرية»، وابن خلكان صاحب كتاب «وفيات الأعيان»، وابن واصل صاحب «مفرج الكروب في أخبار بني أيوب»، وغيرهم.

ثم أنت أسيرة قلاوون بعد أسيرة بيبرس فسارت على هذا النهج وأكثر من بناء المدارس والجوامع والبيمارستانات وما إليها. فأنشأ السلطان المنصور قلاوون في سنة ٦٨٨ هـ مدرسة وقبة ومارستاناً في مكان واحد، هو المعروف في وقتنا هذا بمستشفى قلاوون. وقيل في سبب بناء المارستان المذكور إن قلاوون لما ذهب لغزو الروم سنة ٦٧٥ هـ — وذلك في عهد السلطان الظاهر بيبرس — أصابه وهو يدمشق مرض شديد فعالجه الأطباء هناك بأدوية جلبوها له من مارستان الملك نور الدين محمود، فلما شفي قلاوون ذهب بنفسه لمشاهدة المارستان، ونذر إن هو اعتلى عرش مصر ليبني مارستاناً مثل مارستان نور الدين محمود!

وتوفي السلطان المنصور قلاوون وخلفه على عرش مصر ابنه السلطان الملك الناصر محمد، فجرى على نسق أبيه في إنشاء المدارس. وبنى المدرسة الناصرية ومكانها الآن شارع النحاسين. وعين بها المدرسين

للذاهب الأربعة . والحق بها مكتبة حافلة . ووجد التاصر بعد ذلك بناء
المارستان الكبير الذى بناه أبوه الملك المنصور قلاوون .

ثم أتمت دولة المماليك البرجية فسارت على هذه السنة . وبنى كل
من السلطان برقوق والسلطان قايتباى والسلطان القورى ، مدارس
ومساجد امتلات بالأساتذة والمدرسين ، وزودت بالكتب الكثيرة من
شتى العلوم . وسارت النهضة العلمية فى طريقها حتى نهاية عصر المماليك .

الميول العلمية لسلطين الدولتين الأيوبيه والمملوكيه

لابد من الإشارة بعد ذلك إلى بعض الميول العلمية لسلطين الدولتين
الأيوبيه والمملوكيه ، ثم إلى الطريقة التى رعوها بها الحركة العلمية . وإن كنا
لا نستطيع الإفاضة فى هذا الموضوع خوف الإطالة . ولذا سنكتفى
بأمثلة من هذا التشجيع توضح فى الوقت نفسه بعض هذه الميول .

ولنبداً بالعصر الأيوبي وهنا لا نصادف ملكاً من ملوك هذه الدولة
الأيوبيه أو أميراً من أمرائها قليل العناية بالعلم والاحتفاء بالأدب .
بل أوشك أن يكون كل واحد من هؤلاء إما شاعراً ، وإما فقيهاً ،
أو محدثاً ، أو نحويًا ، أو رجلاً ذا تصانيف علمية أدبية . لا نكاد
نستثنى من ملوك الأيوبيه غير الملك الصالح نجم الدين أيوب الذى
وصفه المؤرخون بأنه كان ذا طبيعة عسكرية لم تساعد كثيراً على أن
يكون ذا ميل إلى العلم أو الأدب . ومع هذا وذاك فإن هذا الرجل
لم تمنعه طبيعته هذه من بناء المدارس ، والإكثار من أماكن العلم
على النحو الذى سبقت الإشارة إليه .

أما السلطان صلاح الدين مؤسس الدولة الأيوبية ، والذي أفنى حياته في محاربة الصليبيين فلم تمنعه هذه الشواغل الكثيرة عن العناية بعلوم الدين . والسعى لتحصيلها بنفسه . فكان يذهب لسماع الدروس الدينية من الأئمة المشهورين كالحافظ السلفي والشيخ أبي طاهر ابن عوف . ولقد سمع صلاح الدين على هذا الأخير كتاب الموطأ لابن مالك . كما قرأ عليه الشيخ تاج الدين المسعودي دروساً كثيرة في الحديث وهكذا .

وأما الملك العادل أبو بكر أيوب أخو السلطان صلاح الدين فكان شديد الحب للعلماء والاهتمام بهم ، حتى قيل إن الإمام نجر الدين الرازي صنف له كتاباً سماه (تأسيس التقديس) كان الملك العادل كثير النظر فيه والرجوع إليه .

أما الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب فما حكي عنه أنه كان يعظم أهل السنة ، ويسعى إلى الاجتماع بالعلماء . وكانت عنده مسائل غريبة من فقه ونحو يختبرهم بها . فمن أجاب قدم وحظي عنده بالمنزلة الكبرى . وكانت تبيت عنده بالقلعة جماعة من أهل العلم ينصب لهم أسرة ينامون عليها بجانب سريرهم ليسامروا ويحدثوه في العلم والآداب .

وكان الملك عيسى من أولاد الكامل محمد ملكاً على الشام . وكان مع شغله بالملك نحويًا كبيراً ولغويًا عظيمًا وفقهياً مشهوراً . وانفرد بالمذهب الحنفي من دون ملوك الأيوبية الذين يميلون إلى المذهب الشافعي ففقر إليه علماء المذهب الحنفي وشجعهم على التأليف فيه .

وأما سلاطين الممالك فهم تلاميذ بنى أيوب فى تحميمهم للدين وتشجيعهم العلوم . كما كانوا تلاميذهم فى السياسة والحروب مع فارق واحد فقط لا مناص من ذكره والتنبيه إليه . وخلاصة هذا الفرق أن ملوك بنى أيوب كان أكثرهم يشاركون مشاركة فعلية فى الأدب والعلم ويصنفون فيها كتباً كثيرة ؛ على حين أن سلاطين الممالك اكتفوا بتشجيع العلم وبالإغداق على أهله من المال والعطاء ما يضمن لهم البقاء .

الحياة العلمية فى العصر العثمانى

غير أنه بزوال العصر المملوكى بدولتيه البحرية والبرجية وبحيـء الدولة العثمانية تغير وجه الحياة المصرية وتعطل سير العمل بهذه السنة الحيدة وهى بناء المدرسة . وأصبح العلم محصوراً فى مكان واحد فقط على وجه التقريب وهو :

الأزهر :

ونحن نعلم أن الذى بنى هذا المسجد أو الجامعة هو جوهر الصقلي بعد عام واحد من الفتح الفاطمى . وفتح هذا الجامع للصلاة عام ٣٦١ للهجرة . ثم زاد كثير من الخلفاء الفاطميين فى بناء الأزهر شيئاً فشيئاً حتى جاء عهد العزيز بالله الفاطمى فجعل منه معهداً علمياً ضخماً . ثم جاء عهد الحاكم بأمر الله د ٣٨٦ — ٤٦١ هـ ، فزاد أيضاً فى بناء هذا المسجد ، وحبس عليه أوقافاً كثيرة أخرى .

وزالت الدولة الفاطمية وتلتها الدولة الأيوبية . وكانت تخالفها في المذهب كما قلنا فلم يلق الأزهر من عناية الدولة الأيوبية ما لقيه من عناية الدولة الفاطمية . واتفقوا نحو قرن من الزمان قبل أن يستعيد الجامع الأزهر عطف الولاة والحكام .

ثم جاء عهد الملك الظاهر بيبرس من سلاطين المماليك فزاد في بناء الأزهر ، وشجع التعليم به ، وأعاد الخطبة فيه . وحذا حذوه كثير من أمراء المماليك .

ثم قوجىء الشرق الإسلامى كله بغزوات المغول . وأصاب الإسلام من هذا الخطر شيء عظيم . وتعرضت الحضارة الإسلامية نفسها للزوال من هذا الوجود . فزاد عطف المماليك على الجامع الأزهر . واستطاعت هذه الجامعة الإسلامية الكبيرة اذ ذاك أن تحتفظ بالتراث الإسلامى بكل عناصره بعيداً عن خطر المغول . وأعاتها أحوال مصر السياسية والمالية والجغرافية على تأدية هذه المهمة .

وسقطت منارة الأزهر في عهد السلطان برقوق فأقامها من ماله الخاص . . وأنشأ للجامع صهريجاً للمياه ، وأقام له ميسضة .

ثم كان السلطان قايتباى أكثر الناس بعد ذلك رعاية للجامع الأزهر وأتى بعده قانصوه الغورى آخر سلاطين المماليك فشيده فيه المثذنة ذات البرجين .

ثم في العهد العثمانى جاء السلطان سليم الأول لزيارة الأزهر وللصلاة فيه ، وتصدق على فقراء المجاورين . وسار سلاطين آل عثمان هذه

السيرة . ولقى الجامع الأزهر منهم قدراً لا بأس به من الرعاية . ومن ذلك أنه أقيمت به زاوية خاصة بالمكفوفين سميت « زاوية العميان » بناها (عثمان كئخدا) عام ١١٤٨ هـ .

ثم جاء عبد الرحمن كئخدا بعد ذلك فكان من أكثر الناس إحساناً إلى الأزهر . بنى به مقصورة ومنبراً للخطابة . وأنشأ به مدرسة لتعليم الأيتام مبادئ القراءة والكتابة . وعمل به صهرجاً للمياه ، وشيد له قبراً دفن فيه في النهاية .

مشيخة الأزهر :

ولم يكن للأزهر رئيس علمي إلا في عهد الدولة العثمانية . أى أن الولاة العثمانيين هم الذين خلقوا هذه الوظيفة المهمة ، وهى وظيفة « شيخ الأزهر » . وبها يعتبر رئيساً لشيوخ الأقسام الكثيرة التى تنقسم إليها هذه الجامعة .

وقد حفظ لنا الجبرقى في تاريخه ثبثاً بأسماء شيوخ الأزهر لأكثر من قرنين من الزمان ، ابتداء من عام ١١٠٠ للهجرة . وأظهر لنا أن رعاية الولاة التركى كان لها أكبر الأثر دائماً في انتخاب شيوخ الأزهر .
وهم على التسالى : —

— محمد بن عبد الله الخرشى المالكى المتوفى سنة ١١٠١ هـ

— محمد النشرقى المالكى — المتوفى ١١٢٠ هـ

— احمد النفراوى (لا نعلم سنة وفاته)

— عبد الباقي القليني .

وقد اختلف الشيخان الأخيران اختلافا وقع بسببه شجار عنيف بين الطلبة سقط فيه بعضهم جرحى وقتل ١

— محمد شبن المالكي المتوفى سنة ١١٣٣ هـ .

— ابراهيم بن موسى الفيوي المالكي المتوفى سنة ١١٣٧ هـ

— عبد الله الشبراوى الشافعى المتوفى سنة ١١٧١ هـ

— محمد بن سالم الخلق الشافعى المتوفى سنة ١١٨١ هـ

— احمد بن عبد المنعم الدمنهورى المتوفى سنة ١١٩٠ هـ

— عبد الرحمن بن محمد العريشى الحنفى المتوفى سنة ١٢٠٨ هـ

— عبد الله الشرقاوى الشافعى المتوفى سنة ١٢٢٧ هـ

وفى أيام هذا الأخير جاءت الحملة الفرنسية ، وارتاع لها المصريون جميعاً على النحو الذى شرحه الجبرقى .

وهؤلاء جميعاً تعلموا فى الأزهر . ثم تولوا التدريس بأنفسهم حتى وصلوا إلى هذه الدرجة .

السمات العلمية لكل عصر من هذه العصور التاريخية

كان لكل عصر من العصور الثلاثة التى تؤرخ لها سمات علمية تختلف عن سمات الآخر . ومن الخير أن نتعرف على هذه السمات حتى يزداد إدراكنا لهذه الفترات التاريخية التى مرت بالبلاد :

سمات العصر الأيوبي

أما العصر الأيوبي فهو امتداد للعصرين الطولوني والاختيادي : وذلك من حيث العلوم التي نهض بها المصريون في هذين العصرين السابقين . وهي علوم الحديث والتفسير ، والقراءات والنحو والبلاغة . والنتيجة التي يصل إليها هي أن العصر الأيوبي أحرز في كل علم من تلك العلوم تقدماً ملموساً ، وأن هذا التقدم تم على أيدي علماء كان لهم شأنهم وشهرتهم ومؤلفاتهم . (١)

وقد أعانهم على ذلك ما سبق أن ذكرناه من أن ملوك الأيوبيين كانوا يميلون بطبعهم إلى العلم . بل كان منهم الفقيه والنحوي والكاظم والشاعر والمؤرخ . ولولا ذلك لما استطاع العصر الأيوبي أن يسير بالهضة العلمية هذه السيرة ، أو يقطع في ميدان العلم مثل هذه المسافة .

وبإيجاز شديد كان العصر الأيوبي إرهاباً لعصر جديد ، هو العصر المملوكي . وفي هذا الأخير مضى العلم أشواطاً أخرى ، وجاء حادث المغول وهجومهم على العراق فزاد العلماء أنفسهم تحمساً للعلم ، ورغبة في حفظه من

(١) سبق أن ذكرنا في مقدمة الكتاب أننا تعمدنا الإيجاز في وصف الحركة العلمية في العصرين الأيوبي والمملوكي خاصة اعتماداً منا على كتاب آخر وضعناه منذ سنوات وذلك بعنوان :

(الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول)

وهو كتاب يقع في ٣٨٨ صفحة . وقد تتبنا فيه حركة العلماء المصريين في كل علم من العلوم السابقة على حدة

يد غوائل الدهر . ومن ثم ظهرت الموسوعات التي من أجلها أطلق على :

العصر المملوكي عصر الموسوعات :

وكما حمت مصر بسيوفها بلاد الإسلام من خطر المغول الذي أشرنا إليه ، فكذلك حمت مصر بأقلامها تراث الإسلام من هذا الخطر الذي أوشك أن يقضى عليه .

ذلك أن مصر بعد هذه الكارثة قتحت أبوابها للاجئين إليها من العلماء والأدباء الفارين من وجه الخطر المغولي . وفي مصر أمن أولئك العلماء على نفوسهم ، وشجعهم سلاطين المماليك على القيام بواجبهم . فقاموا بجمع المواد التي تألف منها الثقافة الإسلامية ، وذلك في كتب كبيرة على شكل « موسوعات » أو « دوائر معارف إسلامية » . ومنها على سبيل المثال :

لسان العرب لابن منظور :

وهو معجم واسع المادة ، عظيم القدر ، جمع فيه مؤلفه بين كتب ستة وهي :

التهذيب للأزهري ، والصحاح للجوهري ، وحواشي ابن بري على هذا الأخير ، والمحكم لابن سيده ، والخصص له أيضاً ، والنهاية لابن الأثير .

وبلغت مواد هذا المعجم اللغوي الكبير ثمانين ألف مادة ، وبذلك أصبح معجمه من أكبر المعاجم التي وصلت إلينا .

وأصبحت المادة التي تملأ صفحة واحدة في القاموس المحيط تملأ أربع صفحات في اللسان . وإذا بلغ هذا الكتاب عشرين جزءاً .

واستطرد ابن منظور في شرح المادة اللغوية على عادة أصحاب الموسوعات في زمانه . ومن ثم جاء كتابه في الحقيقة كتاب لغة ونحو وصرف وفقه وأدب وأخبار وأحاديث وتفسير في وقت معاً .

ثم من تلك الموسوعات على سبيل المثال أيضاً :

نهاية الأرب للنويرى :

وهو شهاب الدين النويرى . نسبة إلى نورة إحدى قرى بى سويف . ولد بها سنة ٦٧٧ هـ . ثم سافر إلى قوص وسمع من العلماء وكان ناظراً لديوان الجيش في عهد السلطان محمد بن قلاوون . وألف كتابه (نهاية الأرب) في ثلاثين جزءاً جعلها في ستة فنون :

الأول — في السماء والآثار العلوية

والثاني — في الإنسان وما يتعلق به

والثالث — في الحيوان الصامت

والرابع — في النبات

والخامس — في التاريخ

والسادس — في نظم الحكومة

ثم من الموسوعات التي ظهرت في عصر المماليك موسوعة بعنوان :

مسالك الأبحار في ممالك الأمصار:

وصاحبها ابن فضل الله العمري . جعل موسوعته جغرافية في أكثرها . وهي في أربعة عشر جزءاً . وموضوعها وصف الأرض وما اشتملت عليه برأ وبحراً ، . وهي قسمان :

أولهما — في الأرض

وثانيهما — في سكان هذه الأرض

والقسم الأول منهما نوعان .

أولهما — المسالك .

وثانيهما — الممالك .

ثم من تلك الموسوعات التي شهدها العصر المملوكي .

كتاب صبح الأعشى:

ومؤلفه القلقشندي نسبة إلى قلقشنده من أعمال قليوب بالديار المصرية . وهو من أهم الكتب التي تعرضت لصناعة الإنشاء . وقد رتب مؤلفه على مقدمة وعشر مقالات وخاتمة .

ففي المقدمة ذكر فضل الكتابة والكتاب ، ووضع الفرق بين كاتب الإنشاء وكاتب المال ، وتكلم عن صفات الكتاب وآدابهم . وفي المقالة الأولى تحدث فيما يحتاج إليه الكاتب من النحو والصرف والبدع والبيان .

وفي المقالة الثانية — تحدث عن ثقافة الكاتب الجغرافية والتاريخية

وفي المقالة الثالثة — تحدث عن الورق وأنواعه وما يناسب كل نوع منها من الأقلام .

وفي المقالة الرابعة — تحدث عن البلاغة في اللفظ والمعنى وعن الشعر ونحو ذلك .

وفي المقالة الخامسة — تحدث عن الولايات للخلافة والسلطنة وأرباب الوظائف الإدارية والدينية .

وفي الخاتمة ذكر أموراً تتعلق بديوان الانشاء كالبريد والحمام الزاجل ومراكب الثلج والمنارات .

ومات القلقشندي عام ٨٢١ هـ وعمره خمس وستون سنة .

العصر العثماني عصر الشروح والحواشي

وفي العصر العثماني طوت مصر صفحة التفوق في الأدب وفي العلم — أوكادت تطوى هذه الصفحة العظيمة من حياتها . فقد عاش الدارسون في هذا العصر العثماني على ما ورثوه من كتب العصور المملوكي والايوبي . وحصروا همهم — كما قلنا — في شرح هذه الكتب القديمة . ثم تلتهم طبقة أخرى ركزت جهودها في شرح هذه الشروح التي وضعت لتيسير هذه الكتب القديمة . ثم جاءت طبقة ثالثة كتبت الحواشي والتقارير عن هذه الشروح وشروح الشروح وهكذا .

ولقد دعا ذلك عالماً من علماء العصر العثماني — واسمه ساجني زادة —

المتوفى سنة ١١٥٤ هـ إلى وضع كتاب عنوانه « ترتيب العلوم » ، قال في مقدمته ما يلي :

« إنه نظراً لتكاثر الشروح وشرح الشروح والخواشي وخواشي الخواشي ، وتفرع العلوم وكثرتها أصبح أمرها عقبة في طريق طلاب العلم . إذ يلتبس عليهم فهم القضايا ، لأنهم يقرأون الحاشية أو الشرح قبل المتن . فألفت هذا الكتاب لترتيب العلوم ، بحيث يعرف الأصل من الفرع ... الخ . »

معنى ذلك أن مجال البحث العلمي في العصر العثماني بقي محصوراً في الحدود التي رسمها العلماء الذين عاشوا في ذلك العصر . ونعني بهذه الحدود الشروح وشروح الشروح وما إلى هذه المواد من الخواشي والتقارير ، أما التأليف العلمي البحث ، أو التصنيف البحث ، أو الإنشاء والابتكار البحث فلم يكن له وجود في العصر العثماني . لا نكاد نستثني من هذه القاعدة غير طائفة يسيرة من العلماء يتحتم علينا هنا أن نضرب المثل بأحدهم وهو :

السيد مرتضى الزبيدي :

وبه نختم الكلام عن الحركة العلمية . وقد كان الزبيدي حسنة من حسنات العصر العثماني . أو كان فلتة من فلتاته في الحقيقة . والزبيدي هذا هو أبو الفيض محمد بن محمد بن عبد الرزاق الشهير بمرتضى الحسيني الزبيدي . ولد (بزبيد) في الين سنة خمس وأربعين ومائة وألف . ونشأ بها . وارتحل في طلب العلم . فوصل إلى مكة والطائف . ولقي فيها العلماء والفضلاء والأمرأء . وأكرمه هؤلاء جميعاً بدون استثناء .

ثم دخل مصر سنة سبع وستين ومائة وألف . وهو يومئذ في الثانية والعشرين من عمره . وسكن حياً من أحياء القاهرة يقال له « حي الصاغة » .

وحضر في مصر على شيوخ الوقت . ثم راج أمره ، وسار ذكره وعرف عند الخاص والعام . وسافر إلى الصعيد ثلاث مرات ، واجتمع هنالك بالأعيان والكبراء والعلماء والأدباء . ثم قام برحلة أخرى إلى الوجه البحري . فربمدين دمياط ورشيد والمنصورة وغيرها . واستقبله الناس في كل مدينة بمثل ما استقبل به في مدن الصعيد . وكتب الزبيدي في هذه الرحلات بعض محاضرات ومدائح قال عنها الجبرتي أنها لو جمعت في كتاب لكانت مجلداً ضخماً .

الزبيدي صاحب تاج العروس :

غير أن أعظم عمل قام به الزبيدي وخلد ذكره في التاريخ هو شرحه القاموس المحيط للفيروزبادي في أربعة عشر مجلداً أطلق عليها اسم (تاج العروس في شرح القاموس) . ونحن نعلم أن القاموس المحيط هذا عبارة عن أربعة مجلدات فقط فإذا جاء كتاب (تاج العروس) في أربعة عشر مجلداً فهو أشبه ما يكون بدائرة معارف في اللغة تشبه من قريب (لسان العرب) لابن منظور .

ولما أكمل الزبيدي كتابه هذا أولم وليمة حافلة جمع فيها طلبة العلم وشيوخ الوقت . وكان ذلك سنة إحدى وثمانين ومائة وألف . ثم أطلعهم على كتابه ، فاغبطوا به ، وشهدوا بفضل ورسخه في اللغة إلى

هذا الحد . وكتبوا عليه تقاريطهم ثراً وفضلاً . ومنها قول أحدهم :

شرح الشريف المرتضى القاموسا وأضاف ما قد فاته قاموسا
فخذت صحاح الجوهري وغيرها سحر المدائن حين ألقى موسى
فهو الفريد فلا يثنى جمعه إذ لا يحاك كمثل تدليسا
ولسان نظمي عاجز عن مدحه قاله ينثر نظمه تقديسا
ويديم مولاي الشريف لمصرنا في كل قطر الهداة رئيسا

ومن نظموا في (تاج العروس) والد الجبرقي نفسه وكان قد حضر الاحتفال الذي قرئت فيه هذه التقاريط .

ولما أنشأ (محمد بك أبو الذهب) جامعه المعروف بالقرب من الأزهر عمل فيه خزانة كتب . واشترى جملة من الكتب وضعها بها . وأخبره العلماء بتاج العروس ، وعرفوه بقدره ، فطلبه من مؤلفه ، وعوضه عنه مائة ألف درهم فضة ، وجعله من كتب الخزانة .

كان المرتضى الزبيدي — فيما يقول الجبرقي — بحراً في جميع الفنون التي عرفها عصره . وكان حجة في علم الأنساب والأسانيد وتبريح الحديث . وألف كتباً ورسائل ومنظومات وأراجيز في كل ذلك .

وانتقل الزبيدي إلى منزل بسوينة اللالك تجاه جامع محرم افندي سنة ١١٨٩ هـ . وكانت تلك الخطبة عامرة بالكابر والأعيان . فأحدقوا به ، وتحببوا إليه ، وهادوه وهو يظهر لهم الغنى والتعفف . ويعظمهم

وفيفيدهم فوائد شتى . وكان يعرف اللغة التركية ، واللغة الفارسية وبعض لسان الكرج ، ثم شرع في إملاء الحديث على طريقة السلف في ذكر الأسانيد والرواية . ومن ذلك الوقت وهو يكثر من إعطاء الدروس وإقامة المجالس في شتى المساجد . وكان يحضر لسماعه مئات العلماء والأمرأء والطلبة وغيرهم . وأقبلت عليه الدنيا ، وملأها علماً ومعرفة .

تأليف أخرى للزبيدي :

قام الزبيدي بتأليف كتب أخرى — عدا كتاب تاج العروس — كان من أهمها كتاب له في شرح (إحياء علوم الدين) للغزالي . وطار صيت هذا الكتاب الأخير حتى طلبه العلماء والمفضلاء في كل مكان . وكاد يبلغ في شهرته كتاب تاج العروس .

ولم يكف الزبيدي بهذين الكتابين السابقين حتى أضاف إليهما كتباً كثيرة أخرى من أهمها ما يلي :

١ — كتاب الجواهر الخفية في شرح أصول مذهب أبي حنيفة .

٢ — كتاب حكمة الاشراف إلى كتاب الآفاق .

٣ — كتاب شرح الصدر في أسماء أهل بدر .

وهكذا استطاع هذا العالم البني الأصل المصري الإقامة ألا^١ يجعل من العصر العثماني عصراً خالياً من العلم . وإن كان علماً في الإطار الذي وصفناه من قبل . وهو إطار الشروح ، وشرح الشروح ونحو ذلك .

ولكن مهما قيل في هذه الشروح والخواشي فإنها دلت عند بعض العلماء كالزبيدي والصبان ^(١) وغيرهما على علم غزير ، وحفظ كثير ، واستيعاب دقيق قل أن يكون له نظير في العصر الحديث .

وماتت زوجة الزبيدي سنة ١١٩٦ هـ — فحزن عليها حزناً عظيماً ، ونظم في رثائها مقطوعات شعرية كثيرة . كلها رقيقة . ومنها قوله :

سأبكي عليها ما حيت وإن أمت
ستبكي عظامي والأضالع في القبر
ولست بها مستقبياً فيض عبء
ولا طالباً بالصبر عاقبة الصبر
ومن هذه المقطوعات :

خليلي ما الأانس أضحي مقطعاً
وما لفؤادي ما يزال مروّعا
أمن غير الدهر المُمشتُّ وحادث
المَّ برحلى أم تذكرت مصرعا
والا فراق من اليقة مهجتي
إِ زبيدة ذات الحسن والعقل أجمعاً

(١) هو أبو العرفان الشيخ محمد بن علي الصبان أحصى له الجبّري أكثر من عشرين شرحاً وحاشية . كلها في الفقه والنحو والتفسير والقراءات . وما زال طلبة الأزهر إلى أيامنا هذه يحفظون طرفاً منها . وخاصة حاشية في النحو على ابن عقيل .

مضت فضت عني بها كل لذة
تقر بها عيناى فانقطعا معا
فمن مبلغ عني بمكة أتى
بسكيت فلم أترك لعيني مدماً .

ومن هذه المقطوعات :

أعاذل من يرزأ كرزئ لم يزل
كسبياً ويزهد بعنه فى العواقب
أصابته يد البين المشت شمائل
وحاقت نظامى عاديات النوائب
فتاة الندى والجود والعلم والحيا
ولا يكشف الأخلاق غير التجارب



الفصل الثالث

الحياة الروحية

نقصد بالحياة الروحية لآمة من الآمم نوع العقيدة المذهبية التى تختارها هذه الآمة فى فترة من فترات تاريخها ، وما يمكن أن تركه عقيدتها المذهبية من أثر فى الحياتين العامة والخاصة . ونحن نعرف أن الفواطم كانوا شيعة ، وأن بنى أيوب والمماليك والعثمانيين كانوا سنة ، وأن الفرق عظيم بين المذهبين ، وقد زاد من سعة هذا الفرق بينهما غلو الفاطميين فى عقائدهم التى منها القول (بالعلم الباطن) ومنها القول (بعصمة الأئمة) ونحو ذلك من الأقوال . أما السنة فذهبهم بسيط ومعروف ، وهو أدنى . فى الواقع إلى الدين الصحيح على الصورة التى أوحى بها إلى صاحب الشريعة محمد صلوات الله عليه وسلامه .

على أن هذه العقيدة الساذجة التى أوحى بها صاحب الرسالة تعرضت لألوان من التغيير والتبديل بعدت به هذه العقيدة نفسها عن سذاجتها الأولى ، ودخلت عليها الفلسفة من كل باب ، فعقدتها وجعلت منها شيئاً غريباً كل الغرابة على العقل السنى .

ونقرأ تاريخ مصر السياسى والاقتصادى من القرن السادس إلى القرن العاشر . فإذا مصر مجاهدة من الحروب الصليبية التى أفقدتها كثيراً من

المال والرجال ، وردتها إلى لون من الحياة فيه شعور بالفقر ، وإن كان فيه شعور بالكرامة والفخر . ولقد ضاعف شعور المصريين بالفاقة يومئذ مامنيت به بلادهم من الجماعات الشديدة التي أشرنا إلى شيء منها . ومن شأن هذه الحالة الاقتصادية وأمثالها أن تخلق في الناس خشوعاً في حياتهم ، واستعداداً للخضوع لدينهم ، وأملاني نعيم الآخرة بدلاً من نعيم الآجلة .

في هذه الأجواء الشعورية التي تشير إليها قوى ميل المصريين إلى (التصوف) . وشجعهم الولاة والحكام على هذا الميل . ووجدوا في تشجيعهم عليه تقريباً إلى الله تعالى من جهة ، وتقوية للروح المعنوي الذي لا بد منه في محاربة المسلمين لأعدائهم من الصليبيين والمغول من جهة أخرى .

ولم تدم قليل في التصوف أنه محاولة الوصول إلى الذات الإلهية بطريق القلب لا العقل . والمتصوفة يطلقون على هذا الطريق اسم « سفر » وعلى المسافر اسم « سالك » وعلى المراحل التي يمر بها « مقامات » . وهي عندهم سبع مراحل تلي بعضها بعضاً ، منها التوبة ، فالورع ، فالزهد ، فالفقر « بحيث لا يملك شيئاً ولا يملكك شيء » الخ .

ومصدر التصوف عند الباحثين هو ثورة الضمير لما يصيب الناس من مظالم لا تقتصر غالباً على ما يصدر عن الآخرين ، وإنما تنصب أولاً على ظلم الإنسان نفسه . وتقترب هذه الثورة برغبة في الوصول إلى الله عن طريق تصفية القلب من كل شاغل مادي في هذه الحياة الدنيا .

الخانقاه في مصر

وكما اشتهرت الدولتان الأيوبية والمملوكية ببناء المدارس لتعليم الفقه والحديث ، ولإذكاء الحماسة الدينية اللازمة للحروب ، فكذلك اشتهرت هاتان الدولتان ببناء أماكن العبادة يقضى فيها المتصوفة كل أوقاتهم وتنفق الدولة عليهم في أثناء إقامتهم بهذه الأماكن ، واسمها « الخوانق » جمع خانقاه .

وكان من عمل الخانقاه لإيواء الغرباء من المسلمين ، والسماح لهم ولأسرهم بالإقامة فيها . أما الصلاة فإنهم يؤدونها في قاعة عامة تسمى « بيت الجماعة » . أما صلاة الجمعة بنوع خاص فإنها لا تقام بالخوانق . ومن ثم كان على المتصوفة أن يغادروها في كل جمعة إلى أحد مساجد المدينة . وكان لخروجهم يوم الجمعة مشهد رائع يغرى الناس جميعاً بالنظر إليهم ، والتبرك بهم في طريقهم إلى المسجد .

قلنا إنه كان لهذه الخوانق جزء خاص من ميزانية الدولة ، وإن الدولة رأت في هذا العمل تقرباً من الله وزلفى . وكانت لا تسمح لنفسها بأن تأخذ من مال الخانقاه شيئاً ولو لمصلحة أخرى من المصالح العليا . لذلك أثر عن نور الدين محمود ملك دمشق أن أصحابه قالوا له يوماً : إن لك في بلادك إدارات كثيرة للفقهاء والفقراء والصوفية . فلو استعنت الآن بها لكان أمثل . فغضب نور الدين وقال : والله إنى لأرجو النصر إلا بأولئك . فانما ترزقون وتنصرون بضعفائكم . كيف أقطع صلات

قوم يقاتلون عنى وأنا نائم فى فراشى بسهام لا تخطىء وأصرفها إلى من لا يقاتل عنى إلا إذا رآنى بسهام قد تخطىء وقد تصيب ؟
وبهذا المبدأ عمل صلاح الدين أسوة بأستاذه نور الدين . وجرى العمل على ذلك فى جميع العصور التى تدرخ لها حتى مجيء الحملة الفرنسية .

والثابت فى التاريخ أن صلاح الدين أول من أحدث الخوانق بمصر . فبنى خانقاه « سعيد السعداء » وبنى سلاطين المماليك من بعده جملة من هذه الخوانق . ومنها :

خانقاه البيبرسية :

بناها الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير سنة ٥٧٠٩هـ . يقول المقرئى وهى أجمل خانقاه بالقاهرة ببنائها وأوسعها مقداراً ، وأتقنها صنعة . والشباك الكبير الذى بها هو شباك دار الخلافة ببغداد وكانت الخلفاء تجلس فيه .

خانقاه سرياقوس :

بناها الملك الناصر محمد ابن قلاوون وكانت فى أيامه من أجمل ضواحي القاهرة . وقيل فى سبب إنشائها إن الناصر ركب كعادته للصيد ، وبينما هو فى الطريق إذ اتتبه ألى شديد كاذ يقضى عليه . ثم نزل عن فرسه ، ولكن الألى تزايد عليه فنذر إن عافاه الله أن يبنى فى هذا الموضع مكاناً يتعبد فيه الناس لله تعالى .

خانقاه قوصون :

بُنيت سنة ٧٣٦ هـ . وأول من ولى مشيختها هو الإمام شمس الدين محمود الأصفهاني المشهور بتصانيفه الكثيرة .

خانقاه شيخو :

بناها الأمير شيخو سنة ٧٥٧ هـ . ورتب فيها أربعة دروس على المذاهب الأربعة ، ثم درساً للحديث ، ودرساً للقراءات . وشرط الأمير في شيخ الخانقاه أن يكون عارفاً بالتفسير والأصول وألا يكون قاضياً . وجعل هذا الشرط عاماً في جميع أرباب الوظائف بالخانقاه . والسبب في ذلك أن أتقياء المسلمين كانوا يخرجون من وظائف القضاء ويقتنافسون على وظائف التعليم .

المتصوفة في مصر

إن الناظر في أحوال المتصوفة الذين ظهرُوا بمصر في العصور التي نؤرخ لها يستطيع أن يميز فيهم بين طبقات ثلاث :
الأولى : — طبقة المتصوفة الفلاسفة . وعمر بن الفارض مثال واضح لرجال هذه الطبقة . ولذا سنتحدث عنه في فصل من فصول الكتاب عنوانه « الشعر الصوفي » .

الثانية : — طبقة المتصوفة الفقهاء . وهم على جانب عظيم من العلم ومن الهيبة في نفوس الخاصة والعامة . ومن الأئمة على هذه الطبقة السيد عبد الرحيم القنأى (نسبة إلى قنا) وتلميذه أبو الحسن الصباغ .

والثالثة : — طبقة المتصوفة الدراوئش . وحظ هذه الطبقة من العلم قليل ومن الفلسفة الدينية أقل . بل إن الفرق بين الدراوئش ورجال الطبقة الأولى يأتى من أن التصوف يعتبر عند رجال الطبقة الأولى نزعة فلسفية . ويعتبر عند رجال الطبقة الثالثة دروشة أو عبادة عملية .

والمعروف أن لكل فرقة من فرق الدراوئش طريقة خاصة بها . غير أن هذه الطرق تعددت حتى أحصى الباحثون منها ستاً وثلاثين طريقة . منها الطريقة الرفاعية ، والطريقة القادرية ، والطريقة البكتاشية ، والطريقة السنوسية . وهكذا .

وجال هذه الطبقة من الدراوئش ينظرون إلى علوم الشريعة على أنها قشور ، وإلى طريقتهم على أنها اللباب . وذلك فضلاً عن أنهم يؤمنون بالأولياء ، وبكرامات الأولياء ، وبخوارق العادات وبعص الخرافات . والعبادة عندهم أذكاء يقومون بها ويؤدون بها بنظام خاص . ومن أوضح الأمثلة على الدراوئش فى مصر :

السيد أحمد البدوى (٥٩٦ هـ — ٦٧٥ هـ) :

وفد على مصر من بلاد المغرب . وحدث له فى الثلاثين من عمره ما قيل لأنه غير مجرى حياته رأساً على عقب . ذلك أنه قرأ القرآن ، ودرس شيئاً من الفقه الشافعى . ثم عكف على العبادة واعتزل الناس وعاش فى صمت وامتنع عن الزواج . وفى عام ٦٣٤ هـ رأى رؤيا فى المنام أوحى إليه السفر إلى مصر . واختار لنفسه مدينة طنطا وبقي بهذه المدينة إحدى وأربعين سنة . ومات بها فى الثامن عشر من

شهر ربيع الأول . والغريب أن هذا هو نفس التاريخ الذى مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

على أن حياة السيد أحمد البدوى فى مصر كانت كماته ماثراً للعجب والدهشة من نواح شتى : منها أن الرجل كان يصعد إلى السطح كل يوم ، ويتجه ببصره إلى الشمس ويحدق فيها مدة طويلة حتى تحمر عيناه وتصبح كل واحدة منها كالجرة المشتعلة . ومنها أنه كان يمسك عن الطعام والشراب أربعين يوماً متوالية . وكان السيد أحمد البدوى يلبس ثوباً من الصوف الأحمر لا يبدله بثوب آخر حتى يبلى . وكان يضع على رأسه عمامة حمراء لا يغيرها حتى تبلى هى الأخرى .

وامتد سلطان هذا الدرويش فى مصر حتى عمها من أولها إلى آخرها . وزاد فى إيمان الناس به إذ ذاك طائفة من الكرامات يطول شرحها . ومن ثم فتننت العامة به فتنة عظيمة حتى إنه لو جمعهم على الخروج على ولى الأمر لفعلوا .

وتوارث الناس تقديس هذا الدرويش حتى كان عهدهم بدرويش آخر ظهر فى العصر العثمانى وهو :

الشعرانى . (المتوفى سنة ٩٧٣ هـ) .

وبالغ الناس فى احترام هذا الدرويش الأخير إلى درجة لا يقبلها العقل السليم ، وقد لا تتفق وكرامة علماء الدين . وشغل الشعرانى نفسه مدة كبيرة بالكتابة عن السيد أحمد البدوى وفضائله وتعريف الأجيال اللاحقة به .

ولد الشعراى بقريه من قرى المنوفية . وعاش بمدينة الفسطاط حياته
الصوفية . وأصبح له شأن عظيم حسده عليه معاصروه . وانتصر له جماعة
من الوجهاء وذوى النفوذ . وأنشأ لنفسه مدرسة توافد عليها الطلاب
من كل صوب . وكثر مريدوه كثرة عظيمة . وكتب فى شرح طريقته
أكثر من خمسين كتابا أهمها وأعظمها كتابه المسمى « اليواقيت
والجواهر فى بيان عقائد الأكاره » .

على أن كل طريقة من الطرق التى أشرنا إليها كانت صالحة فى وقتها .
وعلى الأخص فى بداية ظهورها . ولكنها لا تلبث بعد ذلك أن تتعرض
للفساد والعطن . وينوع خاص بعد أن يمضى عليها وعلى زعمائها من الوقت
ما يسمح للخلف بعد السلف بالانحراف عن الطريق السوى ، وبالعبد
بعقول العامة . وذلك ما قد حدث للأسف بالطبقة الثالثة من طبقات
المتصوفة ؛ وهى طبقة الدراويش التى قلنا إن حظها من العلم قليل ومن
التفكير أقل .

أتى على هؤلاء الدراويش حين من الدهر تركوا فيه تعاليم الدين
وابتدعوا . لا تقسمهم طريقة جديدة خالية من التقيد بقيد من قيود الدين .
حتى أصبحت هذه الطريقة الجديدة عبارة عن أذكار يجتمع لها العامة
يرقصون ويطربون ويأكلون ويشربون ويضيقون فى الوقت نفسه
بأقامة شعيرة واحدة من شعائر الدين ، لا شئ إلا لأنهم أصبحوا
يفهمون هذا الدين فهما غريبا لا يتصل بمذهب من المذاهب المعروفة

فى الإسلام من قرفب أو بعفد . لقف كان التصوف بطرائقه المعروفة سبفلا إلى تقوفم النفوس ، و تصففة القلوب ، و تغذفة الآرواح ، و تنوفر الأذهان ، و السمو بالفرد و الجماعة إلى أرقى مراتب الإنسان . فأصبع التصوف أو الدروشة فى العصور المتأخرة على التقفض من ذلك طرفما إلى الفساد و الانحراف ، و بابا تدخل منه جمفع البفع و الخرافات .

وهكذا وجدنا التصوف فى مصر فضمحل منذ أوائل القرن التاسع الهجرى ، أو قبله بقلفل . واستشرى الفساد فى أواخر ذلك القرن و أوائل القرن العاشر . و اقترن ذلك باضمحلل دولة الممالفك و بءاءة عصر العثمافن ففى كان كبار المتصوفة فى ذلك الففن لا فقفمون الصلاة بفعوى أنهم إنما فقفمونفا فى الأماكن المقدسة من ففى لا فراهم الناس . !



الكتاب السَّخِيحُ

في فنِّ الشعر

الفصل الأول

دواعي النهضة الأدبية في مصر

مرَّ الأدب المصري بأزهى عصوره أيام الحكم الفاطمي ، وهو الحكم الذي قضى عليه السلطان صلاح الدين الأيوبي . وكان لازدهار الأدب الفاطمي أسباب كثيرة من أهمها تشجيع الخلفاء المصريين ووزرائهم الأدب والأدباء بالمال في وقت عجزت فيه الخلافة العباسية بعد أن شاخت كل العجز عن شيء من ذلك .

ومن تلك الأسباب الأعياد التي كان يعنى بها الفاطميون سواء منها الأعياد الإسلامية والأعياد المسيحية . وقد زادت هذه الأعياد في مباحج الشعب المصري وأشعرتة بكرم الخلافة الفاطمية ،

ومنها — أى من تلك الأسباب — الدعوة الدينية التي أتت بها الدولة الفاطمية . فكما اعتمدت هذه الدولة في تثبيت قواعدها على العلم ، فكذلك اعتمدت على تشجيع الشعراء والكتاب وأصحاب الأقلام وأزباب الألسن .

فلما كانت الدولة الأيوبية فدولة الممالك وجدنا لازدهار الأدب المصري أسباباً شبيهة في جملتها بالأسباب السابقة . ومنها :

أولاً — التحمس الديني الذي اقترن بالحروب الصليبية ، ومن

أجله نما لون قوى من ألوان الشعر العربى هو الشعر السياسى أو شعر القومية الإسلامية .

ثانيا — التشجيع الذى لقيه الأدب والعلم من ملوك بنى أيوب وسلاطين المماليك ، واشتراك الكثيرين من أمراء الدولتين فى الحركتين الأدبية والعلمية ، وتنافسهم فى تشجيع الأدباء والعلماء وحثهم جميعا على العمل بشتى الوسائل .

وسنعرض لشعر الحماسة فى فصل مستقل باسم الشعر السياسى . وسنرى فيه كيف سائر الشعر المصرى جميع الأحداث التى وقعت فى داخل مصر وخارجها .

أما الآن فزريد أن نذكر بعض مظاهر التشجيع الذى لقيه الأدب على أيدي سلاطين الدولتين الأيوبية والمملوكية . ونكتفى بأمثلة قليلة من ذلك .

والذى نراه أن أول ما شجع الأدب فى مصر تلك الميول الأدبية الواضحة التى بدت من جانب الملوك الأيوبية . وبنوع خاص من جانب المؤسس الأول لهذه الدولة وهو السلطان صلاح الدين الأيوبي .

ذكر التاريخ عن هذا الرجل العظيم ، أنه كان يميل إلى الفضائل ويستحسن الأشعار الجيدة ، ويكثر من ترديدها فى مجالسة . ومن ذلك أنه كان كثيرا ما ينشد قول أبى المنصور محمد بن الحسن الخيرى :

وزارنى طيف من أهوى على جذر

من الوشاة ونور الصبح قد هتما

فكدت أوقظ من حولي به فرحا
وكاد يهتك ستر الحب في شغفا
ثم انتبهت وآمالى تخيل لي
نيلَ المنى فاستحالت غبطى أسفا
وكان يعجبه قول الشاعر المعروف بابن المنجم وهو :

وما خضب الناس البياض لقبحه
وأقبح منه حين يظهر ناصله
ولكنه مات الشباب فسودت
على الرسم من حزن عليه منازل

فكان إذا قال « ولكنّه مات الشباب » يمسك بكريمته (يردد لحيته)
وينظر إليها ويقول : أى والله مات الشباب !

بل إن صلاح الدين كان له فوق حبه للشعر ورغبته في حفظه قدرة
كذلك على تذوقه ونقده . قيل إن العباد الأصفياء عرض عليه يوما ما
بضع أبيات في وصف المشمش منها قوله :

بدت بين أوراق الغصون كأنها

كرات نضار في لجين مطرق

فقال له السلطان : تشبيه الورق باللجين غير موفق ؛ لأن الورق
نفسه أخضر . قال العباد : كرات نضار بالزرد محقق . فقال لا بأس .

وعلى هذا النحو كنت تجد في كل بيئة من البيئات العربية التابعة

للدولة الأيوبية أو الدولة المملوكية أميرا ذا نزعة أدبية أو علمية واضحة كل الوضوح . وحول هذا الأمير كنت تجد جوا علميا أدبيا ينشط فيه العلماء والشعراء والكتاب والوعاظ والفقهاء . وكان الأمير نفسه كثيرا ما يشارك مشاركة قوية في هذا النشاط ويجعل له نصيبا كبيرا منه : فهذه (حلب) كانت في يد الملك الظاهر بن السلطان الملك الناصر صلاح الدين . ثم في أيدي أولاد الظاهر من بعده . وكان الشعراء والعلماء ملتفين حول كل ملك منهم . وهم ثلاثة في العصر الأيوبي خاصة .

أولهم — الظاهر غازي الملقب غياث الدين .

وثانيهم — العزيز محمد بن الظاهر غازي .

وثالثهم — الناصر يوسف بن العزيز .

فعن الملك الظاهر غياث الدين يقول المؤرخون « إنه كان مهيبا ذا سياسة وفطنة ، ودولة معمورة بالفضلاء والعلماء والأكابر . وكان في دولته من أرباب العلم القاضي بهاء الدين بن شداد .

وكان الظاهر نفسه شاعرا ومن شعره :

ولما التقينا بعد بُعد تحسرت

دموعي إلى أن كدت بالدمع أغرق

فقلت لها يا عين هذا لقاءنا

فقلت ألسنا بعده تتفرق ؟

وهذه (دمشق) كانت في يد الملك العادل أخى السلطان صلاح الدين . ثم في أيدي أبناء العادل من بعده وأولهم الملك المعظم عيسى . وكان هذا

الآخر نحوياً لغوياً فقيهاً شاعراً في وقت معا . وكان حنفي المذهب . وبذلك انفرد من بين ملوك بني أيوب الذين كانوا جميعاً على مذهب الشافعي .

وقد أمر الفقهاء بأن يجردوا له مذهب أبي حنيفة دون المذاهب الأخرى المعروفة . فجردوه له في عشر مجلدات وسموه « التذكرة » ، فكان هذا الكتاب لا يفارقه سفرأ ولا حضراً . وسأله بعض الأئمة في ذلك وقال له : إن أكبر مدرس في الشام لا يمكنه أن يحفظ أكثر من كتاب القدوري في الفقه وأنت مع شغلك بالملك تحفظ عشر مجلدات . وأنا أخشى أن يأخذ الناس عليك ذلك ويستبعدوه منك . فقال عيسى : ليس الاعتناء بالألفاظ . إنما الاعتناء بالمعاني . ولك أن تسألني عن جميع ما في هذه المجلدات من المسائل ، فإن قصرت كان الصواب لكم . وإلا فسلموا لي .

واشتهر المعظم فوق هذا بالشعر . وكان يصدر فيه عن طبيعة سهلة ، لا تكلف فيها . وعرف المعظم بهذه السهولة حتى كان الإنسان في زمانه إذا فعل فعلاً لا تكلف فيه قيل (إنه كان يفعل فعلاً معظمية) !

ثم هذه (حماء) كانت في يد المظفر عمر بن شاهنشاه . وهو ابن أخي السلطان صلاح الدين . ثم آلت إلى ولده المنصور محمد . وكان المنصور هذا شجاعاً عالماً يحب العلماء . وكان في خدمته أكثر من مائتي معمم . ووضع كتباً منها كتاب « طبقات الشعراء » ، وكان ينظم الشعر الجيد . وهذه (بعلبك) كانت في يد فروخشاه ، ثم في يد ابنه إبراهيم من بعده . وكان إبراهيم هذا أديباً فاضلاً شاعراً محسناً . ويقال إنه أشعر بني أيوب ، وله ديوان شعر !

وندع جميع هذه البيئات ونأتى إلى (مصر) . فوجد فيها السلطان صلاح الدين مؤسس هذه الدولة . ثم ولده الأفضل وكان شاعرا له فضله فى الشعر . وكان فى صحبته الوزير الجورى المعروف ضياء الدين بن الأثير صاحب كتاب (المثل السائر) .

ثم غلب على حكم مصر (الملك العادل) عم الأفضل . وكان محبا للشعراء ومن أشهر شعرائه (ابن عنين) . وخلف العادل فى حكم مصر ولده (الملك الكامل) . وقد حكم مصر كما قلنا زهاء أربعين سنة . قضاه فى تشجيع العلم والأدب . ورويت عنه فى ذلك أخبار أعادت إلى الأذهان أخبار الرشيد والمأمون وغيرهما من خلفاء بنى العباس . « وكانت تبيت عنده بالقلعة فى كل ليلة جماعة من أهل العلم ، فينصب لهم أسرة ينامون عليها بجانب سريره ليسامروه . فنفقت العلوم والآداب عنده . وقصده أرباب الفضائل » .

ونوادى الملك الكامل الأدبية أكثر من أن تحصى ، منها - على سبيل المثال - أن الكامل كان فى ليلة من الليالى جالسا قد دخل عليه شاعر من الشعراء اسمه (مظفر) فقال له الكامل : اجز يا مظفر : قد بلغ الشوق متناه .

قال مظفر :

وما درى العاذلون ما هو

فقال الكامل :

ولى حبيب رأى هوانى

فقال مظفر :

وما تغيرت عن هواه

فقال الكامل :

رياضة النفس في احتمال

فقال مظفر :

وروضة الحسن من حلاه

فقال الكامل :

أسمر لدن القوام ألى

فقال مظفر :

يعشقه كل من يراه

فقال الكامل :

وريمه كله مدام

فقال مظفر :

ختامها المسك من لماء

فقال الكامل :

ليته كلها رقاد

فقال مظفر :

وليتي كلها انتباه

فقال الكامل :

وما يرى أن أكون عبدا

فقام مظفر على قدميه وقال :

بالملك الكامل احتماه

العالم العامل الذى فى كل صلاتنا نراه^(١)

ليث وغيث وبدر تم ومنصب جل مرتقاه

وما دمنا بصدد الكلام عن الميول الأدبية التى بدت من بعض ملوك
الأيوبية ، فلا غنى لنا كذلك عن الإشارة بذكر واحد منهم هو
(تاج الملوك بورى) وهو الأخ الأصغر للسلطان صلاح الدين الأيوبي .
وقد وصفه ابن خلكان بالفصاحة والشعر ، وذكر أن له ديوانا
ومنه قوله :

آه من ورد على خديك بالمسك منقط

بين أجفانك سلطان على ضعفى مسلط

قد تصبرت وإن برح في الشوق وأفرط

فلعل الدهر يوما بالتلاقي منك يغلط !

ومن شعره يهتف بحب مصر :

شربت من الفرات ونيل مصر

أحب إلى من ماء الفرات

(١) هكذا جاء بالأصل والوزن في رأينا غير مستقيم (المؤلف)

ولى فى مصر من أصبوا إليه
ومن فى قربه أبداً حياى
فقلك وقد ذكرت زمان وصل
تمادى بعده روح الحياة
أرى ما أشتهيه يضر منى
وما لا أشتهيه إلى يأتى !

* * *

هذه أمثلة قليلة من حب السلاطين والملوك والأمراء للأدب
والآداب . وعلى نهجها سار الكثيرون من القادة والوزراء والعظماء
فى الدولتين الأيوبية والمملوكية . حتى لكان الأدب أصبح سمة من
سمات العظمى فى تلك العصور ، أو كأنه المتعة الفنية الوحيدة التى كان
الناس يستروحون بها من عناء الحياة فى عصور لم تعرف من الحياة
إلا معانى الحرب والقتال ، وفكرة الجهاد فى سبيل الله بطريقة
أو بأخرى .

أما التعامق أو المجون فكان قليل الظهور فى تلك العصور التى خيم
عليها كابوس الحرب الصليبية ، فضلا عن شرور أشد منها كالأوبئة
والجاعات وغيرها من المحن الأخرى .

الفصل الثاني

الشعر السياسي

أخذت الدولة الفاطمية في الضعف في الوقت الذي كانت فيه دولة ناشئة بالشام — هي دولة الأتابكة الذين منهم نور الدين محمود — تزداد قوتها شيئاً فشيئاً . وكانت الإمارات اللاتينية التي أقامها الصليبيون في الشرق تحيط بدولة نور الدين ، وتهدد سلامة هذه الدولة الفتية التي ملأت الغيرة الدينية قلوب حكامها ، وأشعلت الحماسة نفوسهم ، فباتوا ولا أمل لهم في حياتهم إلا التخلص من الصليبيين ، وطردهم نهائياً من ساحل البحر الأبيض المتوسط .

كل ذلك والوزراء المصريون في الدولة الفاطمية يخاضون بعضهم بعضاً في سبيل النفوذ والسلطان ، ويستعين بعضهم على بعض بنور الدين محمود تارة وبالصليبيين المجاورين له مرة أخرى . وكان أولئك الوزراء المصريين لم يجدوا من العار لهم ولشرفهم ولدينهم أن يستعينوا في سبيل أغراضهم الشخصية بالفرنج الذين عبروا إليهم البحر وأخذوا منهم القدس !

ذلك كله ما يظهر بجلاء من سيرة رجل من أولئك الوزراء لا يذكر إلا ويذكر معه سقوط الدولة الفاطمية . وهذا الوزير المصري هو

(شاور) . وقد لعب هذا الرجل على مسرح السياسة المصرية دوراً في منتهى الخطورة . وكان في هذا كالألعاب بالنار أو الرجل الذي يمسك بيده سيفاً ذا حدين ولا بد أن يصيب أحد هذين الحدين منه مقتلاً في يوم ما .

وذلك ما قد حدث بالفعل . فقد دعا هذا الوزير كلا من الفرنج ونور الدين محمود للتدخل العاجل في شئون مصر . وكان كل منهما على أحر من الجمر في انتظار هذا الأمر حتى يسرع بالهجوم على مصر — في الظاهر — بحجة الدفاع عن شاور . وفي الحقيقة والباطن بحجة امتلاك هذه البلاد الغنية ذات الموقع الممتاز من الناحية الحربية .

وقد شاءت الأقدار المواتية لنور الدين محمود أن تكتب له التوفيق في هذا التدخل المنشود . وانهى الأمر بالقائد الذي أرسله إلى مصر وهو أسد الدين شيركوه أن ظفر هذا القائد لمصر بالوزارة المصرية من يد الخليفة العاضد . وكان نور الدين محمود قد بعث بهذا القائد الجريء في حملات حربية متعاقبة على مصر . وكان بصحبته ابن أخيه يوسف صلاح الدين في كل مرة .

وشاع نبأ الوزارة الأسدية ، وكان له صدى كبير في دمشق وغيرها من المراكز الإسلامية ، فقد طرب الناس لهذه الأنباء طرباً يفرق الوصف . وابتسم الدهر يومئذ لنور الدين محمود عن هذين الأملين الكبيرين وهما :

زوال الدولة الفاطمية ، وطرد الصليبيين جملة من الأراضي الإسلامية .

وتأثر الشعر تأثراً بعيد المدى بهذه الحادثة . ومن ذلك ما بعث به الشاعر الكاتب عماد الدين الأصفهاني — كاتب نور الدين محمود إلى أمد الدين شيركوه بمصر يهنئه بالوزارة وهو قوله :

بالجد أدركت ما أدركت لا اللب
كم راحة جنيت من دوحة التعب
فتحت مصر وأرجو أن تصير بها
ميراً فتح بيت القدس عن كشب
أنت الذي هو فرد في بسالة
والدين من عزمه في جحفل لجب
من شر شاور أقتنت البلاد فكم
وكم قضيت لحزب الله من أرب
هو الذي أطمع الإفرنج في بلد
الإسلام حتى سعوا للقصد والطلب
وإن ذلك عند الله محتسب
في الحشر من أفضل الطاعات والقرب
وما غضبت لدين الله متقياً ،
إلا لنيسل رضى الرحمن بالغضب

وفي نهاية هذه القصيدة يتعجل العباد الأصفهاني الحوادث ، ويحرض
أسد الدين شيركوه على الوثوب على الخلافة الفاطمية ، وأماها
في أسرع وقت ممكن . وذلك حيث يقول :

رد الخلافة عباسية ودع الد
عني فيها يصادف شر منقلب
لا تقطعن ذنب الأفعى وترسلها
فالحزم عندي قطع الرأس والذنب

والحق لقد كان في نية أسد الدين شيركوه أن يفعل ذلك لولا
أن عاجله القدر المحتوم ، فلم تدم وزارته أكثر من شهرين ، حتى مات
وخلفه في الوزارة المصرية ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي . ومنذ وزر
صلاح الدين للخليفة العاضد اتخذ لنفسه كاتباً واسع العلم ذكي الفؤاد هو
عبد الرحيم بن علي البيساني المعروف في التاريخ باسم (القاضي الفاضل).
ففكر الرجلان معاً في إبطال الخطبة الفاطمية لتحل محلها الخطبة
لبنى العباس . وكتب لها النجاح في ذلك . ثم سرعان ما كتب القاضي
الفاضل (بشارة) إلى نور الدين محمود . ونظم العباد الأصفهاني شعراً
في ذلك له منه قوله :

قد خطبنا للمستضيء بمصر
نائب المصطفى إمام العصر
وأشعنا بها شعار بني العباس
اس فاستبشرت وجوه النصر

وتركنا الدعى يدعو ثبورا
وهو بالذل تحت حجر وحصر
وتباهت منابر الدين بالخط
جبة الهاشمي في أرض مصر
واغتدى الدين ثابت الركن في مص
ر محوط الحى مصون الثغر
عرف الحق أهل مصر وكانوا
قبله بين منكر ومقر
ما يقام الإمام إلا بحسب
مأ تحاز الحناء إلا بمهر
خلفاء الهدى سرابة بنى العبد
سأس والطيبون أهل الظاهر
بهم الدين ظاهر مستقيم
ظاهر قوة قوى الظاهر
دام نصر الهدى بملك بنى العبد
سأس حتى يقوم يوم الحشر

وهكذا انتهت أيام الدولة الفاطمية . غير أن زوالها ترك في نفوس
المصريين والمتنفعين بها أسفاً وحسرة . (ولعمارة البنى) لامية في رثاء
الدولة الفاطمية لانكاد نعرف في رثاء الدول أشد منها وقعاً ، ولا أبلغ
لفظاً ومعنى . ومنها :

رमित يا دهر كف المجد بالشلل
 وجيده بعد حسن الحلى بالعطل
 جدعت ماركك الأتقى فأنفك لا
 ينفك ما بين قرع السن والنجمل
 لطفي وطف بنى الآمال قاطبة
 على لحيعتها في أكرم الدول
 يا عاذلى فى هوى أبناء فاطمة
 لك الملامة إن قصرت فى عذلى
 بالله زر ساحة القصرين وإياك معى
 عليهما لا على صفين والجل
 وقل لأهليهما والله ما التحمت
 فيكم قروحي ولا جرحى بمنديل

مررت بالقصر والأركان خالية
 من الوفود وكانت قبلة القبل
 فلت عنها بوجهى خوف متقد
 من الأعادى ووجه الود لم يمل
 والله ما فاز يوم الحشر مبغضكم
 ولا نجا من عذاب الله غيرى ولى
 ولا رأى جنة الله التى خلقت
 من خان عهد الإمام العاضد بن على

أتمنى وهدأتى والذخيرة لى
 إذا ارتهنت بما قدمت من عملى
 والله ما زلتُ عن حبي أبداً
 ما أخر الله لى من مدة الأجل

ولم يكد الأمر يتم لصالح الدين فى مصر حتى فكر جدياً فى الطريقة
 التى يتغلب بها على الفرنج المنبئين فى الشرق . ولكن يظهر أن الوقت لم
 يكن قد حان بعد للقيام بهذا العمل . فقد كان على صلاح الدين أن يبدأ
 بتوحيد البلاد الإسلامية المحيطة بالصليبيين ، ومنها بلاد الشام التى مات
 عنها نور الدين محمود ، وتركها لغلام صغير التف حول طائفة من الأمراء
 الطامعين كانوا قد أوقعوا بينه وبين صلاح الدين . ولكن السلطان
 صلاح الدين ما زال بهؤلاء الأمراء الطامعين حتى عزم على قصدهم
 والتخلص منهم فى نهاية الأمر . فلما علموا بذلك فروا من وجهه ،
 وتركوا له دمشق فدخلها بغير عناء ، ثم عاد إلى مصر ، فاستقبله الشعراء
 ومنهم شاعر أتى من الموصل لهذه الغاية . وهذا الشاعر هو (الحسن
 بن سعيد الشاتانى) . أنشد السلطان أبياتاً منها :

غدا النصر معقودا برايتك الصفرا
 فقم واملك الدنيا فأنت بها أحرى
 يمينك فيها اليمن واليسر فى اليسرى
 فبشرى لمن يرجو الندى منهما بشرى

ومن أولئك الشعراء العماد الأصفهاني . وكان قد انتقل من خدمة نور الدين إلى خدمة صلاح الدين . فكان لا يمضى عليه يوم إلا نظم فيه شعراً أو كتب نثراً . وما قاله يومئذ يمدح السلطان ، ويحثه على مواصلة الجهاد .

فديتك من ظالم منصف وناهيك من باخل مسرف
أُيْبِلُغْ دهرى قصدى وقد قصدت بمصر ذرى يوسف
ويوسف مصر بغير التقي وبذل الصنائع لم يوصف
فسرّ وافتح القدس واسفك به دماء متى تجرها ينظف
وأهد إلى (الاستبّار) ^(١) البتار وهد السقوف على الأسقف
وخلص من الكفر تلك البلا د يخلصك الله في الموقف !!

وفي أثناء ذلك كان على صلاح الدين أن يصطدم بالصليبيين من حين إلى حين . والتقى بهم مرة على غير استعداد للقتال . فهزموه في جهة (الرملة) واعتذر عنه الشعر عن هزيمته ومن ذلك .

قل للفرنجة الحذلى رويدكو
بالتأر أو تخرج الشعرى من الحل
ترقبوها من (الفسّوار) طالعة
خوارق الأرض تمحورونق الأصل

(١) يريد فرقة من أقوى فرق القداميين الصليبيين يقال لها (الاستبّارية) معروفة لنا في تاريخ الحروب الصليبية كعرفتنا بفرقة أخرى إسمها (الداوية) . والبتار السيوف الفاطمة . والجناش واضح في هذا البيت

حسب العدا يا صلاح الدين حسبهم
أن يقرفوك بمرح غير مندمل
وهل يخاف لسان النحل ملتصق

مرت على إصبعيه لذة العسل ؟
والمعنى في هذه الآيات أن الشاعر يقول للفرنج — خذلم الله —
رويدكم أيها الفرنج فإن صلاح الدين سيثأر منكم عما قريب ولكم أن
تترقبوا جيوشه في جهة الفوار وهي تخرق الأرض وتملأ الجوب بالغبار .
ثم يتجه الشاعر إلى صلاح الدين ويقول له ما أهون الجرح الذي أصبت به
من الفرنج إنه أشبه بلسعة النحل لا بد منها للحصول على الشهد . وهو هنا
النصر على الفرنج .

غير أن صلاح الدين هزم الفرنج بعد ذلك في موقعة أخرى كانت
أهم من الأولى شأنها وهي موقعة (مرج عيون) فوفد عليه الشعراء من
كل مكان يهنئونه بهذا النصر المبين . ومنهم الشاعر العراقي المشهور باسم
(التماويذى) . وقد أنشده قوله :

لأن كان دينك في الصباية ديني	فقف المطي برملي يبرين
ليت الضنين على المحب بوصله	لتي الساحة من صلاح الدين
ملك إذا علق يد بزمامه	علقت بحبل في الحفاظ متين
كاد الأعادي أن يصيبك كيدها	لوم تكذك برأيها المأفون
فموت نجوم سعودهم وقضى لهم	بالنص طائرهم بمرج عيون
وغادر السلطان مرج عيون . واتجه بجيشه نحو حصن من أقوى حصون	
الفرقة الصليبية المعروفة بالداوية . وهذا الحصن هو (بيت الأحزان)	

ومن أسبانه كذلك (حصن المخاض) . وكان هذا الحصن من أشد مامنى
به المسلمون فى ذلك الحين . ولكن صلاح الدين تمكن منه واتصر
عليه وعاد إلى دمشق . وكان الشعراء فى انتظاره كalletاد . ومنهم الشاعر :
(أبو الحسن بن محمد المعروف بابن الساعاتى) وقد أنشد السلطان قوله :
وقفت على حصن المخاض وإنه

لموقف حق لا يوازيه موقف
وما رجعت أعلامك الصفر ساعة

إلى أن غدت أكبادها السود ترجف^(١)
كبا من أعاليه صليب وبيعة

وشاد به دين خيف ومصحف
أيسكن أوطان النيين عصة

تمين لدى أيمانها وهى تحلف^(٢)
نصحتكم والنصح فى الدين واجب

ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف
وبيت يعقوب فى هذه المقطوعة هو (بيت الأحزان) أو (حصن
المخاض) . والتورية واضحة فى هذه الأبيات وفيها يقول الشاعر الفرنج
من أحجاب هذا الحصن: أتركوا بيت يعقوب لابنه يوسف صلاح الدين
وعودوا من حيث أتيتم .

وتيسر للسلطان بعد ذلك فتح مدينة منبجة من مدن الشام هى (حلب)
وفرح المسلمون كثيرا بهذا الفتح . وخف من أجله الشاعر المصرى

(١) كانت راية الأيوبيين صفراء اللون .

(٢) تمين أى تكذب - والشاعر يشير هنا إلى اليهود الكثيرة التى خانها الفرنج

المعروف (ابن سناء الملك) وأنشد بين يدي السلطان قصيدة طويلة منها :
 بدولة الترك عزت دولة العرب وباين أيوب ذلت بيعة الصلب
 وفي زمان ابن أيوب غدت حلب
 من أرض مصر وصارت مصر من حلب

ومنها في وصف حلب ذاتها :

جليسة النجم في أعلى مراتبه
 وطالما غاب عنها وهي لم تغب
 وما نعتسه كعشوق تمنعسه
 أحلى من الشهد أو أشهى من الضرب (١)

ومنها كذلك :

ومذ رأيت صده عن ربعها حلب
 ووصلته لبلاد الغير بالحلب
 غارت عليه ومدت كف معتقر
 منها إليه وأبدت وجه مكثب
 واستعطفته فأولاهسا عواطفه
 وأكثب الصلح إذ نادته عن كثب
 فتح الفتوح بلامسين وصاحبه
 ملك الملوك ومولاها بلا كذب

(١) الضرب بفتح الراء هو الصهد

ثم تيسر للسلطان كذلك فتح مدينة (الموصل) وغيرها من المدن والأقطار الإسلامية التي تألفت منها ومن الديار المصرية والشامية تلك الجبهة الحربية التي لا بد من تأليفها قبل الالتقاء بالصليبيين في موقعة فاصلة بينهم وبين المسلمين .

وتأهب السلطان بعد ذلك تأهباً كاملاً للملاقاة الفرنج . وذهب بجيشه أولاً إلى جهة (طبرية) فأخذها عنوة من يد الفرنج . ولم يكذب المسلمون يسمعون أنه في طريقه إلى (القدس) حتى قصده العلماء والأدباء والفضلاء والصوفية من مصر وغير مصر ؛ بحيث لم يتخلف أحد من المعروفين عن الحضور ليشهد بعينه موقفاً من مواقف هذا البطل الكبير قيل فيه « إن الإيمان كله قد برز للشرك كله » ١

ثم ما كاد الظفر يتم لصالح الدين في موقعة حطين — وكان ذلك ليلة القدر من سنة ثلاث وثمانين وخمسة للهجرة — حتى تصاح المسلمون الله أكبر الله أكبر .

وجلس السلطان في خيمته . فراحم عليه الشعراء كل يريد أن يسبق صاحبه في تقديم تهنئته . فكان أولهم في الترتيب نقيب الأشراف بالديار المصرية وهو (الجوائى) وقد أشد بين يدي السلطان قصيدة منها :

أترى مناما ما يعينى أنظر ؟

القدس يفتح والفرنجية تكسر ١١

(وقامة ^(١)) قت من الرجم الذى

بزواله وزوالها تنظهر

(١) اسم أطلقه المسلمون في تلك العصور على كنيسة القيامة تحملاً لها مدفوعين في ذلك بالحماسة الدينية التي كان لا بد من وجودها عند الفريقين في أثناء الحروب الصليبية .

ومليكمهم في القيد مصفود زلوم
يُرَقِّبُ قَبْلَ ذَاكَ لِمَ مَلِكُ يَوْسَرَ

قَدْ جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ الَّذِي
وَعَدَ الرَّسُولُ فَسَبِّحُوا وَاسْتَغْفِرُوا
فُتِّحَ الشَّامُ وَطُهِرَ الْقُدْسُ الَّذِي

هُوَ فِي الْقِيَامَةِ لِلْأَنَامِ الْمُحْشَرِ
مَنْ كَانَ هَذَا فَتَحَهُ مُحَمَّدٌ

مَاذَا يُقَالُ لَهُ وَمَاذَا يَذْخَرُ ؟
يَا يَوْسَفُ الصَّدِيقُ أَنْتَ بَفَتْحِهَا

فَارَوْقَهَا عَمْرُ الْإِمَامِ الْأَطْهَرِ
ثُمَّ تَقْدِمُ ابْنَ سِنَاءِ الْمَلِكِ فَالْتَقِ قَصِيدَتَهُ الَّتِي مِنْهَا :

لَسْتُ أَدْرِي بِأَيِّ فَتْحٍ تَهْنَأُ
يَا مُنِيلَ الْإِسْلَامِ مَا قَدْ تَمَنَّى

أَنْهَنِيكَ إِذْ تَمْلِكُ شَاماً
أَمْ نَهَنِيكَ إِذْ تَمْلِكُ عَدَناً ؟

قَدْ مَلَكَتِ الْجَنَانُ قَصْراً فَقَصْراً
إِذْ فَتَحَتْ الشَّامَ حَصْناً لِحَصْنِهَا

وَمِنْهَا فِي وَصْفِ مَلُوكِ الْفَرَنْجِ وَهُمْ وَقُوفٌ بَيْنَ يَدَيْ صَلَاحِ الدِّينِ
وَفِي أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمُ الْقَيْدُ :

وتصيدتهم بحلقة صيد
تجمع الليث والغزال الأغنا
وجرت منهم الدماء بجارا
فجرت فوقها الجزائر سفنا
صنعت منهم وليمة عرس
رقص المشرق فيها وغنى
وحوى الأسر كل ملك يظن الد
هرَ يفنى وملكة ليس يفنى
كم تمنى اللقاء حتى رآه
فتمنى لو أنه ما تمنى
ومنها :

لا يخص الشام منك التهانى
كل قطر وكل صقع يهنا
قد ملكت البلاد شرقاً وغرباً
وحويت الآفاق سهلاً وحزناً
واغتدى الوصف فى علاك حيراً
أى لفظ يُقال أو أى معنى ؟

وهكذا تنافس الشعراء فى وصف هذا اليوم العظيم الذى هو يوم
حطين . وتكاثرت القصائد على صلاح الدين وهى تفد عليه من جميع
البلاد الإسلامية . وأصبحت هذه القصائد البليغة التى قبلت فى ذلك اليوم

تعرف في تاريخ الأدب العربي باسم (القدسيات) . والقصائد المتقدمة
تعتبر نموذجاً منها ،

الشعر السياسي وخلفاء صلاح الدين

توفي صلاح الدين وترك ملكاً عريضاً لأولاده من بعده . وكانت
مصر من نصيب ابنه (العزيز) . والشام من نصيب ابنه (الأفضل) .
غير أنه كان لصلاح الدين أخ داهية هو (الملك العادل) لم يزل يعلو
نجمه ويعظم أمره حتى أصبح في حقيقة الأمر الوارث الحقيقي لهذا الملك
العظيم . وخلفه أولاده من بعده في هذه التركة . فكانت مصر من نصيب
ولده (الكامل محمد) الذي ملك البلاد نحواً من أربعين سنة . عشرين
منها وهو نائب عن أبيه . وعشرين أخرى كان فيها مستقلاً بمصر .
وكان الفرنج في حكم الملك العادل قد استولوا على برج السلسلة الذي
يعتبر مفتاح الثغر الذي هو أعظم ثغور الإسلام إذ ذاك ، وهو ثغر
دمياط ، فلما علم العادل بذلك مرض لساعته ومات . وتولى مكانه ابنه
(الكامل محمد) . فاستنجد الكامل هذا بإخوته من ملوك الأيوبيين
لاستنقاذ دمياط . وكان مما كتبه إلى أخيه (الملك الأشرف) صاحب
ملكه (خلاط) يستحثه على سرعة المجيء إليه :

يا مسعدي إن كنت حقاً مسعدي

فانهض بغير تلبث وتوقف

واطو المنازل ما استطعت ولا تنخ

إلا على باب الملك الأشرف

وأقرا السلام عليه من عبد له
 متوقع لقدومه متشوف
 وإذا وصلت إلى حماه فقل له
 عني بحسن توسل وتلطف
 إن تأت عبدك عن قليل تلقه
 ما بين كل مهند ومثقف
 أو تبط عن إنجاده فلقاؤه
 يوم القيامة في عراض الموقف !

وجلس الملك الكامل ينتظر الرد من إخوته وإذا الفرنج يفلحون
 في حصار دمياط ويضيقون الخناق على أهلها وجنودها ، وإذا بسهم
 نشاب يلتقي بين يدي الكامل ، وفيه رسالة من الأمير جمال الدين الكسنانى
 من أهل دمياط وفيها يقول :

يا مالكي : دمياط نغر هدمت
 شرفاته ، كادت تبحث أصوله
 يقريك من أركى السلام تحية
 كلمسك طاب دقيقتُه وجليله
 ويقول عن بعد وإنك سامع
 حتى كأنك جاره وزيله
 يا أيها الملك الذى ما إن يرى
 بين الملوك شبيهه وعديله

هذا كتاب موضح من حالي
 ما ليس يمكنكى لديك أقوله
 أشكو إليك عدو سوء أحدثت
 بجميعه فرسانه وخيوله
 فالبر قد منعت إليه طريقه
 والبحر عز لنصره أسطوله
 تخضوعه ياد على أبراجه
 وحينه وبكاؤه وعويله
 ولو استطاع لأمَّ بابك لائذا
 لكنه سُدَّت عليه سبيله
 والله أعطاك الكثير بفضله
 ورضاه عن هذا الكثير قليله
 والنظر ناظره إليك محقق
 ما أن يعمل من الدموع هطوله
 ولئن قعدت عن القيام بنصره
 جففت نضارته وبان ذبوله
 ووهت قوى القرآن فيه وعلقت
 صلبانه وتُلي به إنجيله
 وعلا صدى الناقوس في أرجائه
 وخفي على سمع الورى تهليله

هذا وحقق وصف صورة حاله
حقاً وجملةً وذا تفصيله
وكفاك يا ابن الأكرمين بأنه
أضحى عليك من الورى تعويله
فاذخر ليوم البعث فعلا صالحا
الله ضامن أجره وكفيله

ولم يكذ الملك الكامل ينتهى من قراءة هذه الرسالة حتى نادى
فى القاهرة بالنفير العام (أى الجهاد) . ثم لجأ الملك الكامل إلى حيلة
أخرى تفوت على الفرنج قصدهم . وهى أنه فتح جميع السدود التى على
النيل، وترك الماء يحيط بالفرنج من كل جانب ، حتى أيقنوا أنهم معزولون
ومتمتولون بأيدي المسلمين . ففت ذلك فى عضدهم ، وبادروا إلى طلب
الصلح من الملك الكامل . فأجابهم إليه وعادوا إلى بلادهم سراعا يحمدون
الله على السلامة والعافية .

فانظر إلى صنع الله بالمسلمين فى مصر ، وكيف وقف النيل نفسه
إلى جانب المصريين يصد عنهم هجوم المعتدين ، ويطلق كيد الكائدين ؟
وجلس الملك الكامل محمد وإخوته بعد رحيل الفرنج عن دمياط
مجلس أنس . وكان ذلك بمدينة المنصورة فأمر الملك الأشرف موسى
من إخوة الملك الكامل محمد جارية له يتال لها (ست الفخر) فغنت على
عودها هذه الآيات : -

ولما طغا فرعون عكا بيغيه وجاء إلى مصر ليفسد فى الأرض
أتى نحوهم موسى وفى يده العصا فأغرقهم فى اليم بعضا على بعض

فطرب الأشرف طربا عظيما وقال لها « كرى ، فشق ذلك على
الملك الكامل ، وأمرها فسكتت وقال لجاريته هو « غنيه أنت ، .
فغنت على العود :

أيا أهل دين الكفر قوموا لتظنوا
لما قد جرى فى وقتنا وتجدا
أعباد عيسى ، إن عيسى وقومه
وموسى جميعا ينصرون محمدا
فطرب الملك الكامل وأمر لها بخمسة دینار ولجاريه أخيه
الأشرف بخمسة مثله . والآيات الأخيرة من قصيدة لقاضى غرة
— هبة الله بن محاسن — وكان حاضرا المجلس . وقد أشد يومئذ بين
يدى الملك الكامل محمد :

هنيئا فإن السعد راح مخلدا
وقد أنجز الرحمن بالنصر موعدا
حيانا . إله الخلق فتحا لنا بدا
مينا وإنعاما وعزا مخلدا
تهلل وجه الدهر بعد قطوبه
وأصبح وجه الثرك بالظلم مسودا
ولما طفا البحر الخضم بأهله الط
خاة وأضحى بالمراكب مزيدا
أقام لهذا الدين من سلّ عزمه
صقيلا كما سل الحسام مجردا

ونادى لسان الكون فى الأرض رافعا
عقيرته فى الخافقين ومنشدا
أعباد عيسى إن عيسى وقومه

وموسى جميعا ينصرون محمدا ١

ولا شك أن التورية فى هذا البيت واضحة متى عرفنا أن اسم الملك
الكامل (محمّد) واسم أخيه الملك الأشرف (موسى) واسم أخيه
الآخر الملك المعظم (عيسى) .

وكان من الشعراء الذين بعثوا بقصائدهم إلى ملوك الأيوبية فى
مجتمعهم بالمنصورة (شرف الدين بن عنين) وقصيدته هذه تعتبر من
عيون الأدب العربى فى باب الحماسة ومنها قوله :

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنا
إذا جلت آباءنا والقنا اللدنا
غداة التقينا دون دمياط جحفلا

من الروم لا يحصى يقينا ولا ظنا

قد اجتمعوا رأيا وديننا وهمة
وعزما وإن كانوا قد اختلفوا سنا
تداعوا بأنصار الصليب وأقبلت

جوع كأن الموج كان لهم سفنا

وأطمعهم فينا غرور فأرقلوا
إلينا سراعا للجهاد وأرقلنا

فما برحت سمر الرماح تنوشهم
 بأطرافها حتى استجاروا بنسنا منا
 سفينا همو كأسا نفت عنهم الكرى
 وكيف ينال الليل من عدم الأمننا
 لقد صبروا صبرا جميلا ودافعوا
 طويلا فما أجدى دفاع ولا أغنى
 بدا الموت من زرق الأسته أحرا
 فألقوا بأيديهم إلينا فأحسننا
 وما برج الإحسان منا سجية
 نورثنا من صيد آباتنا الابنا
 وقد جربونا قبلها في وقائع
 تعلم غمر القوم منا بها الطعنا
 أسود وغى لولا وقائع سمرنا
 لما لبسوا قيدا ولا سكنوا سجننا
 مآثر مجيد سودتها سيوفنا
 طوال المدى يفنى الزمان ولا تفنى
 وقد عرفت أسياقنا ورقابهم
 مواقعها منا فإن عاودوا عدنا
 منخاهمو منا حياة جديدة
 فعاشوا بأعناق مقلدة منا

ولو ملكونا لاستباحوا دماءنا
ولوفا . ولكننا ملكنا فأسجنا
وكان للملك الأشرف موسى شاعر مصرى يختص به ، هو كمال
الدين بن النديه بعث إليه في مخيم المنصورة قصيدة طويلة منها :
للنزة العيش والأفراح أوقات
فأنشر لواء له بالنصر عادات
أمام جيشك أنى سار أربعة
نصل ونصر وأراء ورايات
وتحت غيل القنا آساد معركة
لها ثبات وفى الهيجاء وثبات
أهله فى سماء من مفارها
لها الكتائب والأفلاك هالات
تهتز أعطافهم يوم الجلال إذا
غنّت لهم من بنات القين^(١) قيثان
صفائح هى إن دب المتون بها
صحائف كتبت فيها المنيات
إن مسَّ شمس الضحى من لمعها رمد
كحلها بالعجاج الأعوجيات^(٢)

(١) بنات القين : السيوف

(٢) الأعوجيات : الرماح

ومنها :

الويل للروم والإفرنج من ملك
له من النصر والتأييد عادات
أين النجاة لرب الروم من ملك
ضار له من رماح الخط رايات
دمياط ثغر ونار الحرب موقدة
وأنت موسى وهذا اليوم ميعقات
ألق العصا تتلقف كل ما صنعوا
ولا تخف ما جبال القوم حيات
طأهم بجيشك لا تحفل بكثرتهم
فإنهم لبغاث الطير أقوات (١)
أصبتهم بسهام الرأي من حلب
وللمكايد من بعد إصابات
فطهر الله ذاك الثغر من قلع (٢)
أصابه وانجلك تلك الثنيات
قتلا وسلبا وأسرا واتهاب ثرى
له كم حسنت تلك الإساءات
شنتها غارة كالنار محرقة
للكفر وهى على الإسلام جنات

(١) بغاث الطير صفارها

(٢) القلع صخرة فى الأسنان استعيرت هنا لما أصاب الثغر من أذى العدو

لله من ثغر دميّاط وبرزخها
فتح له تفتح السبع السموات
شرحت صدر رسول الله وانحسرت
بنصره الدين والدنيا غمامات
يوم على الروم ينشئ ريحه سحبا
أمطارهن مصيبات مصيبات
وأوا جيوش بنى أيوب يقدمها
ليث له فى جيوش الشرك هجمات
فللرماح كلام أو صدورهمو
وللصوارم أعناق وهامات
تخلق البحر ذاك اليوم من دمهم
والموج ترقصه تلك المرات
الله أكبر أن تسمى مزامرهم
تلى وتنسى من القرآن آيات
ما كل من طلب العليا أدركها
ووافقت سعيه فيها سعادات

وإن تنس لا تنس شاعرنا المصرى المعروف بالهاء زهير . وكان
لا بد له من أن يسمع صوته فى ذلك اليوم من أيام النصر . من أجل
ذلك بعث إلى الملوك الأيوبية وهم بالمنصورة بقصيدة رائعة منها :

بك اهتز عطف الدين في حلل النصر
وردت على أعقابها ملة الكفر
فقد أصبحت والحمد لله نعمة
تقصر عنها قدره الحمد والشكر
يقول لها بذل النفوس بشارة
ويصغر فيها كل شيء من النثر^(١)
ألا فليقل ما شاء من هو قائل
ودونك هذا موضع النظم والنثر
ومنها في مدح الكامل ملك مصر :

أياديه يبيض في الورى موسوية
ولكنها تسعى على قدم الخضر
ومن أجله أضحي المقطم شاعراً
بنافس حتى طور سيناء في القدر
فيا ملكاً رام الملائك رفعة
من الملائك الأعلى له أطيب الذكر
وما فرحت مصر بهذا الفتح وحدها
لقد فرحت بغداد أكثر من مصر
فلو لم يقيم بالله حق جهاده
لما سلمت دار السلام من الذعر

(١) النثر هنا هو النثر وهو ما ينثر على العروس من الذهب والفضة

وأقم لولا همة كاملية
 لحافت رجال بالمقام وبالخير
 فن مبلغ هذا الخفاء بمكة
 ويثرب ينبيه إلى صاحب القبر
 فقل لرسول الله إن سميهِ (١)
 حتى بيضة الإسلام من نوبة الدهر
 هو الكامل المولى الذى إن ذكرته
 فيا طرب الدنيا ويا فرحة الدهر
 به ارتجعت دميّاط قسراً من العدا
 وطهرها بالسيف والملة الطهر
 ومنها :

سدّدت سبيل البر والبحر عنهمو
 بسابجة دهم وسابقة غمر
 أساطيل ليست في أساطير من مضى
 بكل غراب راح أفتك من صقر
 وجيش كمثل الليل هولا وهيبة
 وإن زانه ما فيه من أنجم زهر
 ورويت منهم ظامى البيض والقنا
 وأشبع منهم طاوى الذئب والنسر

(١) يقول (سميه) لأنه من أسماء الملك الكامل محمد

وجاء ملوك الأرض نحوك خُضْعاً
تجور أذبال المهانة والصغر
كفى الله دمياط المكاره إنها
لمن قبله الإسلام في موضع النحر
وما طاب ماء النيل إلا لأنه
يحل عل الریق من ذلك الثغر (١)
فله يوم الفتح يوم دخولها
وقد طارت الأعلام منها على وكر
وقد فاق أيام الزمان بأسرها
وأنى حديثاً عن حنين وعن بدر

حملة صليبية كبرى من أوروبا تسترجع بيت المقدس

انزعجت أوروبا من هذه الأخبار أيما انزعاج . ولم تلبث جموعهم أن أتت إلى الشرق في حملة صليبية كبيرة بقيادة الإمبرطور فردريك لإمبرطور الدولة الرومانية . وفي خطوط كثيرة وقع الاتفاق بينهم وبين الملك الكامل على أن يأخذ الإمبرطور القدس بشرط أن يبقى هذا القدس خراباً لا تتجدد أسواره ولا تشيد حصونه ، وأن تكون قرى المسلمين حوله لهم لا يزعمهم أو يزاحمهم فيها الفرنج . وأما الحرم

(١) في هذا البيت صنعة شعرية فائقة — لا تخفى على القارئ.

والصخرة المقدسة والمسجد الأقصى فتظل في أيدي المسلمين لا يدخلها
الفرنج إلا للزيارة فقط .

وهكذا اضطر المسلمون إلى التسليم في القدس . فاشتد بكاؤهم عليه
منذ ذلك الوقت ، واتقلبوا على الملك الكامل يذمونهم ويشنعون عليه ،
وأذنوا عليه كذلك في غير أوقات الآذان إمعانا في إيذائه والنيل منه .
ولم يقف الأمر عند ذلك الحد بل عقد الكثيرون منهم اجتماعات حافلة
هنا وهناك ، وخطب فيهم الأئمة والوعاظ ، وذكروهم بفضائل القدس
وضاعفوا من حزنهم عليه . وأنشد الإمام الحافظ شمس الدين سبط بن
الجوزي في بعض هذه المحافل قصيدة مؤثرة منها قوله :

أعيني لا ترق من العبرات

صلى في البكا الآصال بالبكرات

لعل سيول الدمع يطفى فيضها

توقد ما في القلب من جمرات

ويافم نوح بالشجو منك لعله

يروِّح ما ألقى من الكربات

على المسجد الأقصى الذي جل قدره

على موطن الإخبات والصلوات

على منزل الأملاك والوحي والهدى

على مشهد الأبدال والبدلات^(١)

على سلم المعراج والصخرة التي

أنافت بما في الأرض من صخرات

(١) الأبدال والبدلات درجات عالية من درجات التصوف .

على القبلة الأولى التي اتجهت لها
صلاة البرايا في اختلاف جهات
على خير معصور وأكرم عامر
وأشرف مبني خير بناء
عفا المسجد الأقصى المبارك حوله
رفيع عماد عالي الشرفات
عفا بعد ما قد كان للخير موسما
ولابر والإحسان والقربات
خلا من صلاة لا يعمل مقيمها
يوشح بالآيات والسورات
لتبك على ما حل بالقدس (طيبة)^(١)
وتشرحه في أكرم الحجرات
لتبك عليها (مكة) فهي أختها
وتشكو الذي لاقت إلى عرفات

ومنها :

أما علت أبناء أيوب أنهم
بمسماته عدوا من السروات
وأن افتتاح القدس زهرة ملكهم
وهل ثمر إلا من الزهرات ؟
فن لي بنواح ينحن على الذي
شجاني بأصوات لمن شجاني

(١) طيبة اسم من أسماء المدينة .

يرددن بيتا للخزاعي قاله يؤمن فيه خيرة الخيرات
(مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحى مقفر العرصات^(١))
وقد كان على الفرنج المقيمين بالشرق أن يحترموا المعاهدة التي عقدها
الإمبراطور فردريك هذا مع الملك الكامل . وفيها تعهد الإمبراطور
بأن لا يتم أسوار بيت المقدس . ولكن الفرنج أقاموا هذه الأسوار .
فلما بلغ ذلك الملك الناصر داود صاحب دمشق - وذلك بعد وفاة الملك
السكامل بمدة من الزمن - ذهب بنفسه إلى القدس وهدم الأسوار التي
بناها الفرنج . واسترد بيت المقدس ، وفرح المسلمون باسترداده فرحا
عظيما . وفي ذلك يقول شاعرنا المصري جمال الدين بن مطروح :
المسجد الأقصى له عادة سارت فصارت مثلا سائرا
إذا غدا بالكفر مستوطنا أن يبعث الله له ناصرا
(فناصر) طهره أولا (وناصر) طهره آخرأ

وانزعج الأوروبيون مرة أخرى لهذه الأخبار ، وعزموا على الحثم
إلى الشرق في حملة صليبية كبرى كذلك . وكان على رأس هذه الحملة
الصليبية الأخيرة الملك لويس التاسع ملك فرنسا .

وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب إذ ذاك مريضا بدمشق ، فخرج
في محفة وجيء به إلى مصر ليشرّف بنفسه على إعداد الأسطول والجيش .
وبينما هو على هذه الحال إذا بالملك لويس التاسع يبعث إليه بكتاب
شديد اللهجة كان بمثابة إنذار ، قرأه السلطان فأغرورت عيناه بالدموع
وقال « إنا لله وإنا إليه راجعون » . ثم أمر بهاء الدين زهيراً فكتب

(١) هذا البيت من شعر دعلج الخزاعي . وهو شاعر شيعي معروف في العصر الباسي

جواباً له أشد منه طعنة . ثم مات الملك نجم الدين أيوب . فقوى ذلك من عزم الصليبيين . وشاءت الظروف أن يحاربهم المصريون وأن يقف (النيل) العظيم للمرة الثانية إلى جانبهم . فأحاط هذا النيل بالعدو من كل ناحية . وانهت الموقعة بهزيمة الفرنج ووقوع ملكهم لويس التاسع نفسه في الأسر . فقيده المسلمون بقيد من حديد واعتقلوه بدار ابن لقمان بالمنصورة ووكّلوا به أحد الطواشي واسمه « صبيح »

وبقي الملك لويس سجيناً ومعه قواده وأمرأؤه حتى عرض على المسلمين أن يطلقوه بقدية قدرها أربعمائة ألف دينار . وكان المسلمون في حاجة إذ ذاك للمال فأطلقوه وتركوه يفر إلى (عكا) . وسمع المصريون أنه جدد العزم على العودة إلى مصر ، فسخروا منه ، ونظم جمال الدين بن مطروح في هذا المعنى شعراً منه قوله :

قل للفرنسيس إذا جئته	مقال نصح من قتل نصيح
أتيت مصر تبتغي ملكها	تجسب أن الزمر ياطبل ربح
فسافك الحين إلى آدم	ضاق به عن ناظر يك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم	بحسن تدبيرك بطن الضريح
سبعون ألفاً لا يرى منهمو	إلا قتيل أو أسير أو جريح
ألمك الله إلى مثلها	لعل عيسى منكوي يستريح
إن يكن البابا بذا راضياً	فرب غش قد أتى من نصيح
فقل لهم إن أزمعوا عودة	لأخذ ثار أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان على حاضا	والقيد باق والطواشي صبيح !!

الفصل الثالث

الشعر الصوفي

قلنا إن الشعب المصرى منذ القديم يميل بطبعه إلى الدين ، ويستجيب لكل دعوة تقوم على أساسه أو تمت إليه بصله أو بأخرى . ولا موضع للشك فى أن الميول الدينية متأصلة فى هذا الشعب منذ وجد إلى اليوم .

ومن ثم كانت البيئة المصرية تربة صالحة لنمو التصوف ولذا كانت مصر مهداً للرهبانية المسيحية قبل الإسلام ، ثم مهداً للتصوف بعده . وقد ظهر التصوف الإسلامى فى مصر أول مظهر فى القرن الثانى للهجرة . وظهر من المتصوفة فى مصر فى القرن الثالث الهجرى شاعر يقال له (ذو النون المصرى) المتوفى سنة ٢٤٥ هـ . وفى العصر الفاطمى عرف من أهل مصر متصوف مشهور يقال له (ابن الكيزانى) . ثم فى العصر الأيوبي ظهر لإمام المتصوفة فى مصر (عمر بن الفارض) . وفى العصر المملوكى ظهر الشاعر الصوفى الذائع الصيت المعروف (بالبوصيرى) ، وفى العصر العثمانى اشتهر بالتصوف شيخ كبير هو (الشعرانى) .

وربما كان أول معنى من معانى التصوف فى مصر ؛ أعنى منذ ظهوره بها فى القرن الثانى للهجرة ، هو الزهد والانصراف عن الدنيا والوقوف ضد (٧) الأدب

السلطان ومعارضته في الأمور التي يرى الشعب أنه تجاوز فيها حد الشرع ، أو أهدر بها مصلحة من مصالح الرعية . وباختصار كان من معاني التصوف إذ ذاك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ثم أصبحت للتصوف بعد ذلك معان أخرى زيدت عليه شيئاً فشيئاً ، وتطورت هذه المعاني بتطور الظروف والأحوال . ومصر في كل حالة منها خاضعة خضوعاً تاماً لهذا التطور الذي حدث :

فهذا هو (ذو النون المصري) وقد طلع على الناس بمذهب جديد في التصوف ، أو نزعة جديدة من نزعاته اتجه فيها الى ما يسمى (بالحب الإلهي) . والظاهر أن هذه النزعة كانت غريبة أول الأمر على أذهان المصريين فتركوها ومضوا في نزعتهم الأولى — وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والحض على الزهد والانصراف عن الدنيا . وبقي الحال على ذلك حتى ظهر (ابن السكيتاني) في العصر الفاطمي ، فعاد إلى القول (بالحب الإلهي) ، وعبر عن نزعته هذه بأشعار رقيقة صريحة ، وايمت غامضة في الوقت نفسه كما سنجد ذلك عند رجل كابن الفارض . ومن أشعار ابن السكيتاني هذا على سبيل المثال :

أصرفوا غنى طبيبي	وَدَعُونِي وَجِيبِي
عَلَّسُوا قَلْبِي بِذِكْرَا	هَ قَتَمَد زَاد لَهِيْبِي
طَابَ هَتَكِي فِي هَوَا	بَسِينِ وَاشْ وَرْقِيبِ
لَيْسَ مِنْ لَامٍ وَإِنْ	أَطْنَبَ فِيْهِ بِمَصِيبِ

جسدى راض بسقى وجفونى بنحى
والحبيب فى هذه الأشعار وأمثالها هو الذات الإلهية . والشاعر
هنا يستعذب فى حب الله كل شىء حتى إنه لا يشعر بالمرض الذى
يصيب جسمه ، كما لا يحس بلوم اللاتمين وعذل العاذلين فى سبيل ذلك .
فهو إذن ليس بحاجة إلى طبيب يداويه ، ولا ناصح ينصحه بالعدول
عن هذا الحب .

بقى التصوف المصرى واضحاً على هذا النحو لا يحتاج الناس إلى عناء
كبير فى فهمه ، ولا عناء أكبر فى فهم الأشعار التى تعبر عنه إلى أن كان
عهدنا بالشاعر الكبير :

عمر بن الفارض :

وهو أبو حفص عمر بن أبى الحسن . ولد بمصر فى عام ٥٧٦
للهجرة . وتوفى بها عام ٦٣٢ هـ . وأدرك هذا الشاعر من ملوك بنى أيوب
أربعة ، وهم صلاح الدين ، وابنه العزيز ، ثم العادل وابنه الكامل .
ونشأ ابن الفارض فى كنف أبيه فى عفاف وصيانة وعبادة وديانة
وزهد وقناعة . واشتغل بفقهاء الشافعى . ودرس الحديث . ثم حجب
إليه الخلاه وسلك طريق التصوف . فتزهد وتجرد عن نعيم الدنيا .
وبدأ سلوكه بالطواف عند (وادى المستضعفين) بمجمل المقطم .
وأخذ يروض نفسه وروحه رياضة شاقة . وكان يترك الطعام والشراب
مدة تصل إلى عشرة أيام فى أكثر الأحيان . وبقي مكباً على هذه
الرياضة الروحية الشاقة مدة طويلة . ثم فكر الشاعر فى الرحيل إلى

الحجاز . وحول رحلته هذه قصص كثيرة يعرفها المعنيون بهذه السيرة ، وهناك بالحجاز بق الشاعر خمسة عشر عاما كاملة رجع بعدها إلى مصر ونفسه تسيل حشرات . على ما مضى من أيام (الفتح الإلهي) بتلك البقعة الطاهرة المقدسة . وفي الحنين إلى مكة المكرمة يقول شاعرنا الصوفي على طريقته المعروفة :

لعل أصيحاني بمكة يُبْرِدُوا
بذكر سُليْمى ما تُجِنُّ الأضالع
وعلى الليلات التي قد تصرمت
تعود لنا يوما فيظفر طامع
ويفرح محزون ويحيا مقيم
ويأنس مشتاق ويلتذ سامع^(١)

ولابن الفارض ديوان شعر شرح فيه مذهبه في التصوف ، وهو المذهب الذى يدور حول (الحب الإلهي) . وفي هذا الديوان قصيدة تسمى (الثانية الكبرى) عدد أبياتها يربو على سبعمائة بيت أودعها الشاعر كل أفكاره في التصوف ، وكشف فيها عن مذهبه فيه .

ويحدثنا التاريخ أن ابن الفارض تأثر في مذهبه هذا بالفيلسوف الصوفي المعروف (محي الدين بن عربي) الأندلسي المتوفى سنة ٦٣٨ هـ .

(١) ابن الفارض شديد الكلف في شعره بصيغ التصغير كما نرى في تصغير (صاحب) ، (وليه) الخ .

وخلاصة القول في مذهب ابن عربي أنه من المؤمنين بما سمي عند المتصوفة (بوحدة الوجود) . والقائلون بهذه الفكرة ينظرون إلى الخالق والمخلوق على أنهما أسمان لشيء واحد لا يتعدد . وتطبيق ذلك على ابن الفارض أنه في حالة (الوجد) كان يرى نفسه والذات الإلهية شيئاً واحداً لا شيتين متميزين ، وابن الفارض لا يصل إلى هذه الحالة من الاندماج والفناء في الذات الإلهية عن طريق عقله ، ولكن عن طريق قلبه ، ولا يتم له الشعور بهذه الحالة إلا في غيوبة عن نفسه وعقله ؛ بحيث إذا عاد إليه عقله ونفسه فهنا فقط يشعر بوجوده الذاتي الذي يستقل به عن وجود الذات الإلهية .

غير أن أشعار ابن الفارض المعبرة عن حالات وجدته التي شرحنا بعضها الآن أشعار تتصف بالغموض الشديد . فلا يكاد يسهل على القارئ العادي أن يفهم شيئاً منها إلا بكمد ذهن ، وإعمال فكر .

ومن الأفكار التي قال بها ابن الفارض وكان لها كذلك أثر واضح في شعره الفكرة القائلة (بالنور المحمدي) وانتقال هذا النور منذ بدء الخليقة عبر الأجيال المتعاقبة ، وعبر الأنبياء والرسل الذين تبع بعضهم بعضاً من لدن آدم عليه السلام إلى عهد محمد صلى الله عليه وسلم . ولهذا الفكرة أثر كبير في أشعار المصريين من المتصوفة الذين استمسكوا بحقيقة النور المحمدي ؛ وذلك من عهد عمر بن الفارض إلى أواخر العصر العثماني وربما إلى اليوم .

ومن شعر ابن الفارض في معنى (النور المحمدي) قوله :

أتم قروضى ونفلى أتم حديثى وشغلى
ياقباتى فى صلاتى إذا وقفت أصلى
جمالكم نصب عيني إليه وجهت كلى
آنست فى الحى نارا ليلا فبشرت أهلى
قلت امكشوا فلعللى أرى هداى لعللى
دنوت منها فكانت نور المكلم قبلى
وصرت موسى زمانى مذ صار بعضى كللى

بهذه الطريقة الشعرية الجميلة أخذ ابن الفارض يصور لنا انتقال
النور المحمدى بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلى أن ظهر منهم
موسى وعيسى ومحمد .

ومن صوفية مصر فى ذلك النصر :

ابراهيم الرسوقى :

نذكره هنا لاشئ إلا أنه يتفق مع ابن الفارض فى كثير من آرائه
وأفكاره ونزعاته ومذاهبه . فهو مثله فى القول (بوحدة الوجود) .
وهو مثله كذلك فى القول (بالحب الإلهى) ولكن شعر الرسوقى فى
التعبير عن هذه المعانى أسهل من شعر ابن الفارض فى ذلك . وهذا
نموذج من هذا الشعر فى الحب الإلهى . قال الرسوقى :

سقانى محبوبى بكأس المحبة قهت عن العشاق سكرًا بخلوقى
ولاح لنا نور الجلالة لو أضأ لَصُمُّ الجبال الراسيات لدُكَّتْ

وكنـت أنا الساقـي لمن كان حاضرا أطوف عليهم كـرة بعد كـرة
ونادىـنى سرا سرا بسر وحكـة وإن رسول الله شـيخى وقرئ
ثم قال فى (وحدة الوجود) :

تجلى لى المحبوب فى كل وجهـة فشاهدته فى كل معنى وصورة
وخاطبـنى منى مكشف سرائرى فقال: أتدرى من أنا؟ قلت منى
فأنت حياى بل أنا أنت دائما إذا كنت أنت اليوم عين حـية منى
فأوصلت ذاتى باتحادى بذاته بغير حلول بل بتحقيق نسبى
فصرت فناء فى بقاء مؤبد لذات بديمومية سرمدية
وغيبـنى عنى فأصبحت سائلا لذاتى عن ذاتى لشغلى بغيبتى

والشاعر فى البيت الرابع يفرق بين مذهبين من مذاهب التصوف :
أحدهما — المذهب القائل بوحدة الوجود . وقد سبق شرحه .

وثانيها — المذهب القائل بالحلول وأصحابه ينظرون إلى الخالق
والمخلوق على أنهما شيئان متميزان يحل أحدهما فى الآخر كما يحل
الماء فى الخمر . وهذا ما يزه الشاعر نفسه عنه فى هذا الشعر . فهو ليس
من الثنائـلين (بالحلول) . وإنما هو من القائلين (بوحدة الوجود) .
فتأمل أيها القارى ذلك جيدا عند قراءة هذا الشعر .

وقد آثرنا الإتيان بنهاج من شعر الدسوقي فى (وحدة الوجود)
لأن الدسوقي أوضح من ابن الفارض فى هذا الشعر . ولو قد فعلنا
عكس ذلك لوجد القارى شيئا من المشقة فى فهم ابن الفارض عندما يعبر
عن هذه الفكرة من أفكار المتصوفة .

وترك العصر الفاعلي والعصر الأيوبي إلى عصر الممالك فلتقى
بشاعر صوفي كبير هو : —

البوصيري :

وهو شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد البوصيري . قيل إنه ينتمي
إلى فرع من قبيلة صنهاجة ببلاد المغرب . فهو إذن من أصل مغربي . وأما
(بوصير) التي سمي بها هذا الشاعر فترية مصرية تقع بين الفيوم
وبني سويف . وفيها قتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، وبها
عاش الشاعر في كنف أسرته .

أقبل البوصيري على التصوف فدرسه في أول أمره على
(أبي العباسي المرسى) . وهو الذي خلف أبا الحسن الشاذلي في طريقتة
الصوفية . غير أنه من الحق أن يقال إن البوصيري لم ينجح كل النجاح
في أن يكون متصوفا بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة في عصره . ومع
هذا أو ذاك فالبوصيري يعتبر من خيرة الشعراء الذين مدحوا رسول
الله صلى الله عليه وسلم . ولأن هذا المدح في ذاته ضرب من ضروب
التصوف ، فقد بناء الشاعر على فكرة هامة من أفكار الصوفية ، وهي
الفكرة المعروفة (بالحقيقة المحمدية) أو (التور المحمدية) الذي انتقل
عبر الأجيال منذ بدء الخليقة إلى عهدنا بمحمد صلى الله عليه وسلم .
ولعل أهم المدائح النبوية التي نظمها البوصيري وهي كثيرة قصيدتان : —
(إحداهما) الحمزية وقد سماها (أم القرى في مدح خير الورى) .
وعدد أبياتها أربعائة وستة وخمسون بيتا ومطلعها :

كيف ترقى رُقَيْكَ الانبياء يا سماء ما طاولتْهَا سماء

(والثانية) ، الميمية . وهى المسماة (بالبردة) أو (البراة) ؛ فقد قيل إن البوصيرى وفد بها على قبر النبي صلى الله عليه وسلم وهو مريض فعوفى من ساعته . وعدد أياتها مائة وواحد وستون بيتا ومطلعها قوله :

أمن تذكر جيران بذى سلم مزجت دما جرى من مقلة بدم
ونظرة شاملة فى هذه المدائح النبوية التى نظمها البوصيرى تدلنا دلالة
قاطعة على أنه نفي عن محمد صلى الله عليه وسلم صفة الربوبية فقط ، ثم
مدحه بكل صفة من الصفات فيما وراء ذلك . وانظر هنا إلى قوله :-

دع ما ادّعت النصارى فى نبيهم
واحكم بما شئت مدحا فيه واحكم
فإن فضل رسول الله ليس له
حد فيعرب عنه ناطق بفهم
وانسب إلى ذاته ماشئت من شرف
وانسب إلى قدره ما شئت من عظم
أعيا الورى فهم معناه فليس يرى
فى القرب والبعد فيه غير منفجهم
كالشمس تظهر للعينين من بُعد
صغيرة وتكُلُّ الطرف من أمم
وكيف يدرك فى الدنيا حقيقته
قوم نيام تسلاوا عنه بالحلم

فبلغ العلم فيه أنه بشر
وأنه خير خلق الله كلهم
وكل آى أتى الرسل الكرام بها
فإنما اتصلت من نوره بهم

وفى البيت الأخير إشارة إلى النور المحمدى الذى سبق ذكره .
وعن هذه الفكرة صدر البوصيرى فى أكثر مدائحه النبوية ومنها
الهمزية وفيها يقول : .

أنت مصباح كل فضل فما تصد ر إلا عن ضوئك الأضواء
لك ذات العلوم من عالم الغيب ب ومنها لآدم الأسماء
لم تزل فى ضمائر السكون تحتنا ر لك الأمهات والآباء
ما مضت فترة من انرسل إلا بشرت قومها بك الأنبياء
الخ ...



الفصل الرابع

أساليب الشعر المصرى فى تلك الفترة

منذ القدم والشعر العربى قيمان لا ثالث لهما : شعر المناسبات ،
والشعر الشخصى أو الشعر الذاتى . فالأول — يقصد به إلى الشعر الذى
يوجه إلى الجماعة وإلى الطبقة الحاكمة ، ويشتمل على المدح والثناء ونحو ذلك
من الفنون الشعرية . والثانى — يقصد به إلى الشعر الذى يعبر فيه الشاعر
عن مشاعره الذاتية بغض النظر عن الجماعة . ويشتمل على الفكاهة
والمجون ووصف مجالس الشراب ، وما يعرض للناس فى حياتهم اليومية
أو الخاصة .

فى الأول جزالة فى اللفظ ، وتصنع وتكلف فى المعنى ، وتهيئيد بالفن
فى أعلى مراتبه . وفى الثانى ميل إلى البساطة وتحلل من قيود الصنعة
اللفظية إلا ما أتى منها عفواً الخاطر .

الأول — وهو شعر المناسبات يتأثر تأثراً قوياً بحياة الحكم
والدواوين . ولا مفر له من ذلك .

والثانى — وهو الشعر الشخصى — يتأثر بالحياة التى يحياها الناس
فى البيئات المختلفة ؛ أو يتأثر بالمشاعر التى تحتلج بها قلوبهم فى الحالات
المتباينة . وفى كل بيئة من هذه البيئات نجد شعراء يمثلون المذهب

الأول من مذاهب الشعر ، وإلى جانبهم شعراء يمثلون المذهب الثاني منها . وأكثر من ذلك أننا نجد ديوان الشاعر الواحد ينقسم إلى هذين القسمين معاً ؛ على تفاوت بين الشعراء أنفسهم في هذه القسمة . وهو تفاوت يحدد لنا الميل الغالب على هذا الشاعر أو ذاك ، فنعرف نحن بسهولة تامة ما إذا كان شاعراً من شعراء القسم الأول ، أو شاعراً من شعراء القسم الثاني .

ومهما يكن من شيء فتحسن حين ندرس الشعر المصرى في تلك الحقبة الطويلة التي نعتي بها في هذا الكتاب نستطيع أن نفرق بين مذهبين على الأقل من مذاهبه أولهما — (مذهب البديع) — أو مذهب الكتاب . ومن المؤرخين من درج على تسميته كذلك (بالمذهب الفاضل) نسبة إلى القاضي الفاضل وزير السلطان صلاح الدين الأيوبي ، وزعيم الحركة الأدبية في زمانه . وإن كان المذهب البديعي في ذاته قد ولد ونما قبل مجيء الفاضل بخمسة قرون على أكثر تقدير . إذ المعروف أنه نشأ منذ أواخر القرن الثاني للهجرة غير . أن الفاضل — وهو من أدباء القرن السادس — استطاع أن يضيف إلى البديع ألواناً جديدة جعلت من السهل علينا تمييز الأدب المصرى من الأدب العربى في الأقاليم الإسلامية الأخرى . وسنشير إلى هذه الألوان التي استحدثها الفاضل فيما بعد .

وثانيهما — (مذهب المعاني) . وهو أكثر ظهوراً في الشعر الشعبي . وفي هذا الضرب من الشعر احتفال ظاهر بالأفكار ، وعناية تامة بتصوير العواطف والمشاعر التي يفعل بها الناس انفعالات لا تكلف فيه

ولا دافع له من خوف الحاكم ، أو طمع في ذهبه ، أو أخذ شيء من السلطة التي في يده .

ومنهب البديع يضم إليه نخبة صالحة من شعراء العصرين الأيوبي والمملوكي . وله أتباع كذلك في العصر العثماني . فن تلاميذ هذا المذهب على سبيل المثال : القاضي الفاضل — وهو زعيم هذه المدرسة بلا منازع ، والعماد الأصفهاني ، وابن سناء الملك ، وكال الدين ابن الننيه ، وابن الساعاني (وهم من شعراء العصر الأيوبي) . وجمال الدين ابن نباته (من شعراء العصر المملوكي) .

والمذهب الثاني — وهو مذهب المعاني — يضم إليه شعراء آخرين منهم البهاء زهير ، وجمال الدين ابن مطروح ، وأبو الحسين الجزار ، والسراج الوراق ، وأيدمر الحيوى ، وشعراء آخرون ظهروا بمدينة الفسطاط ، وكان لهم طابع خاص . وكلهم تلامذة الشاعر المشهور باسم أبي الحسن ابن حميدة العقيلي نزيل مدينة الفسطاط وزعيم الأشراف العلويين في زمانه .

على أن هذا المذهب الأخير من مذاهب الشعر المصري — وهو مذهب المعاني — يضم إليه طائفة ثالثة من طوائف الشعراء عرفت بميلها إلى المجون والتحامق ، واشتهر منها كثيرون منهم أبو حامد الأنطاكي المعروف « بأبي الرقعق » ، وصريع الدلاء ، وصالح بن يونس والشاعر المعروف بابن مكينة وغيرهم .

عالج شعراء المعاني فنون الشعر على اختلافه . واهتموا فيه بالتعبير

عن العواطف بطريقة أدنى إلى ذوق العامة لا الخاصة ، وإن لم ينسوا في هذه الطريقة أن يلائموا بينها وبين الزى الأدبي العام لمصر في ذلك العصر ، وهو الزى الذى يؤثر البديع ويعنى به عناية جعلت منه طابعا للأدب المصرى ولونا من ألوان الشخصية .

وإذا كانت الشخصية المصرية واضحة في شعر المعانى — أو يجب أن تكون كذلك — فهل كانت كذلك في شعر البديع ؟

لم يكن بد لمصر من أن تتأثر بالبديع وألوانه المختلفة في الأدب . ولم يكن بد لمصر من أن تترك أثرها في هذا البديع نفسه كذلك . وخاصة بعد أن نعمت بحضارة الفاطميين الزاهية ، ثم حضارة الأيوبيين والمماليك السالطة .

ولقد عرف المصريون ألوانا جديدة من ألوان البديع تتفق وطبيعتهم ، وتلائم أمزجتهم ، وتسائر شخصيتهم التى استهروا بها في التاريخ الوسيط .

ومن هذه الأنواع على سبيل المثال :

نوع يتالم له (السهولة) كتلك التى تظهر في شعر البهاء زهير وابن مطروح . ونوع يتالم له (الزاهة) وهى أن ينزه الشاعر شعره من ألفاظ الفحش والمجاجة حتى يسكون الهجاء نفسه « مما تنشئه العذراء في خدرها فلا يتيج منها » .

ثم نوع يقال له (التهكم أو التندر) — وهو كثير في الأدب المصرى . وأسبابه معروفة لا تحتاج إلى شرح .

ثم إن المصريين غلب على أديهم الميل إلى لون من ألوان البديع عرفوا به ، وأكثر منه زعيمهم القاضى الفاضل . وهذا النوع الأخير هو (التورية) ومن أسماء هذه التورية عندهم كذلك (الإيهام) و (التوجيه) و (التحجير) . ولكن اسم (التورية) فى ذاته أقرب هذه الأسماء إلى فهم المقصود من هذا اللون من ألوان البديع . لأنه مصدر من قولهم : وريت الخبر تورية بمعنى سترته ، وأظهرت غيره ، فكان المتكلم يجعله وراءه بحيث لا يظهر .

والأدب المصرى منذ أواخر العصر الفاطمى إلى نهاية العصر العثمانى يوشك أن يكون تورية من أوله إلى آخره ، والقاضى الفاضل هو الذى نبه الناس إلى التورية — أو كما يقول النقاد — هو الذى عصر سلافها لأهل عصره ، وتقدم على المتقدمين بما أودع منها فى نظمه ونثره .

ونريد أن نختم هذا الفصل بإيراد الشواهد القليلة على كل ضرب من أضرب البديع التى ابتدعها المصريون . وسنتف فى الفصول القادمة عند بعض الشخصيات البارزة من الشعراء الذين يمثلون البديع المصرى . وإذ ذاك سنأتى بأمثلة أوضح وشواهد أكثر على هذه الأنواع البديعية التى نتحدث عنها :

فن الشواهد على (السهولة) قول البهاء زهير :

ما كنتموني رخيصاً فانحط قدرى لديكم
فأغلق الله باباً دخلت منه إليكم
حتى ولا (كيف أنتم) ولا (السلام عليكم) !

ومن الشواهد على (النزاهة) كثير من شعر الشعراء في الهجاء أو
السخرية والتندر . وهو شعر يوشك أن يكون خالياً من الفاضل
الفحش والبذاءة ؛ بحيث تقرأه العذراء في خدرها — كما قلنا — فلا
يقبح منها . وسنعرض لأمثلة كثيرة منه عند الكلام عن البهاء زهير
أيضاً . فهذا الأخير شهرة عظيمة بالأدب المبني على السهولة في اللفظ
والسهولة في المعنى أو المبني . ومن (التورية) قول القاضي الفاضل :

بالله قل للنيل غنى أتى
لم أشف من ماء الفرات غليلاً
يا قلب كم خلّفت ثمّ (بيته)
وأظن صبرك أن يكون (جميلاً)

وبعد فيحسن بنا أن نتقل من ذلك إلى الكلام عن الشعراء أنفسهم
وهنا سننظر إلى أن نختار بعضاً ونترك بعضاً . لأن من العسير
علينا أن نلم بهم جميعاً في حقبة طويلة ، كالتى نورد لها . وفي هذا
القدر من الشعراء الذين سنختارهم ما يعطينا فكرة صحيحة عن الشعر
المصرى لتلك الفترة . وفيه كذلك غنى عن ذكر بقية الشعراء الذين
عرفتهم مصر حينذاك ..

الفصل الخامس

شعراء البديع

أو مدرسة الكتاب في الأدب المصرى

فتن الأدباء في العصور التي تؤرخ لها بالبديع ، وكان إمامهم المتبع في ذلك هو القاضي الفاضل . وله تلاميذ كثيرون ، منهم العماد الأصفهاني وابن سناء الملك ، وكمال الدين بن النيه في العصر الأيوبي ، وجمال الدين ابن نباته ، وصفي الدين الحلبي ، وابن الوردي في العصر المملوكي ، والشهاب الخفاجي ، وابن منبجك في العصر العثماني .

وسنقف عند ثلاثة فقط من أولئك الشعراء وهم ابن سناء الملك ، وجمال الدين ابن نباته ، والشهاب الخفاجي . ولكن قبل أن نتحدث عنهم يحسن بنا أن نعرض لقصيدة واحدة فقط من قصائد القاضي الفاضل — وهو إمام هذه المدرسة التي نحن بصددتها — وفيها فن من فنون البديع يوشك أن يكون نوعا من الهندسة اللفظية إذا صح هذا التعبير على النحو التالي :

نظم الفاضل في مدح « العزيز عثمان » بن السلطان صلاح الدين الأيوبي قصيده مطلعها : —

الحسن جاد على الأحباب فازدادوا

لكن أحبابنا بالوصل ما جادوا

ومنها : —

نقر وطيب وأحداق وأجياذ	فهن من شبه الغزلان أربعة
صب وقرش وسمار وعود	وقد بكت لضنى العشاق أربعة
عهد وود وأقوال وميعاد	هيئات يصدق منك الظن أربعة
عال وباه وميال ومياد	له من الفصن الريان أربعة
كد وصد وإقصاء وإقصاء	ولى من الدهر عمارت أربعة
قلب ونطق وأخلاق وأحساد	والعزيز من المملوك أربعة
عزم وحزم وأفكار وأرصاء	يدبر الملك من عثمان أربعة
فيض وسيل وإبراق وإرصاد	وفيه من صادقات السحب أربعة
ضعف ولحن ووراء ورواد	ياوى إلى بابك المفتوح أربعة

وبهذه الطريقة نظم الفاضل أربعة وأربعين بيتا ، فى نهاية الشطر الأول من كل بيت منها لفظ « أربعة » . وفى الشطر الثانى بيان لهذه الأربعة . وبذلك تحول الشعر عند الفاضل — كما قلنا — إلى ضرب من ضروب الهندسة أو ضرب من ضروب العبث اللفظى الذى اشتهر به الأدباء منذ بداية القرن الخامس الهجرى ، وهو القرن الذى شهد أباء العلماء المعرى . ثم هو القرن الذى شهد أنواعا أخرى من العبث اللفظى : كالرسائل التى تقرأ من اليمن إلى اليسار ، كما تقرأ من أسفل إلى أعلى . وترى تطبيق ذلك فى النكتة الأدبية التالية : —

اجتمع الهاد الأصفهاني بالقاضى الفاضل فى مجلس فقال الأول للثانى :

« سر فلا كبا بك الفرس »

فأجابه الثاني بقوله :

« دام علا العباد »

والنكتة هنا في أنك تستطيع أن تقرأ كلا من هاتين العبارتين من اليمين إلى اليسار ، كما تستطيع أن تقرأها من اليسار إلى اليمين فلا يتغير المعنى .

* * *

نستطيع بعد هذا التمهيد أن نقف كما قلنا عند طائفة من شعراء البديع ومنهم :

أولاً — القاضي السعيد هبة الله بن سناء الملك

من أظهر شعراء مصر في العصر الأيوبي . ولد سنة ٥٥٠ هـ وتوفي عام ٦٠٨ هـ . وكان هو وأبوه يعملان في ديوان القاضي الفاضل . وكان أبوه ينوب عن الفاضل في أثناء غيابه بالشام . ومن ثم كان ابنه الشاعر محبوباً من القاضي الفاضل . ويدل لقب جده « ابن سناء الملك » على أنه كان من كبار الموظفين في الدولة الفاطمية . فقد خلع هذا اللقب أيضاً على الوزير الفاطمي المعروف « بدر الجمالي » ولابن سناء الملك ديوان موشحات اسمه « دار الطراز » ، به موشحات من نظمه ومن نظم شعراء من المغرب وشعراء من الأندلس . وله كذلك ديوان شعر يشتمل على أكثر من ثمانين قصيدة اثنتان وثلاثون منها في مدح القاضي الفاضل وحده ، والقصائد الباقية موزعة على

الملوك والأمراء الذين منهم : الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي وأولاده الأفضل ، والعزیز ، والظاهر .

معنى ذلك أن الشاعر الذى نقف أمامه الآن نبغ فى فن المدح . وإذا قلنا إنه نبغ فى المدح فعنى ذلك أنه نبغ كذلك فى فنى الغزل والفخر ، لما نعلمه من أن قصيدة المدح فى الأدب العربى لا بد أن تشمل على الغزل الذى يبدأ به الشاعر قصيدته على الطريقة التقليدية المعروفة ، كما لا بد لقصيدة المدح أيضا من اشتغالها على الفخر الذى يحدد فيه الممدوح راحة نفسية خاصة .

ولابن سناء الملك أن يقتخر بنفسه وبآبائه وبالوطن الذى أكرمه وأكرم آباءه ؛ وهو مصر . ولنتظر أولا فى هذه الآيات التى عبر بها الشاعر عن حبه لمصر وفيها يقول :

أَيَا بَصْرِي لَا تَنْظُرُنَّ إِلَى بَصْرِي

فإني أرى الأحبابَ فى بلدةٍ أخرى

وما بلدةٌ لم يسكنوها ببسطة

ولو أنها بين السماكين والشعري

وما القفر بالبيداء قفرٌ وإنما

أرى كل وادٍ لم يكونوا به قفرا

تذكرت أحبابي وإني لمؤمنٌ

ولكن أراني ليس تنفعني الذكرى

أهبط عن مصر وقديماً قد اشتهى

على الله أقوام فقال اهبطوا مصرا ؟

فوالله ما أشترى الشام ومكة
وغوطته الحضرا بشبرين من شبرا^(١)
فإن عدتُ والأيامُ عوجٌ رواجعٌ
لقد أنشأتني قبلها نشأةً أخرى

وأما الفخر بنفسه فنه قوله : —

سواي يخاف الدهر أو يرهبُ الردى
وغيري يهوى أن يكون مغلدا
ولكني لا أرهبُ الدهرَ إن سطا
ولا أحتذرُ الموتَ الزوامَ إذا عدا
ولو مدَّ نحوي حادثُ الدهر كفه
لحدثت نفسي أن أمدَّ له يدَ
توقدُ عزم يترك الماءَ بحجرة
وحلية حلم تترك السيفَ أبردا
وأظلمأ إن أبدى لي الماءُ منه
ولو كان لي نهرُ الحجرة موزدا
ولي قلمٌ في أنملي إن هزرتُه
فما ضرَّني ألا أهزَّ المهندا

(١) المعنى أن الشاعر لا يشتري بلاد الشام كلها بما فيها المكان الجميل المسي
(الغوطة) بمساحة صغيرة قدرها شبران فقط من جهة شبرا وهي إحدى جهات القاهرة.

إذا سَالَ فوقَ الطرس وقعَ صريره
فإن صليلَ المرهفات له صدی
ومن قوله في الفخر أيضا :

أيدفعني الدهر عن مطلي ويكثر من لومه المَطلَبِ (١)
ولم يدر أني كبير الإباء وأن الرشيد المرجى أبي
وأني لو شئت من فضله لأنلت وجلي بالكوكب
ولو شئت كان لدى الهلال بنهر المجرّة كالركب
ومن شعر ابن سناء الملك في مدح الملك العزيز ابن صلاح
الدين قوله :

من منصفي من حاكم جائر أبلاجٍ مِثلَ القمر الزاهر
قد كسّر الجفن فطار الحشا ما أفتك الكاسر بالطائر
(ياهاجرى) ليت ندأى إذا ناديته كان (يا زائرى)
قم نزجر الهم بكأسِ الطلّا ليلة لاناه ولا زاجر (٢)
وهاتها واشرب على مدح من لم أنس من إنعامه ذاكرى

(١) ين (مطلي) و (المطل بي) جناس تام .

(٢) الشطر الثاني من هذا البيت مقتبس من شاعر قديم هو وضاح الين
والبيت كالآتي :

فاسقط علينا كسقوط الندى ليلة لا تاه ولا زاجر

ما كنت لولا الصدق في مدحه ألصقُ باسمي سمةَ الشاعرِ
وكلُّ شعرٍ قلت في غيره فإنه تجربةُ الخاطرِ
المسلِكُ البرَّ العزيزُ الذي غرفتُ في إنعامه الماطرِ
يهدمُ مالاَّ حين يبقِ علاَّ يا عجباً للهادمِ العامرِ
أنا الذي جئتكَ لا للجَدَا بل للهوى في فصلك الباهرِ
وقال في مدح القاضي الفاضل وبالع في المدح :

خير الأنام ومولاهم وفاضلهم عبد الرحيم ولا تستثن لي أحدا
تأقى الملوك على أبوابه زمرا ويدخلون على أبوابه سُجُدا
قد آنسوا نار موسى من بديته فما يجيئون إلا يقبسون هدى
أغنى الملوك بكُتُبٍ عن كتابهم فما برى قسماً إلا غزاً بلداً
الح ...

ومن أمثلة (الغزل) الذي كان يأتي به الشاعر في مستهل قصائده
هذا الغزل الذي قدم به لقصيدة نظمها كذلك في مدح القاضي الفاضل .
ومنه قوله :

فراق قضى للهيم والقلب بالجمع
وهجرٌ تولى صُلحَ عيني مع الدمع
وربع لذات الحال خال وربما
شُخِّلْتُ بِهَمَى عن مسألة الربع
فسبحان ربِّي قد سميت همة النوى
وطالت إلى أن فرقت ساكني جمع

وفي الحى من صيرتها نصب خاطرى
 فما أذنت في نازل الشوق بالرفع (١)
 من العرييات المصونات بالذى
 أثارتته خيل الغائرين من النقع
 تقيه بفرع منه أصل بليتى
 ولم أر أصلاً قط يُعزى إلى فرع
 فكم تركت في ذلك الحى ميّتا
 وكُم مُحِمِلَت فيها الضلوع على ضلع
 سقى الله أيام الوصال مدامعى
 عليها وإن أسرفن في الهطل والنبع
 زماناً تقود اللهو فيه يدُ المنى
 ويرى التراضى صحة الصدِّ بالصدع
 ولا نائل الحسناء نَزَرُ ولا النوى
 تُتجاهر فينا دولة الوصل بالخلع

ثانياً : ابن نباتة المصرى

قال عن نفسه إنه ولد بمصر في ربيع الأول سنة ست وثمانين
 وستمائة للهجرة بجهة يقال لها (زقاق القناديل) .
 وقد كان زقاق القناديل هذا مقام أشراف الناس وأعيانهم في زمانه

(١) في البيت طباق بين (نازل) ورافع ، وفيه كذلك استخدام لألفاظ من
 النحو على سبيل التوجيه وهو نوع من أنواع البديع المعروفة في ذلك العصر .

وعاش ابن نباتة ما عاش وهو لا ينسى حلاوة الأيام التي قضاه في شبابه
ولهوه وفراغه . وفي ذلك يقول :

وهاً لأيامي التي سلفتُ ما بين ذاك النعيم والفرح
لا يُنزلُ الدهر من يدي قدحاً كأنني صورةٌ على قدح ١١

وأبوه (شمس الدين بن نباتة) كان من أشياخ الحديث بدمشق .
وترجم حياته صلاح الدين الصفدي في كتابه المعروف (بالوفيات) .
وتوفي سنة ٧٥٠ هـ . ومن أجداد هذا الشاعر عبد الرحيم
ابن نباتة الخطيب المتوفى سنة ٣٤٧ هجرية . وكان مقدماً في علوم الأدب
ويقال إن خطبه لم يعمل مثلها في موضوعها . وكان خطيب حلب وخدم
سيف الدولة الحمداني . وكان هذا البطل كثير الغزوات . فأكثر ابن نباتة
من خطب الجهاد في سبيل الله . وكان لهذه الخطب فعل الإذاعة والدعاية
في أيامنا هذه .

ومن هنا كان شاعرنا كثير الفخر بأبائه وأجداده . وهو يحق
في فخره هذا . وانظر إليه حين يقول :

ورثتُ اللفظ عن سَلَسَنِي وأكرمُ بآلِ نباتة العزَّ السراةُ
فلا كعجبُ اللفظي حين يحلو فهذا القطر من ذاك النبات !

وانظر إليه حين قال في ختام قصيدة مدح بها علاء الدين
ابن الفضل : —

خذها منظمة الاسلاك معجزة بالجواهر الفرد فيها كل نظام
مصرية من بيوت الفضل ما عرفت فيها بنسبة جزار وحمای

يريد أن يقول أنه بيت عريق ولأنه ليس كأبي الحسن الجزار أو
نصير الدين الحمأى وغيرهما من الشعراء الذين لا نسب لهم ولا حسب .
ولد ابن نباتة فى عهد الملك المنصور قلاوون . ومات فى عهد السلطان
الأشرف شعبان . أى أنه عاش فى عصر كثير الفتن والأحداث .
أو عصر انقسم فيه أمراء المماليك على أنفسهم ، وكثرت الدسائس
والمؤامرات ، كما كثر اعتقال الكبراء ومصادرة أموالهم وقتلهم
ونحو ذلك .

ثم لا ننسى التتار وخطر التتار . فقد كان هذا الخطر يهدد البلاد ،
ويدعها فى حالة سيئة من الخوف والجزع والتوتر .

وجاءت المجاعة التى منيت بها مصر إذ ذاك فكانت ثالثة الأثافي
التي احترقت بنارها البلاد المصرية فى تلك الفترة .

من أجل هذا رقت نفس ابن نباتة واضطربت أعصابه ، واحتد
مزاجه ، وأصبح رجلاً أدنى إلى الخوف والجهن منه إلى الشجاعة
ورباطة الجأش .

وقد كان لكل هذه العوامل أثرها الواضح فى شعره . فقدم لنا
هذا الشعر صورة رجل يحب الدعة ويؤثر السلامة ، ولا يهاجم
أحداً من الناس ولو هاجمه ، ولا ينقض عملاً من الأعمال حتى
ولو كان فيه ما يتعارض والصالح العام . خلا ديوان هذا الشاعر خلواً
تاماً من الهجاء ومن الحماسة . وخلا حتى من العتاب إلا ما كان رقيقاً
أقرب إلى المدح منه إلى الذم . وانظر إلى قوله يعتب على صديق له :

لئن ضاع مثلى عند مثلك لئن
 لعمر المعالي عند غيرك أضيع
 متى تنجع الشكوى إذا أنا لم أجد
 لديك اعتناء غير أنك تسمع
 وما كان صعباً لو مننت بلفظة
 ترد بها عن الخطوب وتردع
 وقلت امرؤ للشكر والأجر قابل
 وللبر فيه والصنيعة موضع
 ومغترب من قومه ودياره
 أساعده والله يُعطى ويمنع

هكذا عاش ابن نباتة حياته متطامن النفس ، أدنى إلى الاستسلام
 والاستكانة منه إلى الجرأة على الحياة والأحياء . مع من أن القدر
 وفر له كثيراً من الفرص التي كان يستطيع بها منافسة النظراء ، بل
 مزاحمة الكبراء بالمناكب . وليس أدل على استكانة ابن نباتة من قوله
 يصف نفسه :

قل عوني على الزمان فأصبح ت صبوراً على مراد الزمان
 حابس اللفظ والبراع عن النا س فلا من يدى ولا من لسانى
 وما زال هذا التعبير الأخير (لا من يدى ولا من لسانى)
 من التعبيرات الشعبية التي يوصف بها الضعيف المؤثر للسلامة إلى
 يومنا هذا .

وكان ابن نباتة في شبابه على شيء من اليسر والغنى . فاستمتع بالحياة في مصر كما ينبغي أو أكثر مما كان ينبغي . فلما نفذ ما معه من المال ، ونبت به الأوطان فكر في الرحيل عن مصر إلى الشام ، وأخذ يتنقل من مكان إلى مكان . فرة يلتحق بالملك المؤيد صاحب حماء ، ومرة يتصل بابنه الأفاضل وهكذا ، ورؤى في إحدى المرات يعمل تحت رياسة شهاب الدين ابن فضل الله بدمشق .

على أن الشاعر في أثناء هذا كله كان لا يفتأ يذكر مصر ، ويحن إليها حنيناً عظيماً كما ترى في قوله :

قسما ما حُلْتُ عن عهد الوفاء بعد مصر لا ولا نيلٍ بكائي
حبها تحنى وفوق ويميني وشمالى وأمامى وورائى ا
وهكذا كان حب مصر قد ملك على الشاعر نفسه وأحاط به من جميع جوانبه . فهو لا يجد من هذا الحب مناصاً ، ولا من مصر فكاً . وكان يرى أن مصر بلد الخير والغنى والرى والشبع . وفي هذا يقول :

غاب ذو الفضل في حمى مصر عنا
فنبشاً له حمى النغماء
تسقط الطير حيث تلتقط الح
باً وتنشئ منازل الكرماء

واسمع إليه يقول :

آها لمصر وروض مصر وكيف لى
بديار مصر مراتما وملاعبا

حيث الشيبة والحبيبة والوفا في الأفريقين مشاربا وأصحابا
والدهر سلمكم كيفما حاولته
لا مثل دهري في دمشق مُحَارِبَا
ويقول :

ياسارى البرق في آفاق مصر لقد
أذكرتني من زمان النيل ما عذبا
حدث عن البحر أو عنى ولا حرج
وانقل عن النار أو قلبى ولا كذبا
واندب على الهرم الغربى لى عُمرأ
فجذا هرما فارقتهُ وصبا
ويقول :

تذكرت مصرأ والأخلااء والدهرا
سقى الله ذاك السّفح والناس والعصرا
وقالت ظنونى فى الشّام ادعُ لذة
فقال لها ماضى الزمان : اهبطوا مصرا
وزحف ابن نباتة إلى الشيخوخة . وكان من حقه أن يستشعر فيها
شيثا من الراحة . ولكنه لم يحظ بذلك . بل ضاقت به الحال حتى كان
يسأل الممدوح خبزا ويسأل الآخر دارا للسكنى
وانظر إليه إذ يقول :

لقد أصبحت فى حال يرقُّ لمثلها الحجر
مشيبا واقْتَارُ يدِ فلا عين ولا أثر

ولاذ يقول :

تركت المال والجاء لاهل القدر والقُدرة
حسبي من حمى كشر وحسبي من غنى كشره
ولاذ يقول :

لقد أصبحت ذا عمر عجيب أقضى فيه بالانكاد وقى
من الأولاد خمس حول أم فواحنه من خمس وست
ولاذ يقول :

مولاي إن الحال قد وصلت إلى

سطين من بيتين قد ضمتها
لم يبق عندي ما يُباع بدرهم
إلا بقية ماء وجه صُتْها
وانظر إليه يقول وقد ستم شعر المدح :

أفى كل يوم أنت حامل مدحة إلى الحمد غاد بالعطا المتواتر
فيا ليت شعري والمطامع جمة لأم يراك المجد فى زى شاعر؟

فن ابن نباته

إذا نظرت فى شعر هذا الرجل وجدته يزخر بأنواع شتى من البديع .
من جناس إلى طباق إلى اكتفاء إلى مراعاة نظير . ولكن أكثر
الأنواع البديعية شيوعا فى شعره هى :

التضمين ، والتورية ، والاكتفاء ، والسهولة التى قنا لإنها ضرب
من ضروب البديع اشتهر به المصريون . وسنضرب الأمثلة البسيطة
على كل نوع من الأنواع المتقدمة :

فن التضمين

ومنه قوله من قصيدة له في رثاء قاضي القضاة تاج الدين السبكي :
نصاه للفضل والعلية والنسب
ناعيه للأرض والأفلاك والشهب
بيننا وفود الندى منهلة متناً
إذْ نازلتننا الليالي فيه عن كُشْب
وأقْبَلْتْ نوب الأيام ثائرة
(إذْ كان عرونا على الأيام والنوب)
قالت دمشق بدفع النهر واخبراً
(فرغت فيه بآمالى إلى الكُنب)
(حتى إذا لم يدعْ لي صدقه أملاً)
(شَرِقتُ بالدمع حتى كاد يشرق بي)
وكلمتنا سيوف الصُكْب قائلة
(والسيفُ أصدقُ لإنباء من الصُكْب)
وقوله (وفيه مع التضمين تورية) :
ترك الأسى لإنسان عيني بعدكم
أبدا يُعَادى لوعةً ويرَاوِح
تعباً ذا سن ومسح مَدَامِيع
(يا أيها الإنسان إنك كادح)^(١)

(١) التورية في قوله (لإنسان) فهي بمعنى الإنسان العادي كما تنهب إلى ذلك الآية الشريفة وبمعنى إنسان العين وهو ماعناه الشاعر

وقوله :

قف بالحى بعد البدور وناد
(أرأيت كيف خبا ضياء النادى)
وعاملٌ ظننت بمهجة ناخل
(أرأيت من حملوا على الأعواد)

وقوله فى معرض الرثاء :

وعيشك يا يحيى لو انك تفتدى (لهنت الدنيا بأنك خالد)

وقوله فى معرض المدح :

وأنت الذى قرّرت برؤيته الملا
(وهنت الدنيا بأنك خالد)

ومن التورية

قوله :

قل لوزير الشام يا من مدَّ يَدَ الجود للأنام
ماسرق المادحون وصفًا فيك فلا تقطع الأيادى^(١)
وقال وفيه تورية باسمه هو :
يقول رجائى لما دعا نَدَاكَ لَهَبَات تلك الهبات
تَسَاسَبَ حال النداء والرجا فهذا الغمام لهذا النبات^(٢)

(١) التورية فى قوله (الأيادى) فى معنى الأكف التى يحمل قطعها بالسرقة
وبمعنى النعم التى ينتظرها الشاعر من المدح .
(٢) التورية فى قوله (النبات) وهى واضحة .

وقال يرثي ولده عبد الرحيم :
يا لهف قلبي على عبد الرحيم ويا
شوق إليهِ ويا شجوى ويا دأى
فى شهر كانونَ واقاه الحسامُ لقد
أحرقتَ بالنار يا كانون أحشائى
وقوله :

يا غائبين تعللنا لغيبتهم
بطيب لهُو ولا والله لم يطب
ذكرت والكأس فى كفى لياليكم
فالكأس فى راحة والقلب فى تعب^(١)
ومن الاكتفاء

قوله :
فديت بليغا أهلتنى سطورهِ
لأجنحة تسمو سمو الأهلّةِ
فأقطف من أوراقهِ الأدب الذى ...
وأسمع من ألفاظهِ اللغة التى...^(٢)

(١) التورية فى قوله (راحة) فهى بمعنى راحة الكف وهى بمعنى الراحة التى هى
ضد التعب .

(٢) تكملة الشطر الثانى من البيت هكنا :
وأسمع من ألفاظهِ اللغة التى يلذ بها سمعى ولو ضمنت شئى
(٩) الأدب المصرى

وقوله :

في شعر مولانا السنا العالي وفي
إنشائه الأسنى مزاج القهوة
فتى تقسّل بيتا فقل إن الذى
ومتى تقل سجما فقل إن التى^(١)

ومن السهولة

وهى كثيرة فى شعر ابن نباتة ، على أنها نوع من أنواع البديع كما
اتفقنا قوله :

يا قلبُ أنتَ ومُعتلى	مُتَحَارِبَانِ كما أرى
هاتيك تمنعك الهدو	وَأنتَ تمنعها الكرى
وأنا الذى قاسيت يد	نكما العذابَ الأكبرَا
كُفُفًا المدامعَ والأسى	فلقد كفى ما قد جرى
لا آخَذَ الرحمنَ مَنْ	مَلَكَ الحشا فتجبرًا
قابلتُ رونقَ خلدِه	فصبغت دمعى أحرا
يا ناعسَ الأجفانِ قد	حكم الهوى أن أسهرا

(١) ربما كانت الإشارة فى الشطر الأول إلى قول المرزوق :

إن اندى سلك الهالك بنى لنا بيتا دعائمه أعز وأطول
وربما كانت الإشارة فى الشطر الثانى منه إلى قول جرير :
إن التى زعمت فؤادك من لها جبلت هواك كما جعلت هوى لها

ما كان أربحَ عاشقاً لو أن وصلك يُشسّرى
وقوله

وتاجر قلت له إذ رنا رفقاً بقلب صبره حائر
ومقلّة تنهب طيب الكرى منها على عينيك ياتاجر^(١)
وقوله :

يامنّ يُعلّنى بوصل مدامة
عن وصل من همى به يتكائر
لون المدام كما تراه وإنما
خد الذى أهواه لون آخر

ثالثاً - الشراب الخفاجى

وهو أحمد بن محمد شهاب الدين الخفاجى المصرى . ولد بقرية
سرياقوس . وتلقى دروسه بالقاهرة . ثم رحل مع أبيه إلى الحرمين ،
ثم إلى الأستانة . ثم عادا معا إلى القاهرة حيث عينه السلطان مراد قاضياً
للعسكر بمصر . ثم استقال وسافر إلى دمشق ، ومنها إلى حلب . ومن
هذه إلى الأستانة مرة أخرى . وتوفى سنة ١٠٩٦ للهجرة .

كان أدبياً عالماً شاعراً كاتباً . ومن أشهر مؤلفاته «ريحانة الألباء» .

(١) السهولة في هذا البيت آتية من استخدام الشاعر لهذا التعبير الشعبي السائد إلى يومنا هذا ، وهو تولهم « على عينك ياتاجر » .

وهو كتاب اشتمل على تراجم لبعض الأدباء في زمانه . ومن مؤلفاته كذلك « شفاء الغليل بما في لغة العرب من الدخيل » جمع فيه طائفة من الألفاظ الدخيلة والمعربة .

نماذج من شعر الخفاجي

من قوله في الهتاف بحب مصر والنيل :

إنَّ وَجْهِي بِمِصْرٍ وَجَدَ مَقِيمٌ
وَحَنِينِي كَمَا تَرَوْنِي حَسِينٌ
لَمْ يَزَلْ فِي خِيَالِي النَّيْلَ حَتَّى
زَادَ عَن فَكْرِي فَفَاضَتْ عَيْونِي
وَمِنْ شِعْرِهِ كَذَلِكَ (وفيه تضمين) :

يَا صَاحِبَ إِنِّ وَاقَيْتُ رَوْضَةَ نَرْجِسٍ
لِيَاكِ فِيهَا الْمَشَى فَهُوَ مُحْرَمٌ
حَاكَتْ عَيْونُ مَعْدِي بِذُبُولِهَا
(وَلَأَجَلَ عَيْنِ أَلْفِ عَيْنٍ تَحْكُمُ)

وقال في الغزل :

حَتَّمَا يَفْزُونِي صُدُودُهُ وَالصَّبْرُ قَدْ كَثُرَتْ جُنُودُهُ
لَمْ أَذَرِ : فَاتَرُ جَفْنَهُ وَالْخَصْرُ أَسْقَمُ أَمْ عُهُودُهُ ؟
نَشْوَانُ يَعْثُ بِِي كَمَا عَثْتُ بِأَمَالِي وَعُودُهُ

لولا مياه الحسن جا لت فيه لاحترقت خدوده
كالصب لولا دمعته يَهْمَى لأحرقه وقوده
يخفى الهوى وعيونه بغرامه المضنى شهوده
فسقى رياض الحسن من دمعى حياً يَهْمَى مديده
زمن بجيد اللهو قد نظمت على نسق عقوده
إذ دوح أنسى يانع بكثومنا انفتحت وروده
والكأس نجم لاح فى فلك السرّة لى سعوده

هكذا كان شعراء البديع يعتمدون اعتماداً واضحاً عليه فى شتى
قنونه . فإذا أردنا نحن فهم هذا الشعر وجب علينا أن نكون مزودين
بثقافة أدبية واسعة تشمل اللغة والحديث والتفسير والتاريخ
والبيان ونحو ذلك . لأن الشاعر من شعراء هذا المذهب يعتمد على هذه
الثقافات المختلفة فى توريته ، ويأخذ منها بين حين وآخر عند صياغة
هذه التورية . على أن من شعراء البديع فى تلك العصور التى تؤرخ لها
من بالغ فى الزينة اللفظية حتى أصبحت لغزا يحار القارىء فى فهمه :
فإن نبأه المصرى يتلاعب بالألفاظ كما فى قوله :

شجون نحوها العشاق فادوا وصب ماله فى الصبراء^(١)
ولاح ماله هاء وميم له من صبوتي ميم وهاء^(٢)

(١) أى أن لفظ (صب) لو أضيف إليه حرف (الراء) لكان عنده (صبر)

(٢) لاح من لحي يلحي بمعنى ذم ولعن . وقوله (ماله هاء وميم) أى ماله هم
بمعنى حب . أى أن هم عدولى ليس آتيا من الحب ولكنه آت من العذل والوهم .

وانظر إلى قوله :

آه لشرح شباب كان لي ومضى

واعترضت شرعا ولكن ماله خاء (١)

ومثل هذا كثير في شعر ابن نباتة ، وقد أصبح به هذا الشعر إلى اللغز أقرب منه لأي شيء آخر .

وللبديعيين طرق شتى في التلاعب بالمعاني والألفاظ والأسماء والأفعال يطول شرحها ، ولا نستطيع الإلمام بها ، فحسبنا ما قدمناه من هذه الأمثلة .

(١) إذا حذف (الخاء) من لفظ (شرح) أصبح (شر) .

الفصل السادس

مدرسة المعاني في الأدب المصرى

أتينا فى الفصل السابق على طرف من الشعر الذى قصد فيه إلى التأنى اللفظى ، وتوفرت له القيم التى تناسب التأنى . وفى هذا الفصل نريد أن نعرض لنوع آخر من الشعر لا يقصد فيه الشاعر إلى الأناقة اللفظية قصداً . ولا يمنع ذلك من أن تأتى هذه الأناقة عفواً الخاطر .

وقد اشتهر أصحاب هذا النوع الأخير من الشعر باحتقائهم بالمعاني ، وعنايتهم بالمشاعر والإحساسات ، وصرفهم ذلك عن العناية باللفظ أو البديع وأشباه ذلك من الأمور التى سعى إليها شعراء النوع الأول . وقد عرفت العصور التى تؤرخ لها من شعراء المعاني كثيرين . كان معظمهم فى العصرين الأيوبي والمملوكى ، وأقلهم فى العصر العثمانى .

ومن شعراء المعاني على سبيل المثال :

البهاء زهير — وهو إمام الجميع فى هذا المذهب من مذاهب الشعر المصرى . وجمال الدين بن مطروح . وهما من شعراء مصر فى العصر الأيوبي .

ثم أبو الحسين الجزار ، والسراج الوراق ، ونصير الدين الحماد . وهم من شعراء مصر فى العصر المملوكى .

ثم حسن البدر الحجازي ، وابن الصلاحى ، وعبد الله الشبراوى -
وهم من شعراء مصر فى العصر العثمانى .
وسنبدا الحديث أولا بإمام هذا المذهب :

البرهه زهير

وهو أبو الفضل — وقيل أبو العلاء — زهير بن محمد بن على بن
يحيى بن الحسين بن جعفر بن منصور الملقب « بهاء الدين زهير »
ينتمى نسبه إلى المهلب بن أبى صفرة سيد أهل العراق وشجاعها الذى
مات سنة اثنتين وثمانين للهجرة .

ولد شاعرنا بوادى نخلة فى مكة من أرض الحجاز سنة ٥٨١ هجرية .
وبالحجاز قضى زهير عهد الطفولة وعهد المراهقة . ثم رحل إلى مصر
أول عهده بالشباب ، وكان قلبه لم يزل عالقا بالحجاز حين قال :

أحنُّ إلى عهد المحصبِ من منى
وعيشٍ به كانت ترفٌ ظلالة
وأذكر أيام الحجاز فأنتى
كأن صريع يعتريه خباله

فيا صاحبي بالخيفِ كن لى مسعدا
إذا آن من بين الحجيج ارتحالهُ
وخذ جانبَ الوادى كذا عن يمينه
بحيث القنا تهتُّ منه طوالهُ

هناك نرى يتأ لزينب مشرقاً
إذا جئت لا يخفى عليك جلاله
فعرّضْ بذكري حيث تسمع زينب
وقل : ليس يخلو ساعةً منك بالله
عساها إذا ما مرّ ذكرى بسمعها
تقول : فلان عندكم ؟ كيف حاله ؟

واختار البهاء زهير — أو اختار له قصر المسافة بين الحجاز
والصعيد — مدينة قوص فأقام بها . وكانت قوص يومئذ بيئة أدبية
علمية لها خطرهما . أو كانت في المرتبة الثانية مباشرة بعد بيئة القاهرة .
وكانت متفوقة على البيئة العلمية الثالثة — ونعني بها بيئة الإسكندرية —
وبحسبك أن تعرف أنه كان في قوص يوم نزل بها البهاء زهير أكثر
من ستة عشر مكاناً للتدريس .

وهناك في قوص أتم البهاء زهير علومه حتى نضج ، ثم التحق
بخدمة والى المدينة — وهو يومئذ الأمير محمد الدين اللمطي الذي تولى
الأعمال القوصية عام ٦٠٧ هـ . وهناك الشاعر بذلك ، واتصل بينهما
الود من ذلك الوقت . وبقى البهاء زهير في خدمة هذا الوالى إلى ما بعد عام
٦١٨ هـ . ففي تلك السنة وجه الشاعر إلى الأمير قصيدة عتاب منها قوله :

لنا عندهم وعد فهلا وفيتمو
وقلتم لنا قولاً فهلا فعلتموه ؟
حفظنا لكم ودّاً أضعتم عهوده
فشتان في الحالين نحن وأتموه

فيا تاركى أنوى البعيد من النوى
 إلى أى قوم بعدكم أتيتم ؟
 ألا إن إقليما نبت في داره
 وقد كثر الإثراء فيه لعدم
 وإن زمانا ألجأتى صروفه
 فحاولت بعدى عنكمو للمدم
 وأعلم أنى غايط فى فراقكم
 وأنكمو فى ذاك مثلى وأعظم
 ومثلك لا يأسى على فقتسد كاتب
 ولكنه يأسى عليك ويندم

وترك البهاء زهير مدينة قوص وأتى إلى القاهرة ، ولعل ذلك كان
 فى عام ٦٢٢ هـ حين اتصل بخدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فكان
 رئيساً للكتاب بديوان الإنشاء . ثم قبض على الملك الصالح هذا واعتقل
 فى قلعة (الكرك) . فبقى البهاء زهير وفيأ لصاحبه ولم يخدم ملكا سواه ،
 ولم يزل على ذلك حتى أطلق سراح الملك الصالح نجم الدين ، وعاد فلك
 الديار المصرية من جديد ، ورجع الشاعر لخدمته وذلك عام ٦٣٧ هجرية
 وبقى فى هذه الخدمة حتى توفى الملك الصالح .

وهكذا بقى البهاء زهير كاتباً لديوان الإنشاء فى مصر . وهى وظيفة
 كبيرة . وصاحبها يعد أعظم رجل فى الدولة . وكان يلقب (بالصاحب)
 والصاحب لقب للوزير إذا كان الوزير من أرباب الأفلام . ومع هذا

وذاك فقد مات البهاء زهير فقيراً ، واضطر قبل وفاته إلى بيع كتبه وكثير من أثاث منزله .

تلك أطراف بسيطة من سيرة هذا الرجل الذى وفد على مصر فى أول شبابه . ومنذ نزلها وأقام بها وهو مفتون بحبها فتنة لا يحسبها إلا كل رجل يحب وطنه أصدق الحب .

وهذا شعره فى الهتاف بحب مصر ينطق بمصريته ، ولا يدع مجالاً للشك فى هذه النسبة . ومنه قوله :

ولم أر مصراً مثل مصر تروقى
ولا مثل ما فيها من العيش والخفض
وبعد بلادى أقالبلاد جميعها
سواء فلا أختار بعضاً على بعض

فانظر إلى البهاء زهير كيف يقسم بلاد الله قسمين : أولها بلده ووطنه مصر ، والثانى منهما غير مصر من بلاد الأرض . وكلها سواء عنده ، فلا ترقى واحدة منها إلى مرتبة الوطن ومن شعره أيضاً فى حب مصر :

سقى وادياً بين العريش وبرقة
من الغيث هطل الشآبيب هتان

وحيا النسيم الرطب عنى إذا سرى
هنالك أوطان إذا قيل أوطان

بلاد متى ما جثتها جثت جنة
لعينيك منها كلما شئت رضوان
تمثل لى الأشواق أن تراها
وحصباءها مسك يفوح وعقيان
فيا ساكنى مصر تراكم علمتمو
بأني مالى عنكمو الدهر سلوان
وما فى فؤادى موضع لسواكمو
ومن أين فيه وهو بالشوق ملان ؟

وشعر البهاء زهير قسيان :
أولها الشعر الرسمى الذى قيل فى مدح السلاطين والملوك والأمراء
وكبار رجال الدولة .
وثانيهما — الشعر التلقائى أو الذائق . ومنه الغزل ووصف
مجالس الشراب والهجاء والسخرية .
والذى يعنينا أولا هو هذا القسم الأخير . ففيه يتجلى الروح
المصرى فى شعر البهاء زهير ، ويظهر تأثره بالبيئة المصرية ، والمزاج
المصرى ، والعادات المصرية ، والخلق المصرى ،

الروح المصرى فى شعر البهاء زهير:

إن من يقرأ شعر البهاء زهير لا يصعب عليه مطلقا أن يستجلي فيه الروح المصرى . وهو روح يطالع القارىء بخصائصه ، ويدل على نفسه ، ويشرح طريقة الشاعر فى التعبير عنه .

وإذا أردنا أن نضع إصبعنا على مفتاح النور الذى يكشف لنا عن هذا الروح وجدنا ذلك المفتاح فى شيء واحد فقط هو :

شعبية البهاء زهير ومظاهرها فى شعره :

ونحنى بها قدرته على مزج نفسه بالشعب ، وحرصه على أن يكون قطعة لا تنفصل عن هذا الشعب . وليس كل الناس قادرا على شيء من ذلك . لأن (الشعبية) فى الواقع موهبة من المواهب التى يفتح الله بها على بعض الأدباء فيحسون إحساس قومهم من غير تكلف ويؤثرون تعبيراتهم وأساليبهم من غير تكلف ؛ حتى إن أحدهم لو حاول اعتزال قومه ، أو التعالى عليهم وعلى لغتهم وأساليبهم فى الحياة والتفكير لما استطاع .

ونحن نعلم أن الشعب الذى امتزج به البهاء زهير هو الشعب المصرى وأن البيئته التى عاش فيها منذ بداية شبابه إلى آخر شيخوخته هى البيئة المصرية . فلا غرابة بعد ذلك فى أن نجد شعر البهاء زهير مرآة صادقة تنعكس عليها اللغة التى يصطنعها ذلك الشعب .

ولقد عاش فى مصر فى عصر البهاء زهير شعراء كثيرون لم تكن

لهم مواهبه ولا كانت لهم شعبيته ، بل كانوا يمثلون الأرستقراطية في العلم ، وفي الفكر ، وفي النظم ، وفي النثر جميعا . ولم يستطع أحدهم أن يكون مرآة للشعب المصرى أو الأدب المصرى بقدر ما كان صدى للعالم الإسلامى ، والأدب الإسلامى .

عاش في مصر في ذلك العصر أدباء عظماء كالفاضى الفاضل ، والعماد الأصفهانى ، وابن سناء الملك ، وابن النيه المصرى ، وابن نباتة وغيرهم ، وإذا ذهبت تقرأ شعرا لأحد هؤلاء أعيانك الوصول إلى أثر البيئة المصرية ، والطبيعة المصرية ، والمزاج المصرى ، والروح المصرى .
أما البهاء زهير فلشعبيته التى تحدث عنها في الشعر مظاهر شتى منها :

السهولة :

وربما كان لجمال هذه الميزة في الشعر وجدنا رجال البديع يعتبرونها نوعا من أنواع البديع . وكان المصريون هم أول من جنح إلى هذا التفكير .

والسهولة التى امتاز بها شعر البهاء زهير ضرب من الموسيقى العذبة ، والانسباب اللطيف ، والبساطة التى هى عين الجمال الأدبى . ومن الأمثلة عليها قوله :

أنا فيما أنا فيه	وعذولى يتعب
أنا لا أصنى لما قا	ل فيرضى أو فيغضب
ياحيى ياندىمى	والىالى تهقلب
هات فيما نحن فيه	ودع العاذل يتعب

وقوله :

من اليوم تعارفنا ونطوى ما جرى منا
فلا كان ولا صار ولا قلم ولا قلنا
وإن كان ولا بد من العتب فبالحسنى
فقد قيل لنا عنكم كما قيل لكم عنا
كفى ما كان من هجر فقد ذقم وقد ذقنا
فما أحسن أن نرجع للود كما كنا

الأمثلة الشعبية في شعر البهاء زهير

ثم إن من شعبية البهاء زهير إيراد الأمثلة العامية في شعره
ودورانها فيه بكثرة دون أن يضر ذلك بالشعر نفسه . من ذلك قوله :

إياك يدري حديثا بيننا أحد
فهم يقولون : للحيطان آذان

وقوله :

من لى بنوى أشكو ذا السهاد له
فهم يقولون : إن النوم سلطان

وقوله :

تشقى ومن تشقى له غائل
كأنك الراقص فى الظلمة

وقوله :

يا قضيبا من لجين يا مليح المقلتين
كل ما يرضيك عندي فعلى رأسى وعيني

وقوله :

جئت في حاجة فعزتُ علينا ووددنا قضاءها واشتهينا
حاجة مألنا إليها سليل ولعمري لقد يعزُّ علينا^(١)

وقوله :

سمع الناس وقلنا واقتضحنا واسترحنا
بت والبدر نديمي ففعلنا وتركنا^(٢)

وقوله :

أصبحت لاشغل ولا مزرعة مذبذبا في صفقة خاسرة
وجملة الأمر وتفصيله أن صرت لا دنيا ولا آخره

وقوله :

غبت عنا فا الحبيب ما كذا يفتنا اشتهر
أنا مالى على الجفا لا ولا على البعد مُصطرِب

(١) الشاهد في قوله : لقد يعز علينا . فهو من مألوف كلماتنا في الحياة اليومية إلى الآن .

(٢) الشاهد في قوله : ففعلنا وتركنا . فذلك مما تعودنا عليه في أحاديثنا اليومية إلى الآن .

وقوله :

أرخصي منك حتى لا أرى منظر ك الوعرا
فقد صرت أرى بعد ك عن الراحة الكبرى
فما تنفع في الدنيا ولا تنفع في الآخرة
وقوله :

لى منزل إن زرتك لم تلق إلا كرمك
وإن تسلم عن به لم تلق إلا خدمك

هكذا تصفح ديوان البهاء زهير فنجد مملوءا بهذه العبارات الشعبية التي نسمعها إلى يومنا هذا عند الخاصة والعامة . وقد كان الشعراء يتأبون دائما أن ينزلوا بشعرهم إلى حيث يصطنعون أمثال هذه العبارات ولكن البهاء زهير كان فيه من خفة الروح ورحابة النفس ومرونة التعبير وصفة الشعبية أو الديموقراطية ما أعانه على الرقي بهذه التعبيرات البلدية إلى مرتبة الشعر .

ثم كان من مظاهر الشعبية المصرية في شعر البهاء زهير (كثرة الخلف) حتى لقد قال :

ووالله ما فارقكم عن ملالة ووالله ما أحتاج أنى أحلف

الغزل عند البهاء زهير

ومن هذا المعين المصرى نفسه صدر البهاء زهير في غزله الذى جاء بعيدا عن التكلف كل البعد، جاريا على طريقة حوارية تشبه طريقة عمر (١٠) الأدب المصرى

ابن أبي ربيعة . ولكنها مع ذلك طريقة تدل على البيئة المصرية
لا البيئة الحجازية .

وانظر إلى قوله :

وزائرة زارت وقد هجم الدجى
وكنت لميعاد لما مترقباً
فما راعى إلا رخيم كلامها
تقول : حبيبي قلت : أهلاً ومرحباً
فقبَّلتُ أقداماً لغيري مامشت
ووجهاً مصنوعاً عن سوى محبا
سأشكر كل الشكر لإحسان محسن
تحايل حتى زارني وتسيباً
حبيب لأجلى قد تعنَّى وزارني
وما قيمتي حتى مشى وتعذبا ١١

وانظر كذلك إلى قوله مداعباً على طريقة شعبية مألوقة :

مولاي يا قلبي المز	يز ويا حياتي الغاليه
إني لأطلب حاجه	ليست عليك بخافيه
أنسم على بقبلة	هبة وإلا عاريه
وأعيد لها لك — لا عد	مت بعينها وكما هيه
وإذا أردت زيادة	خذها ونفسي راضيه

وقد يجرى الغزل البهائي مجرى الحديث العادى بين صديقين ظريفين
كما فى قوله :

سيدى قلبى عندك	سيدى أوحشت عندك
سيدى قل لى وحدئ	فى متى تنجز وعدك ؟
أترى تذكر عهدى	مثلا أذكر عهدك ؟
أم ترى تحفظ ودى	مثلا أحفظ ودك ؟
قم بنا إن شئت عندى	أو أكن إن شئت عندك
أنا فى دارى وحدى	فتفضل أنت وحدك

ثم اسمع إلى قول البهاء زهير :

يا أعز الناس عندى وعلىّ	وحبيباً هو منى وإلىّ
ليت مولاي بحالى عالم	وبما عندى منه ولدىّ
ما له أصبح غنى معرضاً	تحت ذا الإعراض من مولاي شئ
يا حبيبى أين ما أعهد	يا ترى ماذا الذى زاد علىّ

والشاهد فى قوله (تحت ذا الإعراض من مولاي شئ) وقوله
(يا ترى ماذا الذى زاد علىّ) فهما من لغة الناس اليومية رفيعها البهاء
زهير إلى مرتبة الشعر .

السخرية عند البهاء زهير :

وكالغزل البهائي نجد كذلك السخرية فهى هجاء لا إلخاش فيه
وللاإقذاع . وإنما هى من نزاهة اللفظ بحيث تقرأه العذراء فى خدرها

فلا يقبح منها كما قلنا . بل إن هجاء هذا الشاعر المصرى فى الواقع ليس إلا ضرباً من الفكاهة المصرية والدعابة الشعبية التى تحار فى تسميتها ، فلا تجد لها غير لفظ واحد يستخدم فى أوساطنا المختلفة فى وقتنا هذا وهو لفظ « التريقة » وهى شئ غير التعريض والتندرونحوها فى الأدب العربى . فإذا نسى قوله متهكاً بامرأة :

كم ذا التصاغر والتصاى غالطت نفسك فى الحساب
لم تبق فيك بقية إلا التعلل بالحضاب
لا أقتضيك مودة رُفع الحراج عن الخراب
وماذا نسى قوله يذم عائداً عادة فى مرضه :

وعائد هو سقم لكل جسم صحيح
لا بالإشارة بىدى ولا الكلام الصريح
وليس يخرج إلا تكاد تخرج روحى
ثم ماذا تسمى قوله يذم شخصاً بالثقل :

بحق الله متعنى من وجهك بالبعد
فما تصلح للهزل ولا تصلح للجـد
فلا صبحت بالخير ولا مُسَّيتَ بالسعد

بل ماذا تسمى قوله يذم عالماً من علماء الدين :

كلما قلت استرحنا جاءنا الشيخ الإمام
فاعترانا كلنا منه انقباض واحتشام
وعلى الجملة فالك يخ ثقيل والسلام

ثم ماذا نسمى قوله في هجاء رجل ذى لحية :

وأحق ذى لحية	كبيرة منشوره
طلبت فيها وجهه	بشدة فلم أره
تباً لها من لحية	كبيرة محتوره
مضحكة ما كان قط	مثلاً لمسخوره
فلو مضى السوق بها	وزفها بالمزوره
لحصلت له مغل	ضيعة موفره

ثم ماذا نسمى قوله مداعباً صديقاً له :

لك يا صديقي بغلة	ليست تساوى خردله
تمشى فتحسبها العيو	ن على الطريق مشكّله (١)
وتخال مدبرة إذا	ما أقبلت مستعجله
مقدار خطوتها الطو	يلة حين تسرع أنملة
تهتز وهي مكانها	فكانما هي زلزلة

هذا هو نوع السخرية الذى نراه في شعر البهاء زهير . لم يخرج عن كونه مداعبات لطيفة ونكات بارعة ، وتندراً بالناس ، وتفكهاً يعتمد اعتماداً قوياً على عنصر (الشعبية) التى تميز بها الشاعر عن أقرانه . وفي هذه الأشعار وكثير غيرها مما يوجد في ديوان البهاء زهير عبارات وأساليب مصريتها أكثر من عربيّتها . والشعراء يتأبّون

(١) مشكلة من الشكاء بكسر التين وهو القيد يوضع في رجل الدابة فلا تمشى .

أن يستعملوها منذ القدم وحتى في هذه العصور ، ويعدون ذلك تبذلاً وضعفاً وإخلالاً بجمال الشعر وجمال البيان ،^(١)

والحق أن شعر البهاء زهير يجعلنا ندرك ما بلغه إسان العرب من المرونة والاستعداد للتعبير عن ألوف من دقائق العواطف التي صقلتها مدنية خلفاء صلاح الدين الزاهية .

على مثل هذا النهج سار شعراء آخرون في العصر الأيوبي منهم (جمال الدين بن مطروح) صديق البهاء زهير . وقد حاول ابن مطروح مجازاة صديقه في هذا المضمار وإن لم يبلغ منه ما بلغه .

ومن شعر ابن مطروح في المجال الشعبي الذي تقدم وصفه قوله :

سمعتها تشكى لدايتها ^(٢)	شكوى قذيب القلوب والمهجا
تقول يا داتى بليت به	وما أرى من هواه لى فرجا
ومثل ما بى به ولا عجب	هوى بقلبي وقلبه امتزجا
فهل سبيل لى زيارته	ولو ركبت البحار واللججا
فرحت لما سمعت مبتهاجاً	كشارب الراح راح مبتهاجاً

ألا ما أظرف هذه القصة ! وما أدلها على الحب الذي امتزج فيه الرجاء باليأس والشوق بالخذر ! ثم هى بعد هذا كله قطعة من الحياة المصرية الراقعة ، والتعبير عنها جاء بطريقة تتفق والروح المصرى الصميم .

(١) عبارة وردت في كتاب الأستاذ مصطفى عبد الرازق بعنوان (البهاء زهير)

(٢) الداية المريبة وليست بمعنى القابلة كما هو شائع في استعمالاتنا الحاضر .

وندع العصر الأيوبي إلى العصر المملوكي فلتلق بشاعر شعبي آخر هو :

أبو الحسين الجزار :

يحيى بن عبد العظيم من شعراء الفسطاط ، ولهؤلاء الشعراء مذهب خاص بهم يبنون فيه شعرهم على إجابة التشبيه . وأستاذهم في ذلك شاعر هاشمي يقال له (ابن حيدرة العقيلي) .

غير أن أشعار الجزار كان الشبه عظيمًا بينها وبين أشعار البهاء زهير وأصحابه ، لأن طريقتهم كانت من أسهل الطرق التي تألفها العامة ولا تنكرها الخاصة لقرب مأخذها وحسن مزعها .

وزار ابن سعيد صاحب كتاب « المغرب » مصر ونزل ضيفاً عند الجزار فأكرمه إكراماً عظيماً سرّ به ابن سعيد فانطلق يشي عليه في كتابه ثناء عظيماً - وقال :

« وترددت على القاهرة من الإسكندرية فلم تفتني مرة ضيافته التي تشرق عليها أنوار الاعتناء ويسفر حياها عن رونق البر والعطاء وهو على كونه نشأ بين ساطور ووضم^(١) ، ولم يرفع له في بيت نباهة ولا مجلس حكم علم من أحسن الناس شكلاً وأظرفهم وأحلام بياناً وأطفهم . ذو بزة تصلح للرؤساء السراة ، ومروءة لا توجد إلا عند السادة الآباء . وسلني عن ذلك فإني به خير . وهو الآن على علي - وذلك ستة وأربعين وستمائة - ممتع بالحياة أطاها الله له فيما يرضاه . ولا أعرف له رحلة

(١) الوضم الكثرة التشبيه التي يقطع الجزار عليها الاعم .

ولا خروجاً عن الديار المصرية بل اقتصر على التجول فيها من أعلاها إلى أسفلها . وله في ذلك وفي شرح ما يقاسيه في العيش شعر كثير . وهو الآن شاعر القسطاط . كما أن الزكي بن أبي الإصبع شاعر القاهرة (١) .

وما قيل في شعر البهاء زهير وابن مطروح يمكن أن يقال مثله في شعر الجزار . فهو شعر أدنى إلى السهولة من حيث اللفظ ومن حيث المعنى فضلاً عن أنه صورة من صور الحياة المصرية في تلك العصور التي تؤرخ لها . ومن شعر الجزار يسخر من العلم وطلبه :

قطعت شببتي وأضعت عمري
وقد أتعبت في الهذيان فكري
ومال أجره فيه ولا لي
إذا ما مت يوماً بعض أجر
قرأت النحو تلياناً وفهماً
إلى أن كمت عنه وضاق صدري (٢)
وفي علم العروض دخلت جهلاً
وعمت بخفتي في كل بحر
فأذكرني به التفعيل بيتاً
تضمن نصفه الشيخ المعري

(١) كتاب المغرب لابن سعيد الجزء الرابع الصفحة ١٢١

(٢) كاع عن المعنى — من باب ياع — هابه وجين عنه .

مفاعلتن مفاعلتن فعولان

حديث خرافة يا أم عمرو

وفي نفس هذه القصيدة التي نظمها في مدح برهان الدين
ابن الفقيه قوله :

ولا سبيا إذا ما كان شعري	ولإن الشعر دون علاه قدرا
ولا نحوا على الشيخ ابن بوى	لأنى ما قرأت له صحاحا
بلا علم وشاع بذاك ذكرى	وقد شاركت في لغة ونحو
وقد أقررت أنى لست أدري	وعيشك لست أدري ما طحاها
تعلم آيتين فصار مقبرى	كأنى مثل بعض الناس لما

وفي هذه الأشعار المتقدمة تتجلى لنا نفس الشاعر فإذا هو رجل
ظريف عارف بمقدار نفسه . ولعله من أجل ذلك كان محبباً من
الخاصة والعامة في عصره .

ثم إن شعبية الجزار وظرفه يظهران كذلك في أشعار له في صنوف
الطعام التي يشتهيها الناس بمصر في شهر رمضان خاصة ، ومنها الكنافة
والقطائف وأنواع أخرى من الحلوى مثل « القاهرية » و « القطارة » ،
بضم القاف و « الخشنكان » ، وقد تنزل الجزار في جميع هذه الأنواع
بطريقة شعبية لطيفة ومن ذلك على سبيل المثال :

تالله ما لثم المـراشف	كلا ولا ضم المعاطف
بألد وقعاً في حشا	ى من الكنافة والقطائف

بالصوم والإفلاس تب^١ ت عن السلافة والسوالف^(١)
حتم أمشى فى طلا ب معيشتى والرزق واقف
ومنها كذلك قوله :

سقى الله أكناف الكنافة بالقطر
وجاد عليها سكر دائم الدر
وتباً لأوقات (المخلل) إنها
تمر بلا نفع وتحسب من عمرى
ولى زوجة إن تشهى قاهرة
أقول لها ما (القاهرة) فى مصر^(٢)

وفى أشعار هذا الشاعر كذلك ما يدلنا إلى أى حد كان يتألم
من حرقة الجزارة ويود لو تركها إلى حرقة أخرى من الحرف كحرقة
الأدب ، لولا أن هذه الأخيرة لم يكن يضمن أنها تدر عليه من المال
ما يكفى معيشته . أما الحياة أو المنصب فلم يكن له تطلع ما إليهما
لأنه لم ينس قط أنه من أسرة عريقة فى الجزارة . ولولا أنه كان خفيف
الظل على الناس جميعاً لما أحبه الناس جميعاً . وفيهم الأمراء والوزراء
وذو الجاه والسلطان . وانظر إليه حيث يقول :

أقررت أنى جزار كما ذكروا
عنى فهل غير هذا القول عندهم ؟

(١) السلافة المحر . والسوالف جمع سالفة وهى رقة الحناء .

(٢) القاهرة نوع من الحلوى كما تقدم ذلك والتورية واضحة فى البيت .

فالحمم والعظم والسكين يعرفني
والخلع والقطع والساطور والوضم
والقوله :

أنا في راحة من الآمال أين من همتي بلوغ المعالي
لي عجز أراح قلبي من الهم ومن طول فكرتي في المحال
طاب عيشي والحمد لله إذ كنه ت له حامداً على كل حال
ما لباس الحرير مما أرجو به فيرجى ولا ركوب البغال
راحة السر في التخلف عن كل محل أضحي بعيد المنازل
ومع هذا وذاك فالظاهر أن أبا الحسين الجزار جرب حظه وترك
الجزارة واشتغل بالشعر يمدح به الكبراء على عادة الشعراء في زمانه .
فمجز الشعر عن أن يقوم به في حياته ، وشكا ذلك إلى مدروحيه ومنهم
الفقيه ابن نصر قائلاً له :

بك يا ابن نصر جئت أر جو نصره فانهم وبادر
وأجره من زمني الذي دارت به عليّ به النواثر
أصبحت في أمري — ولا أشكو لغير الله — حائر
والحم يقبح أن أعو د لبيعه والشعر بائر
يا ليتني لا كنت جزا رأ ولا أصبحت شاعر

من أجل ذلك لم يكن عجباً أن ترى الشاعر بعد ذلك يترك حرفة
الآدب ، ويعود إلى حرفته الأولى وهي الجزارة . وفي ذلك يقول
هذه الأبيات :

لا تلتنى ياسيدى شرف الد ين إذا ما رأيتنى قصّابا
كيف لا أشكر الجزارة ماعش مت حفاظا وأرفض الآدابا ؟
وبها أخسّست السكّاب ترجم

بنى وبالشعر كنت أرجو الكلابا

ونلاحظ أن صفات السهولة والفكاهة وإثارة المعاني القريبة من
أفهام الشعب — وهى الصفات التى امتاز بها البهاء زهير — هى نفسها
الصفات التى امتاز بها رجل كالجزار .

من ذلك قوله يصف داراً له تهدمت :

ودار خراب بها قد نزلت ولكن نزلت إلى السابعة
فلا فرق ما بين أنى أكون بها أو أكون على القارعة
تساورها هفوات النسيم قصضى بلا أذن سامعة
وأخشى بها أن أقيم الصلاة فتسجد حيطانها الراكعة
إذا ما قرأت (إذا زلزلت) خشيت بأن تقرأ (الواقعة) !

ومن شعره السهل :

يا هاجرى بلا سبب إلى متى هذا الغضب
كن كيفما شئت فما للقلب عنك منقلب
مثلك من أعتب فى الـ حب ومثل من عتب
يا مستريحاً لم أنل من حبه — إلا التعب
تالله لو ذقت الهوى ما كنت تجفو من أحب
أنكرت ما بى من جوى غالب صبرى فأنقلب

يا زمنى هل للوصا ل عودة فترتقب
مهمات أن يرجع من طيب الليالى ما ذهب
والدهر من عاداته أن يسترد ما وهب

على أن من ينظر في شعر الجزار يجد في غرضين لا ثالث لهما من أغراض الشعر . وهما الشكوى والمدح . أو بعبارة أخرى يجد أنه شعر بنى على الشكوى ودار من أجلها حول المدح .

والشاعر في هذا كله يصوغ عبارته الشعرية في سهولة كسهولة البهاء زهير ، وطريقة فنية تشبه طريقته كل الشبه . وهو بين هذا وذاك لا يبرح يعتمد في فنه الشعرى على التورية من جانب وعلى بقية الخصائص التي يمتاز بها الشعر المصرى الأصيل من جانب آخر . ومن هذه الخصائص الفكاهة . ومنها كذلك كثرة الحلف . ثم منها إثارة التراكيب الشعبية في نهاية الأمر . وإليك أمثلة أخرى من شعره توضح ما نقول :

قال يعاتب بعض أصدقائه :

عثرات الناس بالناس تُقَالُ	فإلى كم يئسنا قيل وقال
سبى أنت وهبها هفوة	صدوت منى فأين الاحتمال
بالذى عافاك من وجد به	لم يكن للصبر فى صدرى مجال
فى محياى حياء ظاهر	حين ألقاك وفى لفظى اختلال
فأعف عني إن تلجلجت فما	لى إن لم تعترف قول يقال
لا تعاقبنى على ذنب بدا	فاعتذارى عنه زور ومحال
عاقب الأعضاء منى كلها	ما خلا قلبي فما فيه احتمال !

وانظر إلى قوله أيضا :

أقسم بالله أن شوق
كن كيفما شئت فالموالى
إليك ما فوقه مزيد
لا تتساوى بها العبيد

وانظرى إلى الشكوى فى قوله :

يا أيها المولى الرئيس ومن له
أشكو لعدك جور دهر لم أزل
وأشدد ما قاسيت منه أنه
فاغفر لعبد قد أتاك وماله
بأنه يقسم والنبي وآله لا
ما بات فى ذا العبد يملك درهما
فتراه ينشد حسرة وتأسفا
جود يضاهى الغيث ساعة سكه
طول المدى غرضاً لأسهم خطبه
عن شكر فضلك قد شغلت بعته
حسنات أفعال تقوم بذنبه
أطهار أصحاب العبا وبصحبه^(١)
وكفاك أن الشعر أعظم كسبه
من همه لعدوه وبجبه

وانظر إلى هذا البيت الأخير فإن الشاعر يصرح فيه بأن هموم
الزمان هى ما تضطره دائماً إلى مدح الناس سواء منهم العدو والخبيب .
وانظر إليه يمدح جمال الدين بن مطروح من كبار شعراء الدولة
الأيونية :

أغنيقتى من بعد فقرى
وأنتقى مننا ية
أصبحت يا مولاي من
وغفرت لما أن وصا
ورفعت بعد الخفض قدرى
ل لكثرتها حمدى وشكرى
نعماك أسعد أهل عصرى
ت إلى جنابك ذنب دهرى

(١) يشير إلى ما روى عن الشيعة من أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه أتى
على فاطمة وعلى الحسن والحسين عباة وه وقال : نحن آل البيت الخ .

وأرحتني من حرقة تودي بصاحبها وتزري
ويقول في المدح أيضاً :

به انتصرت على جور الزمان وهل
يزلُّ من بات بالانصار ينتصر
حسبي اعتادي على بيت مكارمه
في الدهر يخبر عنها البدو والحضر
قوم بقول رسول الله فضلهم
في الجاهلية والإسلام مشتهر
قيس بن سعد وما أدراك جدُّهمو
إن الأصول عليها ينبت الشجر

معنى ذلك أن المدح عند أبي الحسين الجزار مصدره الشكوى وحدها ،
فهو لا يمدح إلا من يعينه على ظلم الأيام ، وهو يقسم دائماً قصيدة المدح
قسمين لا ثالث لهما :

الشكوى أحدهما والمدح ثانيهما ويقف عند هذا الحد .

ولقد أسرف الجزار في الشكاية حتى أوشك أن يكون بعض
شعره نوعاً من الشحاذة . وانظر إلى هذه الأبيات :

يا جمال الدين لي حب	ق على المولى وحرمة
وولاء	أكدته
وبملوكك هم	لا يطيق الآن كتمه
هجم البرد عليه	هجمة من بعد هجمه
لا تسل عنه فقد فص	ل هذا الفصل عظمه

وله أثر لحفاف تحت الأيام رسمه
مات بردا والذي واره ما أتقر رده
فهو إذ ينبش منه في بقايا القطر رمه

* * *

أما (التورية) فهي كثيرة في شعره . وانظر إلى قوله يخاطب هاشميا
منحه قدرا من القمح فوجده قديما :

كتبت لنا بذاك السُّبرِ برا وقصدا في الثناء وفي الثواب
فكدر صفوه الكيال حتى بقينا منه في امر عجاب
وجدناه عتيقا وارتضينا به إذ عاد وهو أبو تراب
ففي قوله (أبو تراب) تورية إذ هو كنية علي بن أبي طالب .

وانظر إلى قوله يخاطب الأمير شرف الدين يعقوب :

يا أيها المولى الذى لئدى كفيه كل الجسود منسوب
لاغروا إن أصبحت تأمر باله سبر الجليل وأنت يعقوب

أما (السخرية) فكثيرة كذلك في شعره . ومنها قوله ينم رجلا
اشتهر بالبخل :

لا يستطيع يرى رغي فما عنده في البيت يكر
قلو انه صلى وحا شاه لقال : الخبز أكبر !

ولأبي الحسين الجزار معان لطيفة في شعره نبه على بعضها ابن سعيد
الأندلسي في كتاب (المغرب في حلى المغرب) ومنها قوله :

من منصفى من معشر كثروا على وكثروا
صادقتهم وأرى الخرو ج من الصداقة يع
كلخط يسهل فى الطرو س ومحوه متعذر
وإذا أردت كشطه لكن ذاك يؤثر ١١

* * *

وأما فى العصر العثمانى فقد ظهر شعراء منهم الشيخ حسن البدرى
الحجازى ، والشيخ عبد الغنى النابلسى ، والشيخ مصطفى القيسى
الدمياطى ، وابن رضوان السيوطى المشهور بابن الصلاحى ، والشيخ
عبد الله الأدكارى ، والشيخ عبد الله الشبراوى ، وسنكتفى بالإشارة
هنا إلى البدرى الحجازى ، وابن الصلاحى ، وعبد الله الشبراوى :

حسن البدرى الحجازى :

واشتهر هذا الشاعر بتمجده الحياة الاجتماعية فى العصر الذى انتسب
إليه ، وهو العصر العثمانى . وقد أعجب به أدياء عصره إعجاباً كبيراً
واستحسنوا طريقتة فى الشعر . ومن هؤلاء الذين أعجبوا به الشيخ
الجبرقى صاحب التاريخ المعروف قال : « وله فى الشعر طريقة بديعة ،
وسليقة منيعة ، على غيره رفيعة » . وقلبا تجدد فى نظمهم حشوا أو تكملة .
وله أرجوزة فى التصوف بلغت نحو ألف وخمسمائة بيت على طريقة
(الصادح الباغم) ضمنها أمثالا ونوادر وخطابات . وله ديوان على
حروف المعجم بعنوان (باسمين تنبيه الأفكار للنافع والضار) . وله
ديوان بعنوان (لإجماع الإيلاس من الوثوق بالناس) شرح فيه حقيقة
(١١) الأدب المصرى

شرار الخليفة من الناس المنحرفة طباعهم عن طريقة تقويم القياس .
وقد استشهدت بكثير من كلامه في هذا المجموع (يريد كتابه المعروف
في التاريخ) بحسب المناسبة وفي بعض الوقائع والتراجم . وله مزدوجة
سمها (البدر السنية في الأشكال المنطقية) وختم ديوانه بأراجيز بديعة
ضمنها نصائح ونوادر وأمثالا واستغانات الخ

ثم أنى الجبرق بطائفة كبيرة من شعر الشيخ حسن البدرى الحجازى
وليك أمثلة منها : قال متهاكاً من الصوفية :

احذروا إلى التسبيح والسبحة	والصوف والعسكاز والشمة
والدلق والإبريق لا سيما	شيوخ أبليس أولى الشعرة
حوت أبليس بتعداد ما	حوت شعوراً بل بلا عدة
قد صار لبليس لهم تابعا	يقول يا للعنون والنجدة
عما حوitem علونى فما	لى عنكم فى المكر من غنية
لكم قيادى واتتيادى وما	مثلكو فى النادى أوالتدوة



بلم الافواه ينادون يا	أهل الوفا يا صاحب التوبة
يا شافى يا قطب يا رافعى	بال الرفاعى يا بنى الرفعة
يا سيدى أحمد يا أوليا	الكون عينونا على الحملة
لكنهم فى الفسق أرقى الورى	كما ترى من غير ما مرية
اتخذوا المرد مراداً لهم	تعالجوا فيه على الهلكة
فالبعد كل البعد عنهم فما	فى النحر من خير ولا خيره

وقال متهمًا من شيوخ الأزهر :

الجامع الأزهر ابتلاه	رب له العز والوجود
بكل فظ وكل قحف	عليك بالبشر لا يحدود
قطعة صخر أليس فيه	ثقل واليبس والجود ؟
عمائم كبروا وكما	قد وسعوا لكى يسودوا
وتحت آباطهم رزايا	تسعين كراسا أو يزيد
بها يميلون حيث مالوا	لأجل مال لهم تصيد
لولا مهر مات السوارى	كل عمود له عمود
تزويرهم شاع فى البرايا	سيان الاحرار والعبيد
صلوا وصاموا والليل قاموا	والقلب عن كل ذا بعيد
البعض منهم يقول لى	فى العلم بين الورى فريد
ومن مضى لى يصاهى	حتى الجوينى والجندى
وهو - لعمرى - ماريح علم	شم ولا بجته يميند
بل تلك دعوى ما قام فيها	قرينة لا ولا شهود
فالبد عنهم نخذ سبيلا	تكن مجيدا نعم المحيد
فما سلنا حتى اعتزلنا	بالقلب عنهم كما نريد

وقال أيضا يذم علماء عصره :

عن علماء عصرك لا تسألن	فإن أحوالهم ظاهرة
نفك من جانبهم منتف	فى هذه الدنيا وفى الآخرة
قوم إذا لاح لهم مطمع	تسارعوا كالكلب العاقرة

والعمل الصالح ما بينهم مهمتهم في فعله فآخرة
وقال يتتبع عادة سيئة في المجتمع :

ليتنا لم نعش إلى أن رأينا كل ذي جنة لدى الناس قطبا
عليهم به يلذون بل قد تحذوه من دون ذي العرش وبا
إذ نسوا الله قائلين فلان عن جميع الأنام يفرج كربا
وإذا مات يحملوه مزارا وله يهرعون عجا وعربا
بعضهم قبل الضريح وبعض عتب الباب قبلوه وتربا
هكذا المشركون تفعل مع أصنا

مهم تبغى بذلك قربا
كل ذا من عبي البصيرة والوئ
ل لشخص أعنى له الله قلبا

وفي نفس المعنى يقول :

متى سمع الناس في دينهم بأن الفنا مئة تتبع
وأن يأكل المرء أكل البعير ويرقص في الجمع حتى يقع
ولو كان طاوى الحشا جانعا لما زاد من طرب واستمع
وقالو سكرنا بحب الإله وما أسكر القوم إلا القصع !!
كذلك الحير إذا أخصبت تنق من ريبها والشبع !!

وقال في الحكم :

لا شيء تزرعه إلا قلعت غدا
إلا ابن آدم من يزرعه يقلعه

وما همومك ييكى غير نفسك أو
صديق صدق وجيع منك يوجعه
وأقرب الناس للإنسان عترته
بل صلّه بل دوايه ومنجمه
وراحة المرء فى دنياه عزله وصمته عن سوى ما فيه منفعه
فلا تكن عانيا يوما على أحد
إلا على حظك المنحوس طالعه
فذاك صاحبه ميتٌ وتبصره
حيّا ولكن على الحيات مضجه
ومن شعره كذلك فى الحكم :

كن جار كلب وجار الشرة اجتنب
ولو أخاك من أم يرى وأب
ما جار كلب شكا يوما بوائقه
إذا شكا غيره من وحة الوصب
وجانب الدار إن ضاقت مرافقها
والمرأة السوء لو معروفة النسب
لا تلق نفسك يوما فى الزحام فما
فى رحمة لك خير لو على الذهب

وقوله :

أخى فظناً كن واحذر الناس جملة
ولا تك مغرور الظنون السكواذب

فكم من قى يرضيك ظاهر أمره
وفى باطن يرتاغ روع الثعالب
وأنتقص خلق الله عقلا قى غدا
بقبضة أثى لعبة المتلاعب
وخير عباد الله من لازم التقى
شكور العطايا صابرا للصائب
وقال فى ذم الآقارب :

حذار حذار من قرب الآقارب
فهم صلّ الآفاعى والعقارب
أناس إن تعبت فيستريحوا
وتعروم لراحتك المتلاعب
غنيا إن تكن حسدوا وإلا
فعتك تجنبوا من كل جانب
أمن فيها الآفاعى الشهد تعطى
أم السمرات تعطيك الأراطب ؟
أم الإصلاح يصاح من غراب
أم العمران من يوم الأخاب ؟
على الحساد دائرة الدواهى
تدور بها النواعى والنواعب

وكتب على قبره قوله

أيها الآتي ضريحي	قف على قبري شوي ^(١)
واقرا القرآن عندي	ينزل الروح على
كم قبور زرت ياذا	وأنا مثلك حي
ثم مادب إليهم	بعد ذا دب إن
فتمياً لرحيل	واطو آمالك طي
لا تغرنك حياة	إنما الدنيا كوي ^(٢)
قنبره وتدبر	واقمظ من ذا أخي

ومات الشيخ حسن البدرأوى الحجازى سنة إحدى وثلاثين
ومائة وألف للهجرة .

ومن هذه الأشعار التي أتينا بها للبدرى ، نرى أنه خليف ياججاب
الجبرقى ، وخلق كذلك ياججاب الناس الذين عاشهم في زمن قبل زمن
الجبرقى. في شعره روح البهاء زهير وإن لم يبلغ مبلغه في جودة الأسلوب ،
وفي لحنه نفحة من المصرية التي شاعت في شعر البهاء زهير وإن كانت
المصرية في شعر البهاء أشيع وأسير . وهو فلتة من فلتات العصر العثماني
وهو العصر الذي حُرم من أمثاله بسبب الظروف التي أشرنا إلى بعضها
من قبل .

ولندع الشيخ حسن البدرى الحجازى لنتقل منه ، إلى :

(١) شوى لهجة عامية مصرية بمعنى (قليلا) .

(٢) النقيض هو الظل .

ابن الصلami:

وهو العالم الأديب محمد بن رضوان السيوطي المشهور بابن الصلاحى،
ولد بأسيوط ونشأ هناك . وأمه شريفة من بيت شهير ، ولما ترعرع
رحل إلى مصر وحصل العلوم وحضر دروس الشيخ محمد الحنفى
ولازمه وانتسب إليه ومال إلى فن الأدب وكتب نسخة من القاموس .

وله شعر عذب ربما ابتكر فيه ما لم يسبق إليه ، وقد أجازته الشيخ
الحنفى هذا وأثنى عليه . وله بديعة تتضمن مدح رسول الله صلى الله
عليه وسلم ذيلها بتصيدة سماها الدرة البحرية والقلادة النحرية فى مدح
خير البرية ، وهى تزيد على الثمانين بيتا . ومن شعره فى المدح :

هات لى قهوة الشفا من شفاهك
واسقنيها على غمامة جهاك
عاطنيها يا أوحـد العصر لطفـا
وبديع المـثال فى أشـباهك
يا أعز الأولـى صور البـدر شـخصـا
ليضاهيك فى البها لم يـضاهـك
عاطنيها جـهـرا شفاها ولا تخـ
ش مـلامـا فلذقـى فى شفاهك
عاطنيها ولا تدع لى حراكـا
لست أقـوى على كـال انـتـباهك

قال الجبرتي : ومطلع هذه القصيدة مأخوذ من مطلع قصيدة خمرية
للشريف أحمد بن مسعود الحسني أحد أشراف مكة : وهي :

حث قبل الصباح نجب الكئوس

ومن شعر ابن الصلاح في المدح :

نقلوا أكاذيب السلو لها جرى

سفها — وما خطر السلو بخاطري

يا ليتهم علموا بأسراري التي

أودعتها يوم النوى برأري

لله وقتنا بجرعاء الحمى

والنجم مرصود لهد الساهر

نمل أحاديث الفرام فنتجلى

منها سرور مسامع وخواطر

وندير كاسات الوداع مديدة

في شق أطواق وشق مراثر

وسوابق العبرات من دمعي ومن

شعري كعقد لآلى وجواهر

أدعو سراة الظاعنين كأنما

أرجو الوصال من الغزال النافر

لله أيام سلفن بوصله

والدهر يمثل لآمر الأمر

إن فائق طيب الزمان به فلي
 عوض بطيب حديث عبد القادر
 مولى تراه تتقيه مهابة
 من حسن آثار وطيب مآثر
 برضيك من أخلاقه وخلقه
 برياض آداب وكثر مفاخر
 وخصائل زينت بحسن فضائل
 ومحاسن راقية لعين الناظر
 الله أكبر إن آية ثمره
 كبرى ورائة كابر عن كابر
 مولاي لم أخطر مديحك خاطرا
 إلا لأنك ثابت في الحائط

وله في الغزل:

بالأشرفية شادن	ظبي الكناس له الفدا
يهدى السراة جبينه	لجبينه صبح الهدى
في عطفه هتف الصبا	وبلحظه سبيل الردى
لولا الحياء وما أرا	قب من مراقبة العدا
لتساقطت بخدوده	قبلي مسافطة الندا

وله في الغزل أيضا :

جاء داعي الحبيب يدعو لوصل
 في محل شدت على الماء ورقة

فتمتعت من سرورى وما وا
فيتُ حتى مضى وأومض برقهُ
وقال ارتجالاً فى مجلس أنس :

شاق طرفَ السرور ظرفُ الربيع
قمتلى بحسن تلك الربوع
ما ترى الزهر ضاحكاً لبكاء الـ
طل من قطره بالدموع
وغصون الرياض تخلع أثوا
ب التدانى على الندى الخليع
فانتسنا بجمع إخوان صدق
زان طبع الوفاء قدر الجميع
ياصلاحى أرح فؤادك والبس
من بشير اللقا قيصر الرجوع

الحق أن ابن الصلاحى كان فلتة أخرى من فلتات العصر العثمانى .
وشعره فى باب الغزل يدل على رقة فى حسّه ، وقوة فى فنه ، وجمال
فى لفظه ، وغزارة فى معانيه . وقد نقل الجبترى من شعره أكثر مما
نقل من شعر غيره ، وإن كان ما نقله من هذا الشعر ينحصر فى فن واحد
فتطهر فن الغزل .

ومات ابن الصلاحى فى سنة ثمانين ومائة وألف للهجرة .
أما الشاعر الثالث والآخر من شعراء هذه الحلقة فهو :

الشيخ عبد الله الشبراوى :

وهو الإمام الفقيه المحدث المتكلم الأديب الشاعر عبد الله بن محمد بن عامر الشبراوى الشافعى . ولد سنة اثنتين وتسعين وألف . وهو من بيت علم انتهت إليه رئاسة المذهب الشافعى فى حياة كبار العلماء الذين حضر عليهم .

ولم يزل يرقى فى الأحوال والأطوار ويفيد ويستفيد ، ويملى ويدرس حتى صار أعظم الأعظم جاها ومنزله فى الدولة ، وأقبل عليه الأمراء ، وهادوه بأنفس ما عندهم . وبني دارا عظيمة بركة الأزبكية قرب الجهة التى يقال لها الروبى . وكان طلبة العلم فى أيامه على جانب عظيم من الأدب وسمو الأخلاق . ومن مؤلفاته :

« كتاب مفتاح اللطاف فى مدائح الأشراف » ، و « شرح الصدر فى غزوة بدر » .

وله ديوان شعر يحتوى على غزليات مشهورة بأيدى الناس . وكانت وفاته سنة إحدى وسبعين ومائة وألف — أى قبل ابن الصلاحى بتسع سنين .

ابتعد الشيخ الشبراوى مرة فى بعض أسفاره عن مصر فقال متشوقا لها والنيل :

أعد ذكر مصر إن قلبى مولع
بمصر ومن لى أن ترى مقلتى مصرا

وكرر على سمى أحاديث نيلها
 فقد ردت الأمواج سائله نهرا
 بلاد بها مدّ السباح جناحه
 وأظهر فيها المجد آيته الكبرى
 رويدا إذا حدثتني عن ربوعها
 فتطويل أخبار الهوى لذة أخرى
 إذا صاح شحور على غصن بانة
 تذكرت فيها اللحظ والصعدة السمر
 عسى نحوها سلوى الزمان مطيقي
 وأشهد بعد الكسر من نيلها جبرا
 لقد كان لي فيها معاهد لذة
 تقضت وأبقت بعدها أنفسا حسرى

وقال في السيد عبد القادر تقيب الأشراف الذي حضر من البلاد
 الرومية وبعد أن بات ليلة واحدة وجد مذبوحا في فراشه :

أيها القوم ويحكم قد هدمتم
 بنية الله واهتمتم عباده
 وذبحتم هذا المهذب غدرا
 وقطعتم بغلظة أوراده
 ثم نحتم عليه زورا ولكن
 ذاك أمر قضى الإله نقاده

أيها النائحون مهلا فن ذا
 نال من دهره الخثون مراده
 لا تطيلوا على النقيب نجيبا
 فهو بالذبح نال أعلى سعاده
 كم نبي وصالح وولي مات قتلا ونال أجر الشهادة
 هذه سنة الأماجد قدما كحسين وسعد بن عبادة
 حاز هذا الشريف لطفاً من الله
 وسأوى في حوزة أجداده
 لوفور الأجور والرتبة العا
 يا وحسنى من وبنها وزيادة
 ياخليلى لا تأسفن وأرخ
 قدر الله قتله وأراده

٢١٧ ٥٣٥ ٦٠٦ ٣٠٤

لعل ذلك العصر كان عصر فن ومؤامرات ، وذلك فضلا عن أنه
 كان عصر ظلام وجهالات ، ولعله بسبب ذلك لم يدم للأدب وواج ، ومن
 ثم لم نستطع أن نتف بهذا العصر مثلبا وقضنا بالعصرين السابقين له .

وهكذا نجد لمدرسة البهاء زهير تلاميذ وأنابعا في العصر العثماني
 لهم بعض وقته ، وفي شعرهم مسحة من فنه . أما مدرسة البديع —
 وزعيمها القاضي الفاضل — فلها تلاميذ في العصر العثماني . ولكن

الفرق كبير بينهم وبين شعراء البديع في العصر الأيوبي والمملوكي .
وقد أتى هنا الفرق من اختلاف هذه العصور من حيث الثقافة ومن
حيث الحضارة . والمتأمل في تاريخ الفنون ومنها الشعر يرى أن هذه
الفنون تتأثر تأثرا عميقا بالحضارة التي تعيش فيها .

والآدب من بين هذه الفنون يتأثر تأثرا عميقا بالثقافة التي تحيط
به ، ومعنى ذلك باختصار أن البديع لا يوجد إلا في ظل ثقافة واسعة
ومنوعة ، وأنه يسوء في ظل ثقافة ضيقة وغير متعمقة . ومن هنا كان
البديع الذي ازدان به الأدب العباسي أو الفاطمي أو الأيوبي أو
المملوكي مخالفا للبديع الذي تكلفه الأدباء في العصر العثماني .

وإليك أيها القارئ مثلا واحدا من أمثلة البديع في العصر العثماني ،
وهذا المثل مأخوذ من مقامة للشيخ الإدكاوي موضوعها المدح . وقد
توخى فيها الإدكاوي لونا من ألوان العبث اللفظي يقوم على التصحيف
وفيه يقول في الممدوح :

قائل فأنك أعزّ حسنه جيشه كثير كبير
ساحر ساخر تجنى تحنى شائق سائق منير مبير

والعبث اللفظي هنا قائم كما قلنا على مجرد نقل اللفظ بين الحروف
فالتقطعة على (العين) في (أغر) تترجح إلى الحرف الذي يليه فيصبح
(أعز) وهكذا . وهو نوع سخيف من التصحيف ، يدل على الإفلاس
الفني لا أكثر ولا أقل .

الكتاب الثالث في فن الكتابة

الفصل الأول

الكتابة الديوانية

تنوعت أغراض الكتابة في مصر في العصور التي تؤرخ لها . فكان منها الكتابة الديوانية ، والكتابة الإخوانية ، والكتابة الشعبية أو الهزلية ، والكتب التاريخية (ومنها السير على اختلافها) .

ونريد أن نعرض لهذه الأنواع الكتابية كلها مبتدئين بمثل الرسائل الديوانية . وهنا نلاحظ ملاحظة فيها شيء من الغرابة . وخلاصتها أن الجهد الفني الذي بذله الكتاب في الرسائل الديوانية كان أكثر من الجهد الفني الذي بذله الشعراء في القصائد الشعرية .

والظاهر أن السبب في ذلك يرجع في أكثره إلى أن كاتب الرسالة لديوانية كشاعر المدح لا بد له من توخي الجزالة في اللفظ والفخامة في المعنى . وذلك بما يتفق ومكانة الممدوح وعلو منزلته بين الناس ، وخاصة إذا كان هذا الممدوح هو السلطان أو الخليفة .

والرسالة الديوانية — وخاصة في عهد الحروب الصليبية — إنما كانت توجه إلى مقام الخليفة العباسي في بغداد ، وكان يكتبها أديب بارع مثل القاضي الفاضل أو الهادي الأصفهاني في العهد الأيوبي ، أو محي الدين بن عبد الظاهر في العهد المملوكي . ومعنى ذلك أنه كان لا بد

لهذه الرسالة الديوانية من أن تتوفر فيها من القيم الفنية ما لا يمكن توفره في أى فن من الفنون الأدبية الأخرى .

ثم إن هذه الرسالة الديوانية كانت تشبه من قريب أو بعيد أنشودة النصر التي يعبر بها الكاتب عن مشاعر الجماهير ، فلا بد أن يكون تعبيراً قوياً مفعماً بالحياة . وأنت أيها القارئ حين تقف أحياناً عند لوحة فنية في معرض من المعارض تقول عنها إنها مملوءة بالحياة ، أو إنها قليلة الحظ من الحركة والحياة ، وتزنها في نفسك بهذا الميزان . وكذلك ينبغي أن تفعل بالقطعة الفنية ثرية كانت أم شعرية ، فهي لا بد أن تكون (محاكاة) دقيقة للوقف الذي تصوره . على هذا النحو كان القدماء يفهمون الأدب . وهذا المقياس ينبغي لنا دائماً أن نقيس ما خلفوه لنا من أدب . ومنه هذه الرسالة الفاضلية :

رسالة للفاضل الفاضل إلى الخليفة العباسي

يبشره فيها بفتح القدس

قال الفاضل بعد مقدمة طويلة اشتملت على دعاء طويل للخليفة تمشياً في ذلك مع التقاليد المرعية في ذلك العصر :

« كتاب الخادم هذا وقد أظفر الله بالعدو الذي تشظت قناته شقاً^(١) ، وطارت فرقه فرقاً^(٢) وفُتِلَ سيفه فصار عصاً^(٣) .

(١) تشظت تطايرت منها المظايا . والفناء الرخ . وشقفا جمع شقة وهي القطعة .

(٢) طارت فرقه فرقا — أى هربت من الفرق بفتح الراء وهو الخوف .

(٣) وفل سيفه أى كل وأصبح لافرق بينه وبين المصا .

وصَدَّعَتْ حصاته وكان الأكثر عدداً وحصى^(١) . فكلَّت حملاته وكانت قدرة الله تصرف فيه العنان بالعيان^(٢) ، عقوبةً من الله ليس لصاحب يد بها يدان . وعثرت قدمه وكانت الأرض لها حليفة . وغضَّت عيونه وكانت عيون السيوف بها كسيفة . ونام جنن سيفه وكانت يقطته تريق نطف الكرى من الجفون . وجدعت أنوف رماحه وطالما كانت شائعة بالمنى راعقة بالمتون^(٣) . وأصبحت الأرض المقدسة الطاهرة وكانت الطامث^(٤) ، والرب المعبود الواحد ، وكان عندهم الثالث ،

دخل الفاضل في موضوع الرسالة — وهو هنا وصف الحرب التي انتهت بظفر المسلمين ببית المقدس فقال :

الآن أظفر الله المسلمين بذلك العدو ، وقد تطايرت شظايا رماحه من الخوف ، وفرت جموعه من الذعر ، وكلَّت سيوفه فأصبحت كالعصى . وتناقص عدده وكان أكثر عدداً من المسلمين . ورأى المسلمون بأعينهم كيف تصرف قدرة الله تعالى في ذلك العدو ، وكيف أنزلت به من العقاب مالا يقوى على رفعه أحد من البشر ، وكيف زلزلت أقدامه وكانت ثابتة كل الثبات على الأرض ، وكيف أغمضت

(١) الحصاة الحجر الصغير لا يكسر لصلابه وصفه . والمنى شرق جيش العدو وتبدد .

(٢) عنان الدابة لجامها . والعيان بكسر العين الرؤية .

(٣) راعقة من الرعاف وهو الدم يخرج من الأنف .

(٤) المرأه الطامث هي الخائض .

عينه من الذل ، وكان شجعان المسلمين أنفسهم لا يستطيعون النظر إليها ، وكيف نام سيفه وكانت يقظته تذود عنهم النوم ، وكيف انكسر رمحهم وكان شائخاً بالأماني وراعفاً بدماء المسلمين في الحرب . وبذلك أصبحت الأرض المقدسة طاهرة من الدنس ، وأصبحت تقول بوحداية الله تعالى بعد القول بالتثليث على مذهب النصارى .

ومضى الفاضل في وصف آثار الواقعة فقال :

« فيوت الشرك مهدومة ، ونيوب الكفر مهتومة ، وطوائفه المحامية مجتمعة على تسليم البلاد الحامية ، وشجعانه المتوافية ، مذعنة يبذل المطامع الوافية لا يرون في ماء الحديد لهم عصرة ولا في فناء الأفنية لهم نصرة . وقد ضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وبذل الله مكان السيئة الحسنة . ونقل بيت عبادته من أيدي أصحاب المشأمة إلى أيدي أصحاب الميمنة » .

يقول الفاضل إذن في عبارته المتقدمة : إن بيوت المشركين أصبحت مهتومة ، وإن نيوبهم (وهي كناية عن قوتهم) أصبحت متكسرة ، وقد أجمعت جيوشهم على تسليم البلاد ، وأذعنوا لكل ماطمع المسلمين فيه من شروط أملوها عليهم حينذاك . فلم تنجهم سيوفهم ، ولا وسعتهم دورهم وأفنيتهم ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة .

أما الفن الفاضلي فقد بلغ في الفقرتين السابقتين ذروته . فانظر إلى المقابلة بين السيف والعصا ، وبين المنى والمنون ، وبين ذلة الكافرين وعزة المسلمين . ثم انظر إلى الجناس بين « فرقه » بمعنى جموعه (وفرقا) بفتح الراء بمعنى خوفاً ، وبين « العنان » بمعنى اللجام

و « الميان » بمعنى الرؤية . ثم انظر بعد كل ذلك إلى ما هو أهم من كل ذلك . انظر إلى السيوف والرماح كيف جعل الكاتب لها عيوناً تكسف بالهزيمة . وكيف جعل لهذه العيون جفوناً نامت وكانت من قبل تذود النوم عن عيون المسلمين . وكيف جعل للسيوف أنوفاً جدعت ، وكانت تشمخ دائماً بالأمل في الظفر على أولئك المسلمين وترعف بالدماء التي تقطر من أجسادهم في ميدان الحرب . ثم انظر إلى قوله كذلك : « ونيوب الكفر متهومة ، كيف جعل من الكفر شخصاً له أنياب . وهذه الأنياب أصبحت متهومة بعد الهزيمة .

ويمضي الكاتب في وصف الموقعة فيقول :

« وقدم المنجنيقات التي تتولى عقوبات الحصون عصيها وحبالها ، وأوتر لهم قسيها التي تضرب فلا تفارقها سهامها ولا يفارق سهامها نصالها . فصاخوا السور بأكتافه (١) . فإذا سهمها في ثنايا شرفاتها سواك . وقدم النصر نيراً من المنجنيق يُخلد لإخلاده إلى الأرض ويعلو علوه إلى السماء . فشجَّ مرادع أبراجها ، وأسمع صوت عجيجه (٢) فأخلى السور من السيارة . والحرب من النظارة . فأمكن السَّقاب أن يسفر الحرب الثقاب (٣) ، وأن يعيد الحجر سيرته من التراب . فتقدم إلى الصخر فضغ سرده (٤) بأنياب معوله ، وحلَّ عُقده بضربه الآخر (٥)

(١) أكتاف الطائر أجنحته وأكتاف السور جوانبه .

(٢) شجج بمعنى كسر . ومرادع السور فتحة . والمجيج الصياح والمجاج النبار .

(٣) الثقاب هو الرجل الذي يتقب السور .

(٤) السرد هو الثقب .

(٥) الآخرق الطائش .

الدال على لطافة أنمله ، وأسمع الصخرة الشريفة حينه واستغاثته إلى أن كادت ترق لمُقبله^(١) وتبرأ بعض الحجارة من بعض ، وأخذ الخراب عليها موثقاً فلن تبحر الأرض ، وفتح من السور باب سَدَّ من نجاتهم أبواباً ، وأخذ نقب في حجره قال الكافر عنده ياليتني كنت تراباً . لحيثئذ يئس الكفار من أصحاب القبور . وجاء أمر الله وغرهم بالله الغرور .

في الفقرة السابقة وصف الكاتب عمل المنجنيقات في الموقعة . فقد أخذت هذه المنجنيقات تضرب في جوانب السور . كما أخذت سهامها تتخلل شرفاته كما يتخلل السواك ثنايا الفم . وكان المنجنيق في أثناء ذلك كله يعلو في السماء حيناً ، وينخفض إلى الأرض حيناً كأنه النسر ، واستطاع المنجنيق كذلك أن يشق فتحات الأبراج التي تتخلل الأسوار وأن يجعلها تن و يعلوها الغبار . وهكذا حتى خلت الأسوار جميعها من الناس كما خلا ميدان القتال نفسه من الجند . أما النقبابون فقد استطاعوا أن يكشفوا النقاب عن هذه الحرب الزبون ، وأن يدكروا هذه الحصون حتى عادت سيرتها الأولى من الحجارة والطوب ، ثم عاد المنجنيق إلى تلك الصخور التي أمامه فطحنها بمعوله طحناً ، وما زال يضربها ضرباً حتى لم يُعد لها أثر .

وسمعت الصخرة الشريفة لتلك الصخور وأنيها واستغاثتها وحينها ، فرقت لها ، وعجبت لخرابها . وعاد النقبابون ففتحو أبواباً أخرى

(١) مقابلة موضع التقيل منه .

في السور أياست العدو من النجاة وصاح الكافر عندها واحسرتاه .
أما الفن الفاضلى في هذه الفقرة فكان كسابقه في الرفعة والدقة ،
فانظر إلى المتجنّيات كيف جعل الكاتب من سهامها مساويك تدخل
في ثنايا الشرفات الممتدة على طول السور من أوله إلى آخره . وانظر
إلى هذه المتجنّيات كيف خلقت فوق الأسوار وهبطت عليها في حركة
تشبه حركة النسر . ثم انظر إلى معاول النقاين كيف جعل منها الكاتب
أنياباً تمضغ الصخر . وانظر إلى الصخر كيف ين من وقع هذه المعاول
التي تضربه ، وكيف علا أنينه حتى سمعته الصخرة المقدسة بالمسجد الأقصى
فرثت له .

ثم انظر بعد هذا كله إلى تلك الصخور التي سحقها المعاول سحقاً
كيف تبرأ بعضها من بعض ، وإلى الخراب الذي حل بها كيف حلف
بأنه لن يبرح الأرض !

وبهذه الخطوط الأخيرة أتم لنا الفاضى الفاضل رسم لوحة رائعة
لهذه الموقعة الفاصلة التي انتصر فيها صلاح الدين على الصليبيين ،
وهي موقعة حطين ، وكان في أثناء ذلك كله يستخدم ألفاظاً قرآنية
بدجها في رسالته الديوانية فكأنها جزء من كلامه في هذه الرسالة
الديوانية .

وفي العصر المملوكى نبغ كتاب كثيرون في فن الرسائل الديوانية
وعلى رأسهم الكاتب المعروف باسم :

محي الدين بن عبد الظاهر

وهو عبد الله بن عبد الظاهر المصري . ولد سنة ٦٢٠ هـ وتوفي سنة ٦٩٢ هـ . وكان في طريقته الكتابية تليذاً مخلصاً للقاضي الفاضل . يلتزم السجع ويكلف بالطباق والمقابلات وغير ذلك من المحسنات البديعية ، وأهمها التورية . وكان محي الدين هذا رئيساً لديوان الإنشاء في عهد الظاهر بيبرس . وقيل إنه وضع كثيراً من اصطلاحات الإنشاء ، ومن النظم الديوانية التي ظل معمولاً بها في مصر والشام إلى الفتح العثماني .

نموذج من كتابته

كتب محي الدين بن عبد الظاهر عن السلطان الملك المنصور قلاوون إلى صاحب اليمن يبشره بفتح مدينة يقال لها : « صافيتا » ، قال : « فن ذلك حصن الأكراد الذي تاه بهطفه ^(١) على الممالك والحصون ، وشمخ بأنفه عن أن تمتد إلى مثله يد الحرب الزبون ^(٢) وغدا جاذباً بضبع ^(٣) الشام ، وآخذاً بمخاتق بلاد الإسلام ، وشللاً في يد البلاد ، وشجا في صدر العباد . تنقض من عشه صقور الأعداء الكاسرة ، وترتاع من سطوتها قلوب الجيوش الطائرة . وتربض بأرباضه آساد تحمي تلك

(١) عطفه بكسر العين جنبه . والمعنى أن الحصن كان يفتخر بقوة ومنعته على الحصون الأخرى .

(٢) الحرب الزبون التي يدفع المقاتلون فيها بعضهم بعضاً لكثرةهم .

(٣) ضبع الشام أي عضد الشام .

الآجام^(١) . وتُفَرَّق من قسِيَّته سهام تصمى^(٢) مفوَّقات السهام .
تعطيه الملوك الجزية عن يدوهم صاغرون . ويصطفي كرام أموالهم
وهم صابرون لا مصابرون . كم شككت منه (حماء) فله الإنصاف .
وكم خافته (معرة) وما من معرة خاف . ما زالت أيدي الممالك تمتد
إلى الله بالدعاء عليه . تشكو من جور جواره تلك الحصون والصياصي^(٣)
وتبكي بدمع نهرها من تأثير آثاره مع عصيانها وناهيك بدمع
العاصي^(٤) .

والكاتب في الفقرة السابقة يصف لنا منعة الحصن الذي فتحه
الممالك ، وهو حصن صافيتا . ويتبع في ذلك الطريقة التي عرفناها عند
القاضي الفاضل فهو يقول عنه إنه حصن من حصون الأكراد طالما اقتخر
على غيره من الحصون بمنعته وقوته ، وشمخ بأفق على الأبطال والجنود
فلم يجرؤ أحدهم أن يثير الحرب من حوله . وذلك بالرغم من أن هذا
الحصن المنيع من حصون الأكراد ظل قابضاً على الشام ، أخذاً بخناق
غيره من بلاد الإسلام ، يصيب هذه البلاد كلها بالشلل ، ويبدو وهو
شجاً في حلق أهلها طول الزمن . منه ننقّض صقور الأعداء الكاسرة
ومن سطوته ومهابته تفرج قلوب الجيوش القاهرة . وفي أرضه تقيم
أسود تحمى عرينه ، وتنبعث سهام تعلق على بقية السهام ، وتصيب حاملها

(١) الأرباض النواحي . والآجام جمع الأجمة وهي الغاية .

(٢) تصمي تميئت .

(٣) الصياصي الحصون المنبئة .

(٤) العاصي اسم نهر من أنهار سورية تقع عليه جملة مدن منها حمّاه وغيرها

بالموت الزؤام . الملوك تدفع له الجزية عن يد وهم صاغرون .
وأصحاب هذا الحصن يختارون من أموال هؤلاء الملوك أكرمها
وأحسنها ، ويقتصبونها من أولئك الملوك وهم صابرون ، لا باختيارهم
ولكن رغم أنوفهم . أما البلاد الواقعة بالقرب من هذا الحصن المنيع
فطالما شكت منه الجور والظلم . فهذه (حماه) تقول إنها لم تذق معة طعم
العدل أو الراحة . وهذه (المعرة) لم تجد من العار عليها أن تظهر
خوفها من جوارده . وهكذا أجمعت المدن كلها على كراهيته والدعاء
عليه ، رغم أنها من المدن المنيعة ، ذات الحصون القوية المريعة . وهي
مع عصيانها وتمردا تبكى بدمع كالنهر من شدة تأثرها منه . وما ظنك
بدموع الغيظ من العدو .. الخ ،

أما الفن البديعي الذي يطلع علينا من ثنايا هذا الجزء من أجزاء
الرسالة فهو — كما سبق أن قلنا — يذكرنا دائماً بفن القاضي الفاضل .
حرص على السجع من أول العبارة إلى آخرها . وميل إلى
(التشخيص) أو التحدث إلى الجمادات على أنها أشخاص تشعر وتحس ،
وتأتى من السلوك ما يأتى به الشخص . فهذا الحصن الذى يصفه
الكاتب له جنب يميل به من الفخر ، وله أنف يشمخ به من الدخول فى
الحرب ، وله يد يقبض بها على الشام ، ويمسك بها فى خناق الإسلام .
بل إن الحصن ليشبه ملكا كبير السطوة تأتى إليه الملوك لدفع الجزية
وهم خاضعون ، ويختار من أموال أولئك الملوك ما يريد ، ويدع لهم
مالا يريد . ثم إن هذا الحصن لا يقف به الأمر عند هذا الحد . بل إنه
يعتبر مصدر خوف دائم لجميع البلاد والحصون المجاورة . فهذه (حماه)

لا تستطيع أن تحمي نفسها من جورهِ ، وهذه (المعرة) لا تجد من المعرة عليها أن تظهر الخوف منه . وفي هذه العبارة الأخيرة (جناس) بالاشتقاق — وهو جناس تام بين (المعرة) اسماً لبلد (والمعرة) مصدراً ميمياً من العار .

ثم انظر إلى (التورية) البليغة في قوله (وناهيك بمدمع العاصي) . فالعاصي هنا لفظ أريد به معنيان : أحدهما قريب وهو اسم النهر المعروف في سورية . والآخر بعيد وهو اسم للعاصي ضد المطيع أو الخاضع .

ونعود إلى رسالة محي الدين بن عبد الظاهر فراه يقول بعد ذلك :
« حتى نبّه الله الحافظ سيوف الإسلام من جفونها ، ووفى النصرة ما وجب من ديونها . وذاك بأنا قصدنا فسيح رُبْعهِ ، ونزلنا ونازلنا خمسيّ صُفْعَهُ ، وختمنا بنضالنا على قلبه وسمعه ، وله مدن حوله خمس هو كالراحة وهي كالأنامل ، وتكاد بروحه تُرى كالمطايا المقطرة (١) وهي فيها بمنزلة الزوامل (٢) . ما خشيمنّا به حتى استبحنا كخميّ تلك المدائن المسكنى عنها بالأرباض . وأسحنا بساحاتها بجرأ من الحديد ما اندفع حتى فاض . وأخذنا الثقوب في أسوار لا تُسْقِض ولا ينقُضُ بنيانها المرصوص ، ولا تقرأ المعاول ما لحواتم أبراجها من نقوش الفصوص . ونصبنا عليها عدة مجانيق حملت في شواهد الجبال على

(١) المطايا المقطرة : الإبل التي يتبع بعضها بعضاً كأنها قطار .

(٢) الزوامل جمع زاملة وهي الدابة التي يحمل عليها كالإبل وغيرها .

رءوس الأبطال . فتغيّطت السمهرية^(١) أن الذي تقوم به هذه تلك به لا تقوم ، وإن منها إلاله من الأيدي والرءوس مقام معلوم . وصار يرى بها كل كى مختلس ، وأروع منتس^(٢) إلى أن جثت أسوارها على الركب ، وكانت سهام بجانيقه تميل من العُجب فصارت تميد من العجب .

في الفقرة السابقة يحكى الكاتب قصة النصر والغلبة على هذا الحصن فيقول : إن سيوف الإسلام ماكدت تصحو من نومها وتخرج من أعينها حتى جاءها النصر الذي وعدها الله به . ذلك لأنه ماكد جنودنا يصلون بجمعهم إلى ربوع هذا الحصن الفسيحة حتى نزلوها وصارعوها وختموا بسيوفهم على قلبها وسمعها .

ثم وصف الكاتب هذا الحصن كما رآه جند المالك فقال :

وحول هذا الحصن مدن خمس تتصل به كما تتصل الأصابع الخمس براحة الكف، وله أبراج كثيرة متقاربة يلحق بعضها ببعض كما تتلاحق الإبل في القافلة الواحدة، وتسير هذه الإبل تباعا خلف الناقة المتقدمة .

ثم أتى الجند المالك إلى هذا الحصن فاستباحوا حماه ، وأسألوا به نهرا من الحديد ، وأخذوا يثقبون أسواره وإن كانت أسواره تعز على الثقب أو النقب ، وكانت المعاول تعمل في نقب هذه الأبراج العالية بسرعة بالغة فلم تتمكن من النظر فيما عليها من نقوش . أما المجانيق فكان

(١) السمهرية : الرماح .

(٢) منتس من نهسته الحية مثل نهشته وزنا ومعنى .

لها دور كبير وخطير . فقد نصبت على رموس الجبال ففارت منها الرماح والسيوف ، واستيقنت من نفسها العجز عن أن تقوم بما تقوم به هذه المتجنيفات من جلائل الأعمال ، وعرفت هذه الرماح والسيوف مكانها من ميدان القتال ، وأن لها عملا لا تستطيع أن تتناول به على المجانيق بحال من الأحوال .

وهذه المجانيق نصيب من جنود الأعداء كل يقظ يتحين الفرص ، وكل نهم يحاول بذكائه أن ينتهز وقتا يكون فيه المالك غافلين . ومازال أبطالنا على هذه الحال من القتال حتى وقعت الأسوار وكأنها جشت على ركبها من الخضوع ، ومالت رماحها وسيوفها ومجانيقها من العجب والدهش بعد أن كانت تميل من الزهو والمرح .

وأما الفن في هذه الفقرة السابقة ففضلا عن اعتماده على التثخيص فإنه يعتمد كذلك على التجنيس كما في قول (أسحنا بساحاتها) و (نزلنا ونازلنا) و (تسمقض وينقَض) و (العُجب والعَجَب) وفي العبارة من الصور البيانية الرائعة مالا يخفى كذلك على القارئ . ومنها :

صورة السيوف لها ألحاظ تستيقظ من جفونها . وصورة الحصن وحوله مدن خمس تتصل به كاتصال الأصابع الخمس براحة الكف . وصورة الأبراج المتلاحقة كتلاحق الإبل في القافلة . وصورة المعاول لا تستطيع أن تقرأ ما على خواتم الأبراج وفصوصها من الكتابة . وصورة الرماح وهي تغار من المجانيق كل هذه الغيرة . ثم صورة الأسوار

والأبراج وهى تجثو على ركبها وتبدى عجبها بعد أن كانت تبدى عجبها الخ .

وكل ذلك على مذهب فاضل فى الكتابة لا يحيد عنه الكاتب ولا يؤثر عليه مذهباً آخر ، أو يزواج بينهما بطريقة من الطرق .

هذه نماذج من الرسائل الديوانية التى خلفتها لنا تلك العصور التى نؤرخ لها . كتبت فى إبان الحروب الصليبية وهى الحروب التى استغرقت حياة الدولة الأيوبية وجزءاً غير قليل من دولة المماليك البحرية .

أما فى العصر العثمانى فلم تكن هناك بواعث قوية لإجادة الكتابة ، وكان سلاطين آل عثمان لا يفهمون العربية ، وكان ذلك أدعى للكتاب لى لا يفكر أحدهم فى كتابة الرسائل الديوانية بهذه الطريقة أو تلك من طرق الكتابة العربية المعروفة . ومن ثم خلا العصر العثمانى كله من رسالة واحدة من مثل هذه الرسائل .

الفصل الثاني

الكتابة الهزلية

نقصد بالكتابة الهزلية كل ما صدر عن الكتاب والأدباء في ذلك الوقت من الكتب الفكاهية والآثار الهزلية التي يتلهى بها الخاصة والعامة ، ويتسلون بها كما تنسلى نحن في أيامنا هذه بقراءة بعض الصحف أو المجلات التي من هذا النوع .

ومعلوم أن هذه الكتب كثيرا ما كان يلجأ كتابها ومؤلفوها إلى اصطناع العامية بدل العربية وذلك حتى يتوفر لها الطابع المحلي الذي لاغنى عنه في مثل هذه الكتب أو القصص .

وليس عندنا من الأمثلة على هذه الكتب الهزلية منسوباً إلى تلك الفترة التي نؤرخ لها غير طائفة يسيرة من الكتب أهمها ما يلي :

الأول : كتاب الفاشوش في حكم قراقوش لابن عماتى .

والثانى : كتاب رسائل الوهرانى لمؤلفه الوهرانى .

والثالث : كتاب د هز الفخوف في شرح قصيدة أبى شادوف ،
ليوسف الشربيني .

والكتابان الأولان منسوبان إلى العصر الأيوبي . وأما الكتاب الأخير فآثر من آثار العصر العثماني .

١ — كتاب الفاشوش في حكم قراقوش

مؤلف الكتاب : هو الأسعد بن عماتى . انحدر من أسرة قبطية من أعرق أسر الصعيد . وكان ميلاده حوالى سنة ٤٤٤ هـ للهجرة بمدينة أسيوط .

وعماتى (بتشديد الميم الثانية) اسم لجده الرابع . وقد سمي ذلك الجد بهذا الاسم لحادثة صحيحة ذكرها التاريخ . هى أن جماعة كبيرة حدثت بمصر عقب انخفاص النيل ، عزت فيها الأقوات ؛ حتى لم يجد الناس ما يأكلونه غير القبط والكلاب . وكان (عماتى) فى أول هذه الجماعة من كبار الأغنياء ، ومن يملكون أقواتا كثيرة ، فكان الأطفال الصغار بالمدينة يذهبون إلى بيته ، ويقفون صفوفاً هناك ، ويصيحون بصاحب البيت : عماتى ! عماتى ! يريدون : أى ! أى ! فيخرج الرجل إليهم ويوزع عليهم الأقوات ولا يتركهم حتى يشعروا بالشبع .

وكان عماتى هذا فوق كرمه وعطفه رجلاً بارزاً فى المجتمع المصرى . فقد تولى بعض المناصب العالية فى الدولة الفاطمية . وأما والد الكاتب نفسه فاسمه (الخطير) كان على رأس ديوان الجيش بمصر فى العصر الفاطمى . وفى أيام صلاح الدين الأيوبي أعلن إسلامه ، وتبعه أولاده فى ذلك . فسر بهم صلاح الدين وعينهم فى مناصب كبيرة .

أما (الأسعد) بن مئان وهو واضع هذا الكتاب الذى نحن بصددہ الآن ، فقد خلف أباه (المهذب) على ديوان الجيش ، وبقي رئيسا له مدة طويلة . ثم أضيف إليه فى أيام صلاح الدين وابنه العزيز ديوان المال . وبقي رئيسا له مدة كبيرة .

واشتهر الأسعد بالأدب وتقرب من زعيم الحركة الأدبية فى زمانه وهو القاضى الفاضل . وكان هذا يحبه ويطلق عليه اسم « بلبل المجلس » .

وبقى الأسعد على هذه المنزلة الرفيعة فى عالم الحكم وعالم الأدب حتى حدث حادث خطير فى عهد الدولة الأيوبية . وهو انتقال الدولة من أيدي أولاد صلاح الدين إلى أيدي أولاد أخيه الملك العادل أبى بكر ابن أيوب . وإذ ذاك تبدلت الحال غير الحال وأصبح الأمر كله فى يد وزير آخر غير القاضى الفاضل . وهذا الوزير الجديد الذى حل محله هو (صفى الدين بن شكر) . وكانت بينه وبين الأسعد بن مئان إحسان وبغضاء . فلما جلس (ابن شكر) فى دست الوزارة فكر فى الانتقام لنفسه من الأسعد بن مئان . فنسكه نكبة هائلة وصادر أمواله الكثيرة وعلقه على باب داره بمصر على ظهر الطريق إحسدى عشرة مرة فى يوم واحد !!

ومات الأسعد بن مئان فى حلب سنة ٦٠٦ للهجرة ودفن بظاهرها . ندرك مما تقدم أن الأسعد هذا نشأ فى بيت غنى وجاه . وأن أسرته كانت من أشهر أسر الصعيد فى مصر الفاطمية . وأنها دخلت الإسلام على يد صلاح الدين الأيوبي ، فزادها الإسلام قوة على قوة ، وتعرض الأسعد بسبب ذلك لحسد الحاسدين ونقمة الناقمين .

كتاب الفاشوش :

أما كتاب (الفاشوش في حكم قراقوش) فهو عبارة عن حكايات صغيرة وضعها الكاتب للتيل من شخصية كبيرة من شخصيات العصر الأيوبي — هي شخصية بهاء الدين قراقوش ، ذى السيرة المعروفة في تاريخنا المصرى الوسيط . وسنأتى على أطراف من هذه السيرة بعد أن نفرغ من عرض الكتاب الذى وضع فى التشهير بها والسخرية منها .

افتتح ابن ممانى كتابه هذا بقوله :

« لئننى لما رأيت عقل بهاء الدين قراقوش مخزّمة فاشوش ^(١) قد أ تلف الأمة ، والله يكشف عنهم كل غمة . لا يقتدى بعالم ، ولا يعرف المظلوم من الظالم . الشكّية عنده لمن سبق ولا يهتدى لمن صدق . ولا يقدر أحد من عظم منزلته على أن يردّ كلمته . يشاط اشتياط الشيطان ويحكم حكما ما أنزل الله به من سلطان . صنعت هذا الكتاب لصلاح الدين عسى أن يريح منه المسلمين . ثم ساق الكاتب اثنتين وعشرين حكاية منها على سبيل المثال :

(١) الخزمة هي الخزمة . والفاشوش الأحمق أو الحق نفسه . والمضى أن عقل قراقوش لا يمتوى على أكثر من الحق والنبأ الخ .

الحكاية الأولى

كان قراقوش رجلاً صقلياً يميل إلى البيض ويكره السود . واضطرته الظروف في يوم ما إلى الحكم بين امرأة حجازية ، وجارية لها تركية . وكانت هذه أول مرة يحكم فيها .

قالت الحجازية لقراقوش :

إن هذه جاريتي قد أساءت الأدب عليّ . فنظر قراقوش إلى بياض الجارية التركية وسواد الحجازية وقال للحجازية .

ويك - أخلق الله جارية تركية لجارية سوداء حجازية ! ما أنا بأحمق أو مغفل . يا غلبان : ودوا هذه الحجازية الحجرة !

ومكشت الحجازية شهراً . وما لبثت أن عادت تقول :
إنتي قد أعنتها لوجه الله تعالى !

فقال لها قراقوش :

يا سبحان الله ! إنها هي التي تعتقك فإنك أنت جاريتها وإن أرادت أن تبيعك فإنها تبيعك . وإن أرادت أن تعتقك فإنها تعتقك .

فقال الحجازية للتركية :

اعلمي معي مثل ما عملت معك .

قالت التركية :

وما تريد مني ؟

قالت الحجازية :

اذهبي إلى قراقوش وقولى له : إنك تعتقينى لوجه الله تعالى .
فذهبت التركية إلى قراقوش وقالت له : إتنى عتقت سيدتى الحجازية
لوجه الله تعالى :
فقال قراقوش : جزاك الله خيراً . وخرجت الحجازية من السجن .

الحكاية الثانية

جاء إلى قراقوش ثلاثة رجال . أحدهم أجروود ليس له لحية ولا
شارب . والآخران لكل منهما لحية وشارب . وقد تعدى الأجروود على كل
منهما ونسف ذقنه من جذورها . فذهب الرجلان إلى قراقوش وقالوا له :
« يا مولانا بهاء الدين . خذ لنا حقنا من هذا الأجروود . فقد نسف
ذقوتنا ومزق ثيابنا . فنظر قراقوش إلى الأجروود وقال لصاحبيه : ويلكم
تتفم ذقن هذا الصبي . وجهتم تشتكون إلى . يا غلمان : ودُّوهما إلى
الحبس ، ولا تخرجهما حتى تطلع ذقن هذا الصبي !

الحكاية الثالثة

قيل إن قراقوش سابق رجلا بفرس له . فسبقه الرجل بفرسه .
فحلف قراقوش أنه لا يعلف فرسه ثلاثة أيام . فقال له السابق :
يا مولاي أخشى أن يموت الفرس !
فقال قراقوش :
احلف لى أنك إذا علفته يا هذا لا تعلبه أتتى دريت بذلك .
فحلف له الرجل وأعطى العلف للفرس !

الحكاية الرابعة

قيل إن غلاماً لقراقوش كان يشتغل (ركاب دار) أى صاحب الركاب . وإن هذا الغلام قتل نفسه . فقال قراقوش : اشتقوه ! فقيل له : إنه حذادك الذى ينعل لك الفرس . فإن شقته خسرته ولم تجد غيره . فنظر قراقوش ناحية بابه فوجد رجلاً قفاصاً (أى صانع أقفاص) . فقال : ليس لنا بهذا القفاص حاجة . فلما أتوه به قال : اشتقوا القفاص . وسيبوا الركاب دار الحذاد لكى ينعل لنا الفرس !

الحكاية الخامسة

حكى عن قراقوش أنه نشر قيمه . فوقع القميص من على الجبل . فلما بلغه ذلك تصدق بألف درهم وقال : الحمد لله - لو كنت لابسا هذا القميص وقت وقوعه لانكسرت !

الحكاية السادسة

حكى أن شخصاً شكاً إلى الأمير بهاء الدين قراقوش بماطلة غريمه فذهب المدين إلى الأمير وقال له : يا مولانا - إني رجل فقير . وكلما حاولت أن أحصل للدائن على شيء لم أجده : فإذا صرفت هذا الشيء جاء الدائن وطلبني . فقال قراقوش :

احبسوا صاحب الحق حتى يصير المديون إذا حصل على شيء يحدد
لصاحب الحق موضعاً معلوماً يذهب إليه فيه ويدفع الحق .
فقال صاحب الحق :
تركت أجرى على الله . ومضى !

الحكاية السابعة

حكى أن جماعة من الفلاحين جاءوا إلى قراقوش . وشكوا إليه
خراج القطن وقالوا له : يامولانا السلطان : البرد شوش على القطن
هذه السنة . وأنت تفرج عنا وتساحننا من بعض المال .
فكان من جوابه لهم بعد سكوت طويل :

لأى شيء أسأح في بعض المال ؟

لما رأيت البرد اشتد كان عليكم أن تزرعوا مع القطن صوف لاجل
ما يذفيه ! ولكنكم استهتم بالحكومة والزراعة . ولم تفتحوا أعينكم
لخدمة أستاذكم . أين المشاعلى يضرب أعناق الجميع !
فلم يقدر أحد من جلسائه أن ينقم عليه ذلك !

* * *

تلك أمثلة من حكايات ابن عماتى التى اخترعها اختراعاً ليضحك الناس
بها من عقل الأمير بهاء الدين قراقوش ، وليصوره لهم بصورة الرجل
المنحون أو المعتوه أو الخبول أو الشاذ فى سلوكه وتصرفاته إلى الحد الذى

لا يستطيع التفرقة معه بين الحق والباطل ، ولا بين الأبيض والأسود ،
ولا بين المظلوم والظالم ، ولا بين النافع والضار ، ولا بين الجائز من
الأمور وغير الجائز منها .

ومن سخر الكاتب بهذه الطريقة ؟

سخر الكاتب بهذه الطريقة من أعظم شخصية عرفها العصر
الأيوبي . وهى شخصية :

الأصمعيه الدين قراقرس

وهو الرجل الذى خدم فى بلاط عماد الدين . وكان حارس العصر
الفاطمى فى أول عهد السلطان صلاح الدين . وكان واحدا من رجالات
الدولة الأيوبية الذين اعتمدت عليهم هذه الدولة فى كثير من أعمالها
الحالدة . ومنها المنشآت الضخمة التى احتاج إليها السلطان صلاح الدين
الأيوبى مثل (قلعة الجبل) و (قلعة المقس) وغيرهما من القلاع
التي أصبحت جزءا من سور كبير كان يحيط بمدينة القاهرة . وكان
السلطان بحاجة شديدة إليه فى الدفاع عن مصر ضد غارات الفرنج
فى أثناء الحروب الصليبية المعروفة فى التاريخ الوسيط .

وقلعة الجبل هى التى سكنها صلاح الدين وأولاده من بعده واتخذوا
منها مقرا لدواوين الحكومة وبقيت كذلك إلى أن جاء محمد على
الكبير فاتخذ منها كذلك مقرا لدواوينه الكثيرة . ثم لم يكن إلا
فى عهد إسماعيل أن انتقلت دور الحكومة من قلعة الجبل إلى دور
أخرى فى وسط مدينة القاهرة .

وقراقوش هو الذى حوى عرش العزيز ابن السلطان صلاح الدين وأنتذه من فتنة كبيرة كادت تودى بملكه .

وقراقوش هو الذى أصبح فيما بعد وصيا على عرش المنصور بن العزيز الذى مر ذكره . ولم يجد العزيز فى دولته رجلا أولى منه بهذا المنصب الكبير ولا أشجع ولا أقدر منه على القيام بهذه المهمة .

فانظر إلى رجل هذا شأنه وتلك سيرته كيف أصبح له ذكر سىء فى التاريخ . واسأل من المسئول عن كل ذلك . نجد أنه الأدب . فما أقدر الأدباء فى كل زمان ومكان على أن يقلبوا الحق باطلا والباطل حقا . وكم فى تاريخ البشر من رجال عظماء أهلهم الأدب ونهض بغيرهم عن لا يدانونهم فى العظمة الادبية أو العظمة الخلقية أو العظمة الحربية . ولقد تنوعت طرق السخرية عند الخاصة والعامة ولكن الفرق عظيم بين طرق هؤلاء وأولئك .

ولأن الناظر فى هذه الحكايات الصغيرة التى اشتمل عليها كتاب ابن ماقى يرى لأول وهلة أنها شبيهة بنوادى الحقى والمغفلين ، وهى النوادر التى غصت بها كتب الأدب العربى . ومن ثم فأدب ابن ماقى هو من هذا الضرب المسمى فى فن السخرية باسم « الهزل » أو « الفكاهة » ، والذى لا يصدر فى الغالب إلا عن العامة من الناس الذين لاهم لهم إلا تزجية أوقات الفراغ .

ونظرة أخرى إلى كتاب الفاشوش تدلنا كذلك على أن هذه النوادر الصغيرة لم تكن من محفوظ العامة قبل أن يظهر هذا الكتاب ، وإنما

هى من تأليف ابن ممتى لغرض معين هدف إليه الكاتب؛ وهو النيل من شخصية رجل كبير لا يستطيع الناس النيل منه؛ وهو بهاء الدين قراقوش أو التشنيع على هذا الرجل وتشويه سمعته والعبث بحقيقته ومسوخ صورته فى أذهان الخاصة والعامة على السواء . ومن هنا كانت حكايات ابن ممتى «سخرية» تعجب الخاصة فضلا عن كونها «هزلا» و«مزاحا» يعجب العامة^(١) .

* * *

رسائل الوهرانى

الوهرانى هو عبد الله محمد الوهرانى (نسبة إلى وهران فى بلاد المغرب) أحد الفضلاء الظرفاء . قدم الديار المصرية فى أيام صلاح الدين الأيوبي . فلما دخل البلاد ورأى فيها القاضى الفاضل ، والعماد الأصمهانى وابن سناء الملك وغيرهم من رجال تلك الحلبة علم من نفسه أنه ليس من طبقتهم ولا تتفق سلعته مع وجودهم . فعدل عن طريق الجد وسلك طريق الهزل . وكتب رسائله المشهورة ، وتداولها الناس وطالعوا فيها خفة روحه ورقة حاشيته وتمايم ظرفه . ويظهر أن المغاربة الذين منهم الوهرانى كانوا يلقون الإكرام من جانب الخلفاء الفاطميين الذين عاملوا بنى جنسهم من المغاربة معاملة ممتازة . ولذا حقد المصريون عليهم بعد زوال العهد الفاطمى ، وطفقوا يتكلمون بهم فى العصر الأيوبي ويسرقون فى الضحك منهم حينذاك . ومن ذلك أن أهل مصر كانوا إذا

(١) للدؤلف كتاب باسم (الفاشوش فى حكم قراقوش) فليتمسه من أراد الزيادة .

وصفوا رجلا بكثرة الكلام مع التكلف والادعاء والسفه والغلظة
والغباء سموه « بالمعربي » . ١٠

وفد الهراني إلى مصر في طلب وظيفة من الوظائف بديوان
الإنشاء . فحبل بينه وبين ذلك . فطفق من جانبه يتهكم بعلماء مصر
وقضاتها وفقهائها وكتابها وشعرائها وبعض وزرائها ، حتى لكان
الغرض الأول من كل ذلك هو أن يخافه هؤلاء ، ويحاولوا إسكاته
بوظيفة من تلك الوظائف !

نموذج من رسائل الهراني

كتب الهراني على لسان بغلة إلى الأمير عز الدين موسك أحد أمراء
الدولة الأيوبية ، وإليه ينسب شارع الموسيقى المشهور بمدينة القاهرة :

بسم الله الرحمن الرحيم

المملوكة (ربحانة) بغلة الهراني تقبل الأرض بين يدي المولى
عز الدين حسام أمير المؤمنين . نجاه الله من حر السعير ، وعطر
بذكرة قوافل العير ، ورزقه من القرط والتبن والشعير وسق^(١) مائة
ألف بعير . واستجاب فيه صالح الأدعية من الجهم الغفير ، من الخيل
والبغال والخير . وينهى ما تقاسيه من مواصلة السير وسوء القيام ، والتعب
في الليل والدواب نيام . فقد أشرفت بملوكته على التلف ، وصاحبها
لا يحتمل الكلف ، ولا يوقن بالخلف . ولا يحلّ به البلاء العظيم ،
إلا في وقت حاجتهم إلى القضم . لأنه في بيته مثل المسك العبير

(١) وسق يسكون السين بمعنى حولة أو زنة أو سعة

والإطريف^(١) الكبير . أقل من الأمانة في الإقباط ، والعقل في رأس قاضى سنباط . فشعره أبعد من الشعرى العَبُور^(٢) . لا وصول إليه ولا عبور . وقرطه أعز من قرط مارية . لا يخرج به يسع ولا هبة ولا عارية . والتبن أحب إليه من الابن . والجلبان^(٣) أعز من دهن البان . والقضيم بمنزلة الدر النظيم والقضبَّة أجمل من سبائك الفضة . وأما الفول فدونه ألف باب مقفول . فأيون عليه أن يعلف الدواب إلا بعيون الآداب ، والفقه اللباب ، والسؤال والجواب ، وما عند الله من الثواب .

ومعلوم يا سيدى أن البهائم لا توصف بالعلوم ، ولا تعيش بسماع العلوم . ولا تطرب إلى شعر أبى تمام . ولا تعرف الحارث بن همام . ولا سيما البغال التى تشتغل فى جميع الأشغال . شبكة من القصيل أحب إليها من كتاب التحصيل . وقيمة من الدريس أشهى إليها من فقه محمد بن إدريس . ولو أكل البغل كتاب المقامات مات . فإن لم يجد إلا كتاب الرضاع ضاع . ولو قيل له أنت هالك ما لم تأكل موطأ ابن مالك ما قبل ذلك . وكذلك الجمل لا يتغذى بأبيات الجمل . وحزمة من الهكلا أحب إليه من شعر أبى العلا . وليس عنده بطيب شعر أبى الطيب . وأما الخيل فلا تطرب إلا بسماع الكيكل . وإذا أكلت كتاب

(١) الإطريف دواء من الأدوية المذكورة فى تذكره داود وهو نوعان صغير وكبير . ولكل منهما فائدتى فى علاج الأمراض .

(٢) اسم نجم فى السماء .

(٣) نوع من الطف تأكله البهائم

الذي لم يأت في النهار قبل الليل . والويل لها ثم الويل . ولا تستغنى
الأكاديش عن الخشيش بكل ما في الحامسة من شعر أبي الحريش . وإذا
أطعمت الحمار شعر ابن عمار ، حل به الدمار . وأصبح مغفوخا
كالطبل على باب الإصطبل .

وبعد هذا كله قد راح صاحبها إلى العلاف ، وعرض عليه مسائل
الخلاف . وطلب من تبنيه خمس قفاف . فقام إليه بالخفاف . فخطابه
بالتعير ، وقرأ عليه آية العير ، وطلب منه ويبة شعير . فحمل على
عياله ألف بعير . فانصرف الشيخ منكسر القلب ، مغتاظا من الثلب ،
وهو أنحس من ابن بنت الكلب ، والتفت إلى المسكينة وقد سلبه
الغيظ ثوب السكينة . وقال لها : إن شئت أن تكدي فكدي .
لا ذقت شعيرا مادمت عندي ا

فبقيت المملوكة حائرة ، لا قائمة ولا سائرة فقال لها العلاف :

لا تجزعي من جباله . ولا تلتني على سباله . ولا تنظري إلى نفقته ،
ولا يكن عندك أحس من عنقفته . هذا الأمير عز الدين ، سيف
المجاهدين ، أئدى من النعام ، وأمضى من الحسام ، وأهوى من البدر
ليلة النعام ، يرثى للحروب ، ويفتخر عن المكروب ، وهو نبي بني
أيوب . لا يرد قائلا ، ولا يخيب سائلا .

فلما سمعت المملوكة هذا الكلام جذبت الزمام ، ورفعت الغلام ،
وقطعت اللجام ، وشقت الزمام ، حتى طرحت خدها على الأقدام .
ورأيك العالی والسلام .

نموذج آخر من رسائل الوهراني

كتب الوهراني ينهكم رجال الدين وبكثرة ما يصلون ويأكلون
في رمضان فقال :

« .. كلما ذكر الخادم تلك المواد الحصرية وما يجري عليها من
الخواطر المصيبة ، علم أن التخلف عنها هو المصيبة .

ولكنه إذا ذكر ما يأتي بعدها من القيام والقعود والركوع
والسجود علم أن أجره ما يأكله في تلك الولاية نحو من عشرين تسليمة .
كل لقمة بنقمة . ما تحصل له الشبعة إلا بأربعين ركعة . فتكون الدعوة
عليه ، والحضور في الشرطة أحب إليه !

فزهّد الخادم حينئذ في الوصول ، وقنع بالمحصل . إذ ليس له من
الدين ، ولا قوة اليقين ، ما يترك معه الراحة تحت المراويح إلى القيام
بسنة التراويح . لأنه في ذلك على رأى القاضى النجيب الذى إذا دُعِيَ
إليها لا يجيب . فوعد الإمام انقضاء شهر الصيام .

* * *

مقامات الوهراني

وللوهراى — فيما عدا ذلك — مقامات ومقامات من أهمها
« المنام الكبير » . وفيه تخيل أنه رأى فيما يرى النائم كأن القيامة
قامت . والمنادى ينادى : هلموا إلى العرض على الله . قلت : فخرجت
من قبرى أيمم الداعى إلى أن بلغت أرض المحشر .

وهناك التقي الوهراني بأناس كثيرين ، قدامى ومحدثين . منهم الفقهاء ومنهم الأدباء ، ومنهم الشعراء ، ومنهم الفلاسفة ، ومنهم المتصوفة ، ومنهم الملوك والسلاطين . وذلك كله على نحو يذكرنا « برسالة الغفران » ، لأبي العلاء المعرى .

واتخذ الوهراني من هذه الرسالة المنامية وسيلة إلى السخرية بهؤلاء الناس جميعاً . فسخر منهم بأسلوب يمتاز بالخفة والرشاقة . وذلك بالقياس إلى أسلوب المعرى الذى امتاز بشيء من الجدة والصرامة ، كما امتاز بميل إلى الغموض والغرابة وذلك فى المعنى واللفظ جميعاً .

مثال أخير من سخرية الوهراني

كتب الوهراني يقول :

سبعة أشياء من أبواب البر تسخط الله وترضى الشيطان وهى :
انقطاع ابن الصابونى إلى الله عز وجل فى القراة .
وتعصب الخبوشانى لقبر الإمام الشافعى .
وتنفل القاضى قبل صلاة الجمعة وبعدها .
وصلاة السيد الطيب التراويح فى شهر رمضان .
وبكاء الفقيه بهاء الدين على المنبر يوم الجمعة .
وسماع ابن عثمان لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جمعة واحدة .
وحضور ابن مائى لمجالس الوعظ فى القراة وبكائه عند قراءة القرآن ... الخ .

ذكروا أن هذه الأعمال الصالحة لا يعبو الله بها . وهي أحب إلى
للبليس من كبار الذنوب !

تلك أمثلة من رسائل الوهراني . لعل القارىء يلحظ فيها تنوعا
في الطريقة ، وبراعة في الفكاهة ، وقدرة على التسلية . وربما كانت
الطريقة الأخيرة من هذه الطرق تذكرنا ببعض ما تصنعه الصحف
السيارة في أيامنا هذه .

* * *

هز القحوف في شرح قصيدة أبي شادوف :

في القرن العاشر الهجري كان العثمانيون الأتراك قد ملكوا البلاد
المصرية . وكانت أسباب الهم والمجسوم قد اتسعت أكثر من ذي
قبل . وفي ذلك الوقت ظهر ميل الشعب المصرى إلى شرب القهوة ،
وانخذوا لأنفسهم أما كن عامة يتناولون فيها هذا الشراب . وفي مكان
شرب القهوة كان يجتمع الشباب المصرى للنكات والمداعبات ، ولسماع
« الشاعر » الذى يقص عليهم القصص الشعبية المشهورة على نحو ما نشاهده
في بعض الأحياء الشعبية بمدينة القاهرة في أيامنا هذه .

وترك لنا ذلك العصر العثماني طائفة كبيرة من الفكاهات المصرية
العجيبة نكتفي منها بالصورة التي نجدها في كتاب « هز القحوف في شرح
قصيدة أبي شادوف » ... وهو كتاب ظريف موضوعه السخرية من
أهل الريف . يصف ما هم فيه من الفقر والفاقة والجهل والذل ، وهذه
الأمور التي هبطت بالفلاح المصرى في العصر العثماني إلى درجة البهائم .

وفى ذلك يقول مؤلف الكتاب :

لا تصحب الفلاح لو أنه ناجية أياها صاعدة (١)
 ثيرانهم قد عبرت عنهم بأنهم من طينة واحدة ١١
 زعم المؤلف فى كتابه هذا أن رجلا من رجال الريف يدعى (أبا شادوف)
 نظم قصيدة فى وصف الفلاح . فشرح المؤلف هذه القصيدة باللغة العامية ،
 وبالبخ فى تصوير البؤس الذى يعانى به الفلاحون ووصف أكلهم وشربهم
 وطرائقهم فى النوم واللبس . وأتى على بعض عاداتهم فى الأفراح
 والمآتم والأعياد ونحو ذلك :

أما مؤلف الكتاب فرجل يقال له الشريفي ، نسبة إلى شربين
 إحدى قرى مصر . وقد جعل كتابه جزأين :

أولهما — فى السخرية من الفلاح فى الريف .
 وثانيهما — فى شرح قصيدة أبى شادوف .

ولا يسع القارىء لهذا الكتاب فى الحقيقة إلا أن يعلن الحكم
 العثماني البغيض الذى خلق فى المصريين ذلك الروح — ونعنى به
 الروح الذى أملى عليهم احتقار الفلاح ، وعمل الفلاح ، وخلق الفلاح
 مع أن الحكم العثماني ذاته هو السبب الحقيقى فى كل ما أصاب هذا
 المسكين من كوارث ، وما أحاط به من هموم وآفات ومظالم .
 ولا غرابة فى ذلك فقد كان هذا الفلاح بين (المطرقة والسندان)
 — كما تقول العامة . أما (المطرقة) فنظام الحكم . وأما

(١) الناجية الطيب . والمراد لا تقرب من الفلاح ولو كانت رائحته تصعد فى كل
 مكان كالطيب .

(السندان) فكشافه ، ومديروه ، وملتزموه وغيرهم ممن يجمعون
الضرائب حينا ، ويخضعون الفلاح لنظام السخرة — أو العونة —
حينئذ آخر .

نماذج من هز القحوف

أراد الشربيني هذا أن يصف لنا في كتابه صورة الجبل الذى خيم
على ريف مصر فأورد هذه الحكايات :

(١) فكى لنا أن رجلا من الفلاحين سأل آخر بقوله : إيش
هجاك إيريق ؟ ،

فأجابه بقوله : د ب ، ر ، ب ، ق ، و ، أ ،

فقال له الأول : د إيش عرفك أن فيها واو ، ؟

فأجاب : د النقطة اللى فوق الواو ، ا

فقال له الأول : صحيح أنت فصيح لأخوالك ، ا

(٢) وعطس رجل من الفلاحين فقال له فقيه من أهل الريف :

د يرحمك اللى عطسك . ولو شاء لفطسك ، وخرج العطسة من فراقير
الى خلقك . .

فقال له الفلاح :

د يافنى . لا عدت نفسانا من دى السورة تقرأها علينا فى المساء والصباح .
و أعطيك أيام المقات أربع بطيخات . وتقرأ السورة لأم معيك .
وتهدبها لأبو زعل . لأنه مات من مدة شهرين . . ١١

فضحك منه الرجل ومضى إلى سبيله .

(٣) ودخل رجل منهم قرية على شاطئ النيل في يوم جمعة . فرأى الناس قاصدين إلى صلاة الجمعة . فاعتمد أنهم ذاهبون إلى ضيافة صنعها لهم أمير البلد . فذهب مع الناس إلى أن دخلوا المسجد . وجلس في بعض الصفوف . إلى أن أقبل الخطيب وصعد على المنبر . فصار الفلاح ينظر إليه وهو مرتاب وخائف ومتحير إلى أن فرغ من خطبته . ثم أقيمت الصلاة وسمع ضجيجهم بالتكبير والتهايل فاعتمد أنها «هوجة» وقعت بينهم ، وصاح : يآل سعد . . الحقون ! الحقون ! وسحب الثبوت وخرج هاربا وهو يقول : خدوك القوم يا بوكتكوت !

ولم يزل في خوف وكرب حتى وصل إلى الكفقر .

(٤) ودخل عالم من علماء الريف مسجدا في القرية ليصلي صلاة الجمعة وتعجب حين رأى الفلاحين يدخلون المسجد للصلاة ويبد كل منهم قفة من خوص ، وفيها مغرفة ، وخشبة وسكين من حديد ، وفأرميت معلق من عنقه . وبعد قليل جاء خطيب المسجد في نفس الصورة التي دخل بها الفلاحون من قبله . فأقرب العالم من خطيب المسجد وسأله عن السبب في ذلك ؟ فأجابه الخطيب بأنه هو الذي أمر الفلاحين ، وأمر نفسه بذلك ، وإلا كانت الصلاة باطلة . فقال العالم للخطيب : لكن ما هي الحكمة في ذلك ؟ فقال الخطيب : إنه حديث قرأته في كتاب عندي يقول : حدثني فلان عن فلان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

لا تصح جمعة أحكم إلا ، بقفة ومعرفة وخشبة وسكينة وفار .
فطلب العالم منه الكتاب وقرأ الحديث فإذا هو : « لا تصح جمعة
أحكم إلا بقفة ومعرفة وخشبة وفار » .

أما غفلة الفلاح المصرى فقد أبان عنها مؤلف الكتاب فى كثير
من الحكايات الأخرى . ومنها : هذه الحكاية الطويلة التى حكها عن
فلاح مصرى ترك الكفر الذى يعيش فيه ، وجاء لزيارة المدينة . قال
مؤلف الكتاب :

(هـ) « اتفق لثلاث نسوة من أهل مصر أن خرجن يتفرجن فى أزقة
المدينة . فلقين رجلا من قحوف الريف وهو فى حالة رديئة . وعلى رأسه
قفص ملآن من الفراخ يريد أن يبيعها ويسد بشمها مال السلطان .
فقال لحداهن للأخرى :

ما تقولى فى اللى ياخذ الفراخ من الفلاح ده ؟
فقال الأخرى : وأنا آخذ نيا به .

وقالت الثالثة : كل ده ما هو شطارة . الشطارة فى اللى يبيعه
بيع العبيد .

ثم إن (الأولى) التى التزمت بأخذ فراخه أقبلت عليه ورغبته
بزيادة فى الثمن . فضى معها إلى أن وصلت إلى درب من دروب مصر ،
وبيت له بابان وقالت له :

اقعد هنا على الباب ده فإنه باب بيتى . واصبر حتى أجيء لك

بالفلوس . ثم أخذت القفص بالفراخ ومضت لحال سييلها من الباب الثاني . ولم يزل الفلاح جالسا على الباب الأول . ولم يأتها أحد . فتحير في نفسه وسأل عن المرأة التي أخذت الفراخ .. فقال له الناس :
يا قليل العقل ، وسقيع الذقن . البيت ده نافذ .

فصاح الفلاح ولطم على وجهه . وبينما هو على هذه الحال إذ أقبلت عليه (الثانية) وقالت له : إيش صابك ودهاك يا مسكين . أنت راجل غريب . وعليك مال السلطان . وضحكك عليك العاهرة وخذت منك الفراخ !

فقال لها : وحياة عيونك يا مليحة ما معي غيرهم .
فقال لها : امشي معايا إلى بيتنا وأنا أعطيك شئ من النقود صدقة عنى .

فقال لها الفلاح : الله يحزيكي خير . وأنا لاخر لما أروح الكفر أزورك بحزمة لحلاح ، وحزمة بصل ، وشوية فول . وتبقى صاحبتي . وإن شاء الله أجيب لك كان عشرين قرص جلتة .

فأخذته وسارت إلى أن وصلت إلى بيت كبير على البنيان . فسألت عن صاحبه . فقالوا لها : هذا بيت الأمير فلان وقد خرج هو وبعض أصحابه إلى بعض المتزهات . فدخلت البيت فلم ترفيه أحداً سوى رجل كبير يواب . ودخل الفلاح معها إلى وسط الدار فرأت فيه برأ من الماء تملأ منه الحريم . فوقفت ونظرت في البئر ثم ولولت وصرخت وبكت بكاء شديداً . فقال لها الفلاح :

تبكي لي يا مليحة ؟

فقلت له : كمبك شؤم على . فقد وقعت أساورى الذهب فى البئر .
قال لها : ما تخافيش يا مليحة . أنا أنزل وأجيهم لكى من البئر .
فقلت له : تعرف تنطس فى الميه ؟

قال لها : دى صنعتى . وطول عمرى فى الهم والغم .
ثم قال لها : أربطينى فى جبل البكره دى . ودلينى فى البئر .
ثم إنه خلع ثيابه . ودلته فى البئر إلى أن وصل إلى الماء فأرخت
الحبل عليه . وأخذت ثيابه وذهبت إلى حال سبيلها .
هذا ما كان منها . وأما ما كان من الفلاح فإنه لم يزل يفوص فى الماء
ويفتش فى قعر البئر حتى كل ومل واسود جلده من البرد . وكانت أيام
شتاء . فلما اشتد الأمر صار يصيح وينادى المرأة ، فلم يجبه أحد .
فبينما هو فى هذه الحالة إذ أقبل الأمير وأصحابه وممعو الفلاح
يصيح فى البئر وينادى :

طلعينى يا صبية . طلعينى يا مليحة . دا ماهوش مليح منك . ده
عيب عليكى . أنا مت من السقيع والبرد .
فقال له الخدم : إنت لئى أم جنى ؟
فقال لهم : أنا أبو زعبل بن حنجل من كفر ال

فقال بعضهم لبعض : ده عفريت من غير كلام !

فقال لهم الفلاح : والله يا وجوه الخير ما أنا عفريت . أنا راجل
فلاح . وحكى لهم قصته . فدلوا له الحبل فتعلق فيه وطلع ، فلما رآه

الخدم علموا أنه إنسى ، ثم قال بعضهم لبعض : ده حرامى ووقع فى البير ، فزولوا عليه ضرب ، وطروده وراح يجرى وهو عريان بردان جعان سقعان ، ولا يدري أين يذهب .

فأقبلت عليه (الثالثة) وهو فى هذه الحالة ، وقد صارت الأولاد تضربه وتقول : المجنون ! المجنون ! فوضعت المرأة يدها على ظهره ومسحت وجهه بتدليل كان معها ، وسترته بفوطة . وقالت له : أمرك الله يا مسكين يا حزين . ضحكك عليك نسوان مصر . وخلقك فى دى الحال . وأنت راجل غريب . وعليك مال السلطان . فبكى الفلاح وشكا وقال لها :

يا مليحة : وحياة شلشولك — خدوا فراخى وخدوا ثيابى . وخدوا حزامى الليف ، وخدوا مشدى ومركوبى ، وما عدت أصدق كلام النسوان أبداً . فقالت له : لا تظن يا فلاح أنى من نسوان مصر . أنا عمرى ما خرجت من بيتى غير النهارده . ولما رأيتك فى دى الحالة شفقت عليك . ومرادى أعمل معاك جميل وآخذك لبيتى . وألبسك لبس مليح ، وأخليك شاي ظريف . وأعملك مملوك ، وأحط لك خنجر فى حزامك ، وأعلمك الزكى وتبقى تقول : شندى بندى .

فقال لها الفلاح : أنا فى عرضك يا مليحة تعطينى جندى ، وتعلمينى التركى . وأنا على الحرام من أم شحير كل من عاد يقول لى كائن مافى فى زمانى قطعت رأسه ، ولو كان أبو عوكل شيخ الكفر .

فقالت له : سير بنا على بركة الله .

فسار معها إل أن وصلت إلى منزلها . فأدخلته فيه . ووضعت بين يديه الطعام ، فأكل وشرب وارتاح في نفسه ، ثم أتته بماء ساخن ، وغسلته بالليفة والصابونة . وألبسته قميص وشخشير جوخ ، وقاووق قطيفة ، وشاش فصب . وحزمته بمنزلة وفيه خنجر . وحلقت لحيته وشاربه وجعلته مملوك حليق . وقالت له :

إذا كلمك أحد فلا ترد عليه جواب . بس هز راسك . فإذا ألح عليك في الكلام بالحماقة وشدد عليك قول له : ذكرته هريف . يوك به (١) ولا ترد على ذلك . فإن الكلمة دى أصل التركي إذا عرفها ما يمضى عليك شهر زمن إلا وأنت (سنجق) ويبقى لك طبل وزمر .

فقال لها الفلاح : أنا فى عرضك يامليحة تخلىنى أبقى سنجق وتصير لى سطوة فى الكفر وأبقى إن شاء الله أزورك بشوية كشك وعشر طورات كملك من اللى بتعمله أم شحير . وأعمل لك قاعة . وأكسيها لك بالوحد والجله . وأفرشها لك بالتبن والقصل . وتبتمى تنامى فيها . وييقوا يقولوا الجدعان :

أبو شحير طلع المدينة فلاح ورجع جندى ، يقطع الروس يقول شندى بندى .

ثم إنها أخذته ونزلت به إلى سوق خان الخليل وجلست فى دكان من الدكاكين اللى تبيع أنواع الأقمشة والخز والأطلس والشاشات . فتالت للتاجر :

(١) عبارة كذبة قريئة من قولهم . أيها الرجل القنذر ليس معي طعام لأمثالك

أريد كذا وكذا عما يساوي ألف دينار . فأحضر لها التاجر ما قال عليه وربطته في بقعة وقالت له :

ياسيدى يكون المملوك ده عندك رهن حتى أروح لبنت الأمير ، وأعرض على حريمه القماش وأجيب لك الدراهم ، فقال لها التاجر :
توجهى على بركة الله .

فأخذت الحوائج وتركت الفلاح . ومضى نصف نهار ولم ترجع المرأة إلى التاجر . فتضايق والتفت إلى الفلاح وقال له ستك بطت علينا .
فهر الفلاح رأسه كما أوصته ولم ينطق بكلمه . فكرر عليه التاجر الكلام
فهر رأسه ولم يتكلم . فتضايق التاجر وقال لجيرانه التجار : ماهذه البلية
في هذا المملوك ؟ كلما كلمته هر رأسه كأنه ما يعرف إلا بالتركي .

فبينما التاجر على هذه الحال . إذ أقبل عليه رجل عسكرى . فقال
له التاجر :

بالله عليك ياسيدى تكلم لنا هذا المملوك بالتركي . وعرفنا عن
حاله . فكلمه الجندى بالتركي فهر رأسه . فاغتاظ منه وسل عليه السيف
وأراد أن يضربه . فلما رآه الفلاح يريد ذلك صاح قائلاً :
« كرتة هريف يوك يمه ،

فلما سمع الجندى منه ذلك نزل عليه بالضرب .

فصاح الفلاح يتكلم ويصيح بكلام الفلاحين ويقول :

أنا في جيرتك يا أبو زعبل .

فضحك عليه الجندي وبقية التجار واستخبروه فحكى لهم القصة من
أولها إلى آخرها . فعرفوا أنها حيلة عملت على التاجر والفلاح . فقام
التاجر وعراه وأخذ جميع ما عليه وباعه بعشرين دينارا . ومكث الفلاح
سنة . ثم خلاص روحه وهرب إلى الكفر .



الفصل الثالث

الكتابة التاريخية

هناك نوع ثالث من النثر ، لاهو بالمبالغ فيه من ناحية الصياغة الفنية كنثر الرسائل الديوانية ، ولا هو بالمكتوب بلغة قريبة من العامية كالكتب الشعبية أو الهزلية . ولكنه بين بين . وتصدق بهذا النثر الوسط نثر الكتب العلمية .

غير أن أقرب هذه الكتابات العلمية إلى دائرة الأدب إنما هو النثر التاريخي . وما زالت هذه الظاهرة سارية إلى وقتنا هذا . ففي كتب التاريخ نجد مادة علمية لاشك فيها ، هي الحقائق التاريخية ذاتها . ويجد هذه المادة مكتوبة بلغة راقية لا تخلو من الأناقة اللفظية أحيانا ، أو الأناقة المعنوية أحيانا . وهي لغة تقع في وسط الطريق بين الأسلوب العلمي والأسلوب الأدبي . على أن لكتب التاريخ العربي بوجه عام ميزة كبيرة هي امتزاج الأدب في أكثرها بالتاريخ امتزاجا عظيما ،

والفترة التي تؤرخ لها نحن في هذا الكتاب تنقسم إلى عصور ثلاثة : هي العصر الأيوبي ، والعصر المملوكي ، والعصر العثماني . وقد أرخ لكل من هذه العصور الثلاثة مؤرخون كثيرون خدموا هذه العصور من نواح عدة . ولولا هم لشق علينا أن نعرف الكثير عنها . فمنهم من كتبوا في السير

والتراجم بما في ذلك سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتراجم الملوك والسلاطين ونحوها . ومنهم من كتب في تاريخ الدولة الإسلامية عامة . وإن كان هؤلاء بمصر قليلين بالقياس إلى أمثالهم في غير مصر من الأقطار الإسلامية الأخرى . ثم منهم من كتبوا في تاريخ الدول المصرية خاصة وهؤلاء هم الكثرة الغالبة من المؤرخين المستميين إلى العصور الثلاثة التي نغنى بها . ومنهم من كتبوا في تاريخ البلاد والمدن الإسلامية الأخرى وهكذا .

مؤرخو العصر الأيوبي

كان لبعض المؤرخين في العصر الأيوبي عناية كبيرة بكتابة السيرة . والحق أنه كما كانت سيرة النبي صلوات الله عليه وسلامه تحتل مكانا ممتازا في الشعرين الأيوبي والمملوكي . فكذلك وجدنا هذه السيرة النبوية تحتل نفس المكانة في كتب التاريخ المنسوبة إلى هذين العصرين . ومن أشهروا بذلك في العصر الأيوبي :

أبو علي الجواليقي المصري :

وهو شرف الدين أبو علي محمد الحسيني النسابة . كان نقيب الأشراف في الديار المصرية . واشتغل بالتصنيف في علم النسب . وهو فيه واحد . وله فيه تصانيف كثيرة . منها كتاب (طبقات الطالبين) . توفي سنة ثمان وثمانين وخمسة .

وله كذلك شجرة رسول الله في النسب النبوي . ومعها ملاحظات تاريخية قيمة . ويقال إن منه نسخة في مكتبة برلين .

نأتى بعد ذلك كتب التراجم عامة ، وهى كثيرة فى العصر الايوبى .
وسنكتفى هنا بالكتب المنسوبة إلى كل من : العماد الاصفهانى ،
وابن شداد . وابن خلكان . والقفطى . والادفوى .

العماد الاصفهانى :

نشأ بأصفهان . وأتى بغداد فى حدائته . وتعلم بالمدرسة النظامية .
ثم انتقل إلى دمشق عام ٥٦٢ هـ ، ورحل مع صلاح الدين إلى مصر .
واستقر مقامه بها . وله كتب كثيرة . منها كتاب بهذا العنوان :

الفتح القسى فى الفتح القدسى^(١)

وهو تاريخ لسبع سنوات فقط من حياة السلطان صلاح الدين
الايوبى — أعنى من سنه ٥٧٦ إلى سنة ٥٨٣ للهجرة . وهى السنة
التي تم فيها لصلاح الدين فتح بيت المقدس . والقاضى الفاضل هو الذى
أطلق على الكتاب هذه التسمية . وذلك بسبب أن العماد الاصفهانى
توخى السجع فى كتابة هذا الكتاب من أوله الى آخره . وهى طريقة
غريبة فى كتابة التاريخ . وربما أضرت بالحقائق التاريخية نفسها
مع ذلك . لأن هذه الحقائق تتعرض للضياع وسط هذا الزحام الشديد
من البديع بألوانه المختلفة كالسجع والجناس والطباق وما شاكل ذلك .
وهذا هو ما شعر به مؤرخ من مؤرخى العصر الايوبى اسمه «أبوشامة»

(١) اتقى نسبة إلى قس بن ساعدة الأيادى خطيب العرب فى الجاهلية . والقدى

نسبه إلى القدس :

صاحب كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (النورية والصلاحية)
عندما اضطر إلى الرجوع إلى كتاب الفتح القسى هذا .
وللعلماء الأصفهاني كتاب آخر في التراجم تزيد شهرته على الكتاب
الأول في الواقع . وهذا الكتاب الأخير هو كتاب :

خريدة القصر وجريدة العصر

وفيه تراجم أدباء القرن السادس الهجرى خاصة . وهو حلقة من
سلسلة كتب عنيت بتراجم الأدباء . الحلقة الأولى كتاب (يتيمة الدهر)
للعالى . والحلقة الثانية كتاب (دمية القصر) للباخرزى . والحلقة
الثالثة كتاب العباد هذا (١) .

وللعلماء الأصفهاني — غير ذلك — كتاب يمكن أن يُعد من
كتب التراجم وعنوانه :

البرق الشامى

وقد صدره بترجمة لنفسه . ثم ذكر فيه بعض الفتوح الشامية .
وشبه أوقاته التي قضاه في الشام بالبرق الخاطف كناية عن طيبها وسرعة
انقضائها . ثم بسط أخبار صلاح الدين وفتوحه ، وأخبار بلاد الشام
في أيامه . وجمل ذلك كله في سبع مجلدات . وانتفع به المؤرخون من
بعده . ومن أولهم أبو شامة الذي تقدم ذكره ، وسبق أن قلنا إنه
اعتمد على الأصفهاني في كتابه المشهور باسم الروضتين في أخبار الدولتين
وللعلماء كتب أخرى كذلك في تاريخ السلاجقة لا تعيننا في هذه الفترة .

(١) الجزء الخاص بشعراء مصر من هذا الكتاب قام بنشره الأساتذة :
أحمد أمين ، شوقي ضيف ، إحسان عباس ، وذلك عام ١٩٥١

ابن سمراد

أبو الحسن بهاء الدين بن شداد . ولد بالموصل سنة ٥٣٩ للهجرة ،
ودرس بها . ثم رحل إلى بغداد وتعلم وأفاد . فقد عين هناك « معيداً »
بالمدرسة « النظامية » . ثم صار أستاذاً بمدرسة الموصل الكبرى .
ثم رحل إلى دمشق . وبها لقي صلاح الدين الأيوبي والتحق بخدمته
ولما توفي السلطان صلاح الدين رحل ابن شداد إلى حلب وعين قاضياً بها .
وكانت له منزلة رفيعة في عهد الظاهر والعزيم من أبناء السلطان صلاح الدين .
والكتاب الذي ذكرنا من أجله ابن شداد على أنه من مؤرخي
الدولة الأيوبية هو كتاب :

النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية

وهو في سيرة السلطان صلاح الدين الأيوبي . ألفه عقب وفاته
وجعله في قسمين .

الأول — في نشأة صلاح الدين وأخلاقه .

الثاني — في بعض وقائعه وغزواته .

وكانت له طريقة خاصة في كتابه هذا ، فهو إذا تكلم في صفة من
صفات السلطان صلاح الدين كصفة العدل . بدأ الكلام بآية قرآنية ،
أو حديث نبوي ، أو بهما معا . ثم ذكر ما يعمله من تمسك السلطان
بهذه الصفة ، وذكر طرفاً من نوادره في ذلك . ثم ختم الحديث في هذه
الصفة من صفات السلطان بالدعاء له أن يرحمه الله رحمة واسعة .

هذا ما كان من ابن شداد في القسم الأول من كتابه .

أما ما كان منه في القسم الثاني ، فإنه تحدث فيه عن وقائع السلطان حديثاً يختلف عن حديث غيره من المؤرخين في شيء هام ، هو أنه كان كثيراً ما يعتمد فيه على مشاهداته ومعلوماته الخاصة ، لا على الروايات التاريخية المختلفة التي اعتمد عليها مثل أبي شامة في كتابه (الروضتين) . واستطاع ابن شدداد بهذه الطريقة أن يكشف لنا عن حوادث هامة في حياة صلاح الدين الأيوبي من الناحية الخلقية ومن الناحية السياسية ، بالقدر الذي لا نجد له نظيراً في المصادر التاريخية الأخرى .

ابن خلكان

قاضي القضاة شمس الدين أبو العباس المعروف بابن خلكان . قيل إنه من بيت كبير في العراق ينسب إلى البرامكة . ولد سنة ٦٠٧ للهجرة في مدينة (إربل) . ودرس على علماء منهم ابن شدداد الذي تقدم ذكره . ثم ذهب إلى القاهرة عام ٦٣٦ للهجرة . وشغل وظيفة قاضي القضاة في دمشق . ثم اشتغل بالتدريس لمدة سبع سنوات بالمدرسة الفخرية بالقاهرة . ثم درس بالمدرسة الأمينية بدمشق . وتوفي بها عام ٦٨١ هجرية . وله كتاب : (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان) :

بدأ ابن خلكان كتابه هذا وهو بالقاهرة عام ٦٥٤ هجرية وما حولها ، ولكنه انقطع عنه في أثناء ولايته القضاء بدمشق . وافرغ منه بعد ذلك في عام ٦٧٢ هجرية .

وقد اعتمد ابن خلكان في كتابه هذا على مؤلفات قديمة ضاع
(١٥) الأدب المصري

أكثرها ، أو فقدت كلها . ومن ثم أصبح كتابه هذا من أهم المصادر التي يعتمد عليها في كتابة التاريخ الأدبي إلى اليوم .

والكتاب عبارة عن معجم تاريخي ضخم . والظاهر أن مؤلفه لم يخلف غيره من الكتب . ولكنه يساوى في الواقع مئات من الكتب . فهو ذخيرة علمية وأدبية وتاريخية ولغوية في غاية الأهمية ، وعدد التراجم التي أتى بها ابن خلكان في كتابه هذا أربت على ثلثمائة ترجمة . منها تراجم للعلماء والأدباء . وهي العالمية العظمى . ومنها تراجم للملوك والأمراء . وهي الأقل . ولعل أهمية هذا الكتاب بالقياس إلى العصر الأيوبي بنوع خاص آتية من أن مؤلفه عاشر الكثيرين من علماء الشطر الأخير من حياة الدولة الأيوبية وأدبائه وفضلائه ، وكانت له بهم علاقات متينة أتاحت له جمع هذه المعلومات الكثيرة عن كل واحد من ترجم لهم في كتابه .

وعبارة ابن خلكان في كتابه عبارة جيدة . ولعله كان أدبياً إلى جانب أنه مؤرخ . ومن هذه الناحية حسنت ألفاظه وتراكيبه ودنت من محيط الأدب .

الفقطنى :

وهو الوزير أبو الحسن علي بن يوسف المعروف بجمال الدين الفقطنى . ولد بمدينة من مدن صعيد مصر اسماً دققاً ، وذلك عام ٥٦٨ للهجرة . وتلقى علومه بالقاهرة . ثم أتم دراسته ببيت المقدس .

وقضى نحواً من خمس عشرة سنة بهذه المدينة . ثم رحل بعدها إلى حلب ،
وبها وصل إلى مرتبة الوزير وذلك في عام ٦٣٣ هجرية . وظل بها وزيراً
حتى مات سنة ٦٤٦ .

والكتاب الذى من أجله عرضنا لذكر القفطى هو :
(إخبار العلماء بأخبار الحكماء) .

وهو معجم تاريخى للفلاسفة والأطباء والعلماء من العرب وغيرهم
مرتبين على أحرف الأبجد . ويرينا هذا الكتاب صورة من علم العرب
بمؤلفات الإغريق . وفي نهاية الكتاب يرى التارىء فصلاً يتحدث فيه
المؤلف عن حكماء تبتدىء أسماءهم بالكفى ، كأبى على بن سينا الفيلسوف
وغیره .

وكتاب القفطى هذا بالنوادر والطرائف أشبه منه بالكتاب
العلمى المنظم . مثال ذلك : أن القفطى عرض فى كتابه لذكر « هوميروس »
باسم « أوميروس » فقال :

« كان هذا الرجل من رجال يونان الذين عانوا فى الصناعة الشعرية
والمنطق وأجادوهما . وجاءه « أتابور » الماجن فقال :
اهبنى لاقتخر بهجائنك ، إذ لم أكن أهلاً لمديحك . فقال له : لست
فاعلاً ذلك أبداً .

قال : فإنى أمضى إلى رؤساء اليونانيين . فأشعرهم بذلك . قال
أوميروس مرتجلاً :

بلننا أن كلباً حاول قتال أسد بحزيرة قبرص ، فامتنع عليه الأسد

أنفة منه ، فقال له الكلب : إني أمضى فأشعر السباع بضعفك . فقال له الأسد لأن تعيرني السباع بالنكول عن مباراتك أحب إلى من أن ألوث شاربي بدمك !

على هذا النحو يترجم القفطى لشاعر كبير كهوميروس . وعلى هذا النحو لا نفهم حقيقة هذا الشاعر اليونانى ولا نفهم شعره ولا فلسفته !

إلا أن القفطى مع ذلك عنى عناية تامة بالأطباء ، وعلماء الإلهيات ، وعلماء المنطق والأخلاق ، والفلك والتنجيم .

الإدفوئى :

وهو كمال الدين جعفر بن ثعلب الإدفوئى المتوفى سنة ٧٤٨ هجرية كان فقيها لغويا . ولد عام ٦٨٥ هجرية بمدينة (إدفو) من مدن الصعيد وعاش بقرية قريبة من القاهرة ومات بها .

وهو من كتاب التراجم إلا أنه قصر همه على تراجم المصريين خاصة . بل كان أكثر عصبية من هذا الحد . لأنه وضع كتابا فى تراجم النابهين من صعيد مصر بوجه أخص . ولذا اشتهر بكتاب :

(الطالع الصعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد) :

ترجم فيه لثلاثة وسبعين وخمسةائة رجل وامرأة من نجباء صعيد مصر وحده . ومهد لهذه التراجم بمقدمة فى وصف هذا الإقليم - وهو الصعيد - وبيان حدوده ومحاسنه ، وغرائبه ، وأقسامه ، ومدنه ،

وما به من رُبَط وزوايا ، وأماكن للعلم والعبادة وما به من أسواق
وحمامات وغير ذلك .

ولا يؤخذ على مؤلفه من الناحية العلمية الخاصة غير تعصبه لإقليم
ولده تعصبا كبيرا يجب أن يتنبه إليه المؤرخ أو الباحث عندما يعمد
إلى الإفادة من هذا الكتاب .

* * *

هؤلاء جميعاً كتبوا في التراجم وفي السير . وهناك من الكتب
التاريخية ما كتب في تاريخ الدول المصرية . ومن اشتهروا بمثل هذه
الكتب الأخيرة رجلان؛ أحدهما أبو شامة والثاني ابن واصل :

أبو شامة :

هو عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسى الأصل المعروف بأبى شامة .
نشأ بدمشق ، وتعلم بالإسكندرية ثم رجع إلى القدس واشتغل هناك
بالتدريس وبالفتيا . واشتغل كذلك بالتأليف . ومن أشهر كتبه :
(كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين الثورية والصلاحية) .

وربما كان هذا الكتاب من أوسع المصادر العربية الإسلامية
لتاريخ الحروب الصليبية .

وقد سبق أن لاحظنا أن أكثر ما فى هذا الكتاب من أخبار
مصر والشام مأخوذ من كتب العباد الأصفهاني . وذلك بعد تجريد هذه

الكتب من السجع وغيره من المحسنات اللفظية التي لا تتفق والأساليب المتبعة في كتب العلم .

ولكتاب الروضتين ميزة كبيرة عند علماء الأدب . وهي أن مؤلفه قد ضمنه طائفة كبيرة من شعر الشعراء وثر الكتاب . وأنه مزج الأدب بالتاريخ في كتابه هذا مزجا لطيفاً . وأمدنا لذلك بصورة واضحة للأدب الإسلامى في مصر والشام في حياة نور الدين بالبلاد الشامية ، وحياة صلاح الدين بالبلاد المصرية .

ولكتاب الروضتين — من هذه الناحية — ما لكتاب السيرة لابن هشام من القدرة على الإيحاء . فلا يقرأ أحد كتاب الروضتين إلا ويحس في قرارة نفسه بميل قوى إلى تأليف كتب في سيرة البطالين الإسلاميين نور الدين وصلاح الدين ربما لا تقل في روعتها عن الكتب التي ألفت في سيرة الرسول .

ابن واصل :

هو جمال الدين أبو عبد الله . كان في أول أمره مدرساً بمدرسة حماة . ثم استدعى إلى القاهرة عام ٦٥٩ للهجرة . وبعث به الملك الظاهر في مهمة إلى ملك صقلية . وهو يومئذ الملك منفرد Manfred . فكسب عنده مدة طويلة . ثم عاد من صقلية ، فعين قاضياً للقضاة ، فدرساً بحماة ، وبها توفي عام ٦٩٧ للهجرة .

معنى ذلك إذن أن ابن واصل يعتبر من مخضرمى الدولتين الأيوبية

والمملوكية ، وقد شهد بنفسه حوادث النصف الأخير من حياة بني
أيوب ، وكتابه المشهور :

مفرج الكروب في أخبار بني أيوب

وفيه قال عن نفسه في حوادث سنة ٦١٦ هـ إن عمره في تلك السنة
كان اثنتا عشرة سنة وإن والده كتب فيها نسخة اليمين التي استحلف بها
المنصور ملك حماة أهل هذه المدينة للملك المظفر تقي الدين محمود ، وفيها
— أى في تلك السنة — توفيت والدته الملك المظفر هذا — فحزن
عليها زوجها الملك المنصور ، وأمر أن يصعد أكابر (حماة) إلى القلعة
للصلاة عليها فاشترك في ذلك والد جمال الدين بن واصل . ثم أتى ابن
واصل بمرائي الشعراء التي قيلت في ذلك اليوم ، وعند ذلك انتهى الجزء .
الأول من كتاب مفرج الكروب . وابن واصل في كتابة التاريخ
تليذ لا ي شامة الذى مر ذكره ، فاقيل عن أبى شامة من أنه مزج في
كتابه التاريخ بالأدب مزجا قويا لطيفا يتعال مثله في ابن واصل .

يضاف إلى هذا أن قارىء هذا الأخير يستطيع أن يلم إلماما عاما
بالنشاط الأدبي في البيئات الشهيرة في ذلك العصر : كبيتة حماة ، وبيتة
القدس ، وبيتة اليمين وهكذا .

غير أن ابن واصل من ناحية الأسلوب الكتابي ربما كان أقل
المؤرخين احتفالا باختيار اللفظ ، وعناية بتكلف البديع .

مؤرخو العصر المملوكى

وفى العصر المملوكى ظهر أكابر المؤرخين الذين أرخوا لمصر فى ذلك العصر ، وعنوا كذلك بالصورة التى سبقتهم .
والحق لقد نعمت مصر فى عهد المماليك بطائفة من المؤرخين ، عددهم كبير ، وفضلهم على البلاد المصرية نفسها أكبر وأعظم .
وقد اخترنا الحديث عن خمسة فقط من أولئك المؤرخين الذين عاشوا فى العصر المملوكى . وهم على الترتيب : المقرئى ، وأبو المحاسن ، وابن إياس ، والسخاوى ، والسيوطى .
وأما النويرى فقد أشرنا إليه من قبل عند الكلام عن الحياة العلمية فى مصر .

المقرئى

مبائه :

هو أحمد بن على المقرئى — ولد بالقاهرة عام ١٣٦٤ لليلاد وتوفى عام ١٤٤٢ لليلاد (فعمره إذن ثمان وسبعون سنة) . وجدته لأمه — واسمه ابن الصايغ الحنفى — هو الذى تولى تربيته لضيق حال أبيه ، فنشأ على المذهب الحنفى حتى مات هذا الجد ، فترك المقرئى مذهب الحنفية إلى مذهب الشافعية .

ثم التحق المقرئى بديوان الإنشاء بالقلعة . وظل كاتباً به إلى سنة

١٣٦٨ ميلادية ، ثم عمل نائبا من نواب الحكم — أى قاضيا — عند قاضى القضاة الشافعية ، فإماماً للجامع الحاكم ، فدرسنا لعلم الحديث بالمدرسة المؤيدة . وفى سنة ١٣٩٨ ميلادية اختاره السلطان برقوق لوظيفة (محتسب القاهرة والوجه البحرى) . ثم فى سنة ١٤٠٨ م انتقل إلى دهشوق وقام فيها بتدريس الحديث . ثم عينه السلطان المملوكى (فرج بن برقوق) نائبا للحكم بدمشق . وأخيراً سُمّ المقرئى وظائف الحكومة على اختلافها ، ووجد عنده من الموارد ما أعفاه من تضييع وقته فى كسب العيش من طريق الدواوين .

ورجع الرجل إلى القاهرة حيث أمضى بة حياة (بحارة برجوان) التى ولد فيها ^(١) . واشتغل بالدرس والتأليف ، وبخاصة فى هذا العلم الذى أحبه من كل قلبه ، وهو علم التاريخ .

مؤلفاته :

١ — بدأ المقرئى نشاطه العلمى بكتابه المسمى (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) . عنى فيه بدراسة الخطط حتى عرف الكتاب فيما بعد باسم (الخطط) . وكان تأليفه لهذا الكتاب بين عامى ١٤١٧ — ١٤٢٦ م .

وأراد المقرئى بعد ذلك أن يؤرخ لمصر تاريخاً سياسياً كاملاً منذ الفتح العربى إلى عصره الذى عاش فيه (وهو القرن التاسع الهجرى أو

(١) المقصود بالخانة الفندق أو الخان أو الوكالة على حد التعبير المصرى الوسيط ، أو السارة الكبيرة على حد التعبير المصرى الحديث .

الخامس عشر الميلادى) . فتمتس التاريخ المصرى الإسلامى عصوراً ثلاثة وخص كل عصر منها بكتاب معين :

٢ — أما العصر الأول — وهو عصر التبعية للخلافة الإسلامية فقد خصه المقرئى بكتاب (عقد جواهر الاسفاط فى أخبار مدينة القسطاط) .

٣ — وأما العصر الثانى — وهو عصر الخلفاء الفاطميين — فقد خصه المؤلف بكتاب (اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الخلفاء) .

٤ — وأما العصر الثالث — وهو عصر بنى أيوب والماليك — فقد خصه بكتاب (السلوك لمعرفة دول الملوك) .^(١)

٥ — كتاب المتففى الكبير فى تراجم حكام مصر ورجالها منذ أقدم العصور . قدر له المؤلف أن يكون ثمانين مجلداً ولكن لم يخرج منها أكثر من ستة عشر .

٦ — كتاب درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة ، كان الغرض منه أن يكون معجماً لتراجم معاصريه ولكنه مع ذلك لم يتم .

٧ — كتاب بعنوان (النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم) أرجع فيه أمر التنافس على الخلافة بين الأمويين والعباسيين

(١) والكتاب الأول من هذه الكتب الأخيرة مفقود ، والكتاب الثانى يعده للنشر الدكتور جمال الدين الشياك أستاذ التاريخ بكلية الآداب جامعة الاسكندرية والكتاب الثالث ينشره الدكتور مصطفى زيادة أستاذ التاريخ بكلية الآداب جامعة القاهرة ، وللمقرئى مؤلفات أخرى فرق ذلك منها :

إلى عصبية جاهلية قديمة . وكان في هذه الطريقة تليذا لابن خلدون .
٨ — للمقريزى — كتاب ثامن وأخير ، هو كتاب (إغاثة
الامة بكشف الغمة) أرخ فيه للجاعات التى نزلت بمصر من أقدم
العصور إلى سنة ١٤٥٠ - وهى السنة التى ألف فيها الكتاب الأخير .
وأدى به البحث إلى أن أسباب ما ينزل بالناس من المجاعات والأوبئة
إنما تلخص جميعها فى « سوء تدبير الزعماء والحكام والقادة وإغفالهم
النظر فى مصالح الجمهور » . وهو تفسير اقتصادى تاريخى كان المقريزى
فيه أيضا تليذا لابن خلدون . ولا غرو فى ذلك فقد كان المقريزى من
المعجبين جدا بابن خلدون وبالمقدمة التى نسبت إليه . وقد وصف
المقريزى هذه المقدمة بقوله :

« ولم يعمل مثالا . وإنه لعزير أن ينال مجتهد مناها . إذ هى زبدة
المعارف والعلوم و نتيجة العتول السليمة والفهوم . توقف على كنهه
الاشياء . وتعرف حقيقة الحوادث والأنباء . وتعبّر عن حال الوجود
وتنبئ عن أصل كل موجود » .

وهكذا كان جل اهتمام المقريزى بالتاريخ ، شغفه بهذا العلم حبا ،
فاشتغل به ، وتجرد له ، وتوفر عليه .

كتاب الخطط :

عرفنا بما تقدم أن كتاب الخطط هو أول كتاب اشتغل
المقريزى بتأليفه ، وجعل له مقدمة جغرافية تاريخية طويلة صدر فيها
« عن شعور مبكر بالوطنية المصرية وإحساس عميق بهذه القومية .

فهو لم يؤلف كتابه هذا - كما كان يفعل المؤرخون الآخرون - ليعلم به خزانة ملك من الملوك ، أو ليجعله قربي يتقرب بها إلى أمير من الأمراء ، ولكن ألفه ليشبع به عاطفة وطنية عنده . فهو يقول في المقدمة : « وكانت مصر هي مسقط رأسي ، وملعب أترابي وجمع ناسي ، ومغنى عشيرتي وموطن خاصتي الخ » ،

وقد تناول المؤلف في كتابه هذا وصف المدن والآثار المصرية قديما ووسيطها ، وما اكتشف هذه المدن المصرية من خطط وشوارع وحارات وأزقة وأسواق . وما فيها من دواوين ومن دور وقصور . وما كان يزينها من مساجد وكنائس وبيع . وما كان يتخللها من مدارس ومكتبات ، ودور للعلم أو الحكمة مبتدئا في كل ذلك بالإسكندرية ، ثم الفسطاط والقاهرة .

وقد جاء الجزء الثاني - وهو نصف الكتاب على وجه التقريب - سجلا زائرا بأحوال القاهرة وأخبارها وطرق المعيشة فيها وهكذا .

وتعرض المؤرخ في أثناء ذلك كله لبعض الشخصيات التي شاركت في عمران هذه المدن أو إقامة هذه المنشآت . فترجم لهم ترجمات مفصلة حيناً وموجزة حيناً آخر . ولكنه حين أحس أن هذا التاريخ العمراني لمصر لا يشبع عاطفته الوطنية فسكر في أن يؤرخ لمصر تاريخاً كاملاً على النحو الذي شرحناه آنفاً .

وليس الكتاب تاريخاً لمصر من هذه الناحية فقط بل إننا نعتمد عليه كذلك عندما نؤرخ للأدب المصري والعقل المصري والعقائد الدينية

التي انتشرت في مصر ، والحياة الاجتماعية والحياة الاقتصادية ، وغير ذلك كله مما يتصل بمصر والمصريين .

غير أن طريقتي المقرئى - وطريقتي تلاميذه الذين من أشهرهم أبو المحاسن وابن إياس - ليست في شيء من التاريخ بمعناه الحديث . لأنها طريقة ناقصة تقطع تتابع الحوادث فجأة عند نهاية السنة أو المناسبة التي ذكرت من أجلها الحادثة .

والكتاب يقع في أربعة أجزاء لكل جزء منها فهرسه الخاصة التي تعين على الاتتفاع به .

حسبنا ذلك لننتقل إلى ثانی المؤرخين الذين اخترناهم وهو :

أبو المحاسن

جمال الدين يوسف بن تغرى بردى ولد بالقاهرة سنة ٨١٣ هـ وأبوه مملوك تركى للسلطان الملك الظاهر برقوق . وكان أميراً على حلب ودمشق وتوفى سنة ٨١٥ هـ . ونشأ ابنه جمال الدين يتم الأيوبيين وتلقى العلم بالقاهرة على أساتذة منهم المقرئى وغيره . وقد احتل أبو المحاسن مركز الصدارة بين مؤرخى مصر بعد وفاة المقرئى .

واسم طاع أبو المحاسن في حياته الطويلة التي قضى معظمها في البلاط السلطانى أن يكتب كثيراً من كتب التاريخ والتراجم بلغت اثني عشر كتاباً من أشهرها الكتاب المعروف باسم :

(النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) في سبعة مجلدات ضخمة

وكثيرا ما يشير أبو المحاسن في ثنايا هذا الكتاب إلى كتاب آخر سبق له أن ألفه ، واسم هذا الكتاب « المنهل الصافي والمستوفى بعد الوائى » . وهو كتاب حافل بتراجيم الأعيان والناجيين من سلاطين المليك البحرية والممالك البرجية . ورتبه أبو المحاسن على حروف الأبجد . وجعله ذيلًا لكتاب الوائى بالوفيات للصفدى .

ونعود إلى كتاب النجوم الزاهرة فى ملوك مصر القاهرة فنراه تاريخًا لمصر من الفتح الإسلامى إلى الدولة الأشرفية عام ٨٥٧ هجرية . وفيه استطرادات كثيرة عن البلاد المجاورة .

والكتاب مرتب بحسب السنين ، وذلك على طريقة كل من الطبرى وابن الأثير . ولكن الذى يمتاز به أبو المحاسن عن سابقيه أنه جعل مصر هى المحور الذى تدور عليه أحداث التاريخ بعد أن كانت مكة أو المدينة أو دمشق أو بغداد محورا عند سابقيه لهذا التاريخ . وفى ذلك تحقيق للشخصية المصرية فى كتابة التاريخ . ويضاف إلى ذلك عناية أبى المحاسن فى كتابه هذا بزيادة النيل ونبقصانه فى كل سنة من سنى هذا التاريخ . وعنايته بتراجيم الرجال الذين ماتوا فى تلك السنة من المصريين خاصة .

وأظن أنه لا يطلب من المؤرخ المصرى أكثر من هذا الحد ليثبت به قوة هذه الشخصية المصرية التى كان لا بد لها من أن تظهر فى العلم كما ظهرت من قبل فى الأدب البحت ، ونعنى به الشعر والنثر الفنى . وتوفى أبو المحاسن سنة ٨٧٤ للهجرة . فلنتنقل منه إلى :

ابن إياس :

محمد بن أحمد بن إياس المصري ثالث المؤرخين الذين تناوبوا الزعامة في كتابة التاريخ بعد المقرئى وأبى المحاسن . ولد بالقاهرة سنة ٨٥٣ هجرية . وهو يشبهه من حيث إن كلا منهما سليل أسرة مملوكية ، ولابن إياس جد يقال له (الخازندار) كان من أمراء المماليك البحرية . وأما جده المعروف (إياس) فقد كان من ممالك السلطان الظاهر برفوق . وتولى وظيفة (الدويدار) زمن السلطان فرج بن برفوق .

معنى ذلك أن ابن إياس هذا كان يمت بصلة قرابة ونسب إلى بعض رجال الدولة المملوكية . ومع هذا وذاك فلم يترجم له كثيرون من كتاب السير ، وبقي ابن إياس مستمداً بإقطاع وافر فعاش في رخاء ويسر ، واشتغل بالكتابة والتأليف ، وتعلم الشعر والزجل والموشعات .

وكان ابن إياس يفتخر دائماً بنسبه إلى الفرقة المسماة (أولاد الناس) وهى الفرقة الخاصة بأبناء الأمراء من المماليك . وكان أبوه من مشاهير (أولاد الناس) هؤلاء . وحدث أن تأزمت أحوال السلطان الفورى واحتاج إلى المال اللازم للصرف على ممالكه . فعمد إلى إخراج (أولاد الناس) من الجيش وحرمانهم من إقطاعاتهم . وأصاب ابن إياس من ذلك ما أصاب غيره . فذهب عنه إقطاعه . ثم شكأ أمره بعد سنوات إلى السلطان فرد إليه بعض إقطاعه . ومن أشهر كتب ابن إياس .

برائع الزهور فى وقائع الدهور :

جعله شاملاً تاريخ مصر منذ أقدم العصور إلى أوائل العصر العثمانى . وجاء هذا الكتاب فى أحد عشر جزءاً .

ثم من مؤلفات ابن إياس في التاريخ كذلك كتاب آخر بعنوان :
(عقود الجمان في وقائع الزمان) . وهو مختصر مستقل لتاريخ مصر .
وليست له علاقة ما بكتابه الأول .

على أن شهرة ابن إياس في التاريخ تستند إلى كتابه الأول . وبه
صار عمدة المؤرخين في أحوال دولة المماليك وأخبارها في الطور
الآخر من أطوار حياتها ، كما صار المرجع الرئيسى لحوادث القتح
العثمانى لمصر .

وأما أسلوبه فى الكتابة ونمط التأليف — فكما يقول المستشرق
الأوروبى مارجوليوث — « ينم كل منهما عن شخصية واستقلال فى
الرأى قل أن يشاركه فىهما معظم المؤرخين من قبل . »

والظاهر أن ابن إياس كان ذا موهبة فى التقند . فلم يقنع بسرد
الحوادث والوقائع ، بل تجاوز هذا كله إلى التعقيب والشرح . وطفق
يفلسف الأحداث مع شىء من القسوة فى الحكم ، شجعه على ذلك قرب
من البلاط ومعرفته بكثير من أخباره ورجاله .

السخاوى:

من تلاميذ أبى الحاسن رجل من أعظم المؤرخين المصريين هو
أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد السخاوى ، نسبته إلى بلده (سخا)
مركز كفر الشيخ . ولد سنة ١٤٢٧ ميلادية بحارة بهاء الدين قرب باب
الفتوح القديم بالقاهرة . ودرس على ابن حجر الذى اختص به

وأحبه وآثره . وكانت بين ابن حجر ووالد السخاوى هذا صداقة
قديمة . وترجم السخاوى لنفسه فى كتابه (الضوء اللامع لأهل القرن
التاسع) فى نحو ثلاثين صفحة من صفحات هذا الكتاب .

وتوفى أستاذه ابن حجر سنة ١٤٤٩ م فعزم السخاوى على الرحيل
من مصر إلى الشام ليتسلى عن موت أستاذه بالدرس والتحصيل . غير
أن أبويه حملاه على العدول عن ذلك فبقى بمصر يواصل دراسته والحديث
وتنقل فى سبيل ذلك بين مدن دمياط ومنوف والمحلة الكبرى وسمنود
والإسكندرية وغيرها . وذهب للحج مع والديه سنة ١٤٥٢ ميلادية
وأقام بمكة بضعة سنين . ثم عاد إلى مصر وأخذ يتنقل بينها وبين الشام
والحجاز . واتصل السخاوى بالأمير يشبك بن مهدي كاشف الوجه
القبلى . وكان هذا الأمير من أكبر رجال الدولة المملوكية فى عهد
السلطان قايتباى . وعن طريق هذا الأمير حصل السخاوى على إحدى
وظائف تدريس الحديث .

مؤلفات السخاوى

ذكر لنا السخاوى مؤلفاته الكبرى والصغرى فى أربع صفحات
كاملة من ترجمته لنفسه . ومنها فى التاريخ : كتاب التبر المسبوك فى
ذيل السلوك — فى أربعة أجزاء . وهو تكملة لتاريخ المقرئى الذى
سبق ذكره . وقال إنه ألف هذا الكتاب إجابة لرغبة الأمير يشبك .
أى أن السخاوى كتبته فى عهد السلطان قايتباى .

ثم كتاب وجيز الكلام في ذيل تاريخ دول الإسلام ، وهو تكملة
لكتاب الذهبي المورخ .

وكتاب الذيل المتناهي — تكملة لكتاب قضاة مصر لابن حجر .
وكتاب الذيل على طبقات القراء تكملة لكتاب الجزري
والسخاوي كذلك :

كتاب الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ .
وهو مقالة طويلة في قواعد الجرح والتعديل عند المؤرخين .
وكتاب الضوء اللامع لأهل القرن التاسع - وقد سبقته الإشارة إليه
وكتاب الجواهر والدرر في ترجمة ابن حجر .
وكتاب القول المنبئ في ترجمة ابن عربي .
ولا شك أن أهم هذه الكتب جميعاً كتاب .

الضوء اللامع لأهل القرن التاسع

وهو معجم كبير في اثني عشر مجلداً . واحد منها بأكمله خاص
بالنساء المسلمات . ولا عيب في هذا الكتاب الجامع غير أن مؤلفه لم
يتخلص من طبيعته التي ولد بها وهي التكبر والتعالى على الكبير والصغير
والميل إلى تجريح هؤلاء وهؤلاء كلما أمكن ذلك .

ومن أجل هذا ذكره ابن إياس في بعض كتبه فقال . « ألف
تاريخاً فيه كثير من المساوىء في حق الناس » . وقال عنه زميله السيوطي
في شيء من التندر والسخرية .

« ماترون في رجل ألف تاريخاً جمع فيه المساوى وثلب الأعراض وفوق فيه سهاماً على قدر أغراضه . والأغراض هي الأعراض . جعل لحم المسلمين جملة طعامه وإدامه . واستغرق في أكلها أوقات فطره وصيامه . ولم يفرق بين جليل وحقير ، إلى آخر ما قال . واشتدت الخصومة بين البخاري والسيوطي . وتبادلا غير قليل من السباب والتهم . وبتيا على هذه الحال حتى فرق الموت بينهما . فقد مات البخاري سنة ١٤٩٧ لليلاد . ومات السيوطي بعده بقليل .

السيوطي :

وهو جلال الدين عبد الرحمن بن محمد السيوطي ولد سنة ١٤٤٥ لليلاد بالقاهرة . وانحدر من أسرة ينتهي أصلها إلى شيخ من أهل الحقيقة والتصوف . جاء هذا الشيخ إلى أسيوط . وعاش بها زمن الدولة الأيوبية . وأنجبت هذه الأسرة رجالاً منهم القاضي والتاجر والمحتسب وصاحب المكرمات . أما أبوه عبد الرحمن السيوطي فهو آخر من أقام من أفراد هذه الأسرة بأسيوط . ثم رحل إلى القاهرة حيث تلقى العلم . واتصل بالأمير شيخو قتل بسببه درس الفقه بالجامع الشيخوني . وخطب بجامع ابن طولون . وتوفي سنة ١٤٥١ وولده جلال الدين في سن السادسة . وقد ترجم السيوطي لأبيه في كتابه حسن المحاضرة .

وحفظ السيوطي القرآن وآتمه وهو في التاسعة . وحضر مجلس ابن حجر في الحديث ، وكان موضع رعاية من علماء عصره إكراماً لوالده . ثم نجح في أن يخلف والده في الجامع الشيخوني بعد وفاته .

وبرع السيوطى فى فنون العلم على اختلافها عدا الحساب فإنه ثقل عليه لعدم ملامته لطبيعته ، وإلا المنطق فإنه عزف عنه كذلك . أما التفسير والحديث والفقه والنحو والمعانى والبيان والبديع والأصول والجدل والتصريف والإنشاء والترسل والفرائض والقراءات والطب والتاريخ فقد بلغ فيها الغاية فلم يترك ميदानاً من ميادين هذه العلوم دون أن يدرسه ويجرى فيه قلبه . وقال السيوطى عن نفسه إنه برع فى جميع العلوم المتقدمة ولكنه كان فى الستة الأولى منها يفوق أشياخه كلهم . وقال عن نفسه إنه اخترع علم أصول اللغة . وإنه وصل إلى مرتبة الاجتهاد المطلق ، فى علم الحديث والفقه والعربية .

بلغ عبد الرحمن السيوطى هذه المكانة العليا من العلم . ولكنه أفسد ذلك بميله الشديد إلى التفاخر والمباهاة بهذه المكانة . وأحصى الشيوخ الذين حضر عليهم فإذا هم أكثر من ستائة ، وعدّ من البلاد التى رحل إليها فى طلب العلم دمياط والإسكندرية والمحلة الكبرى والقيوم ثم مكة والمدينة .

وتصدى السيوطى لتدريس الفقه بالجامع الشيعونى خلفاً لأبيه كما قلنا ، ثم تصدى للإفتاء وإملاء الحديث بجامع ابن طولون ، وأضيف إليه وظيفة تدريس الحديث ووظيفة الإسماع بالخانقاه الشيعونية .

ومضى السيوطى يتولى جميع هذه الوظائف حتى جاوز الأربعين من العمر ، ثم تولى بعد ذلك مشيخة الخانقاه البيرونية ، وكانت يومئذ من أكبر خوانق القاهرة وأوسعها أوقافاً بالديار المصرية ، ومنذ ذلك التاريخ انقطع السيوطى عن التدريس ، وتجرد للعبادة ، ثم أخذ يتوفر على

التأليف حتى أربت كتبه — فيما يقولون — على الخمسمائة ، وكانت كلها ذات طابع معين ، هو طابع الجمع لا طابع التأليف بالمعنى الصحيح . ولا غرابة في ذلك فإن عصر السيوطي — وهو الجزء الأخير من عصر المماليك — كان عصر جمع وتلخيص وتكميل للكتب الأقدمين ، ثم جاء العصر العثماني بعد ذلك ففضى في هذه الخطوة ، بل تجاوزها إلى الشروح والحواشي والتقارير على النحو الذي شرحناه في مواضع أخرى من هذا الكتاب ، من كتب السيوطي ما يلي :

كتاب تكملة تفسير القرآن للشيخ جلال الدين المحلى أنهاء في أربعين يوماً .

وكتاب طبقات الحفاظ — وهو تلخيص وتكملة للذهبي .

وكتاب لب اللباب في تحرير الأنساب — وهو اختصار لعز الدين ابن الأثير (كتبه السيوطي فيما لا يزيد على عشرة أيام .)

ثم إن السيوطي كان كثيراً ما يخالف مألوف عصره ويغضب منهم وكانت كل غصبة من غضباته تكلفه رسالة طويلة يكتبها في يوم وليلة ، وكل هذه الرسائل محسوبة في مؤلفاته البالغ عددها خمسمائة !

على أن السيوطي بطريقته هذه استطاع أن يقرب كثيراً من العلوم إلى أهل عصره ، وأن يقرب كتباً كثيرة أيضاً من أيديهم بعد أن كان يهابها الناس لضخامتها حتى جاء هذا الرجل ولخصها وهذبها ، وانتشرت ملخصاته في جميع العالم الإسلامي من مراكش إلى الهند واليمن .

ثم تولى السيوطى وظيفة هامة من وظائف الدولة . هى وظيفة قاضى القضاة بمصر والشام وسائر الممالك الإسلامية المحاورة ، وأصبح بيده الولاية والعزل فيهم جميعاً ، وهى وظيفة كبيرة لم يظفر بها قط فى العالم الإسلامى سوى القاضى تاج الدين بن الأعز فى الدولة الأيوبية منذ أن صار لتلك الدولة سيادة على جميع بلاد الشرق الأدنى .

ثم عزل السيوطى من مشيخة الخاتمة البيبرسية بسبب أنه قطع أرزاق الصوفية بهذه الخاتمة بحجة أنهم خانوا طريقتهم ونسوا صوفيتهم ، فثاروا عليه ، وكادوا يقتلونه ، و انتهى الأمر بعزله كما رأينا واعتكف السيوطى فى بيت له بجزيرة الروضة ، وكتب فى ذلك رسالة عنوانها (تأخير الظلامة إلى يوم القيامة) .

وعرض عليه السلطان قانصوه الغورى منصب المشيخة بمدرسته فأبى و أثر العزلة ، وما زال السيوطى فى عزله حتى مات سنة ١٥٠٥ لليلاد .

يسير علينا بعد كل ذلك أن ندرك الفرق بين رجل كابن إياس ومن على شاكلته من المؤرخين الخلقص ، ورجل كالسيوطى . فالأول - وهو ابن إياس - اكتفى بالتاريخ واتخذة فناً مفضلاً عنده وقف عليه جهده وقلبه .

أما الثانى - وهو السيوطى - فقد جال فى كل ميدان وهام فى كل واد وسبح فى كل لجة ووزع موهبته على علوم وفنون شتى .

مؤرخو العصر العثماني

أصاب التاريخ في هذا العصر ما أصاب سائر الآداب والعلوم من الضعف ، ومع هذا وذاك فقد ظهر في ذلك العصر عدد من المؤرخين كتبوا في فن التراجم والسير ، وكتبوا كذلك في تاريخ بعض البلاد والدول ، وإن كانت كتابة هؤلاء وهؤلاء لم ترق إلى كتابة من سبقهم من مؤرخي العصور التي تقدمت ، لا نستثنى من هذه القاعدة غير واحد فقط هو الجبرتي .

ومن مؤرخي السير في العصر العثماني على سبيل المثال :

شمس المدين الشامي :

أبو عبد الله محمد بن يوسف الشامي ، رحل من الشام إلى مصر وأقام بها إلى أن توفي سنة ٩٤٢ هـ وهو معدود من المحدثين ، وله مع ذلك كتب في التاريخ منها :

١ — (كتاب السيرة النبوية) قال إنه جمعها من أكثر من ثلثمائة كتاب وتحسرى فيها الصواب ، فجاءت في نحو سبعائة باب .

٢ — (عقود الجمان في مناقب ابن حنيفة النعمان) دافع فيه عن أبي حنيفة ورد به على كتاب ظهر في تلك الأثناء طعننا على هذا الإمام

ابن طولونه الصالحى :

محمد بن علي بن محمد بن طولون ولد بالشام وتربى في مصر ، وأقام

بها ، وألف بضعة وعشرين كتاباً منها :

- ١ — الغرف العلية في تراجم متأخرى الخفية
- ٢ التمتع بالأقران بين تراجم الشيوخ والأقران .
- ٣ ذخائر العصر في تراجم نبلاء مصر .
- ٤ إنباء الأمراء بآباء الوزراء
- ٥ التؤلؤ المنظوم في الوقوف على ما اشتغلت به من العلوم ،

* * *

وأخيراً نأتى إلى إمام المؤرخين في العصر العثماني غير مدافع ونعني به :

المجبرتي :

أجل - إذا ذكرنا المؤرخين في ذلك العصر العثماني فلا ينبغي لنا أن ننسى الشيخ عبد الرحمن المجبرتي ، فقد عاش جزءاً كبيراً من حياته في العصر العثماني ، وعاش الجزء الباقي من حياته في سنوات الحملة الفرنسية ، وبعض سنوات حكم محمد علي ، ولذا كان خير من أرخ لهذين العهدين وللعصر العثماني معاً ، وذلك في كتابه المشهور

عجائب الآثار في التراجم والأخبار

وهو كتاب في أربعة مجلدات أرخ فيه لما بين ثلاثين سنة (أى من سنة ١١٠٦ للهجرة إلى سنة ١٢٣٦) . ومعنى ذلك أنه أرخ لسبع ومائة سنة من سنوات العصر العثماني ، ثم أرخ لسنوات الحملة الفرنسية الثلاث ، ثم أرخ لعشرين سنة من تاريخ مصر بعد ذلك ، ومات في سنة ١٢٤١ هـ .

ولتأليف هذا الكتاب قصة يرويها المؤرخون . فالتقارى، لكتاب (عجائب الآثار) يفهم من ثباته أن تفكير الجبرق فى كتابة هذا التاريخ جاء أصلاً من الشيخ خليل المرادى الحسينى مفتى دمشق المتوفى سنة ١٢٠٦ هـ ، فقد كان المرادى مشغولاً بترجمة أعلام المائة الثانية عشرة ، وذلك فى كتابه (سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر) فى أربعة أجزاء .

ولما كانت هذه الدراسة تتطلب مجهوداً عالياً تحتم عليه الاستعانة بغيره من علماء عصره ، فقد أرسل المرادى هذا فى سنة . ١٢٠ للهجرة إلى الشيخ أبى الفيض محمد مرتضى الزبيدى الذى سبق ذكره فى الفصل الثانى من فصول كتابنا هذا - وكان من أشهر علماء الوقت - يرجوه أن يساعده فى هذا العمل العلمى الضخم . فاشتغل الزبيدى بذلك ، ثم رأى أن يستعين هو الآخر بتلميذه الجبرق ، فدعاه فى عام ١٢٠٣ إلى الهجرة للاشتراك معه فى ذلك .

وبقيت الفكرة تختمر سنوات كثيرة فى فكر الجبرق حتى توفى أستاذه الزبيدى واستطاع الحصول على ما ترك من أوراق وكراسات جمع فيه جزءاً من هذا التاريخ ثم جاءت الحملة الفرنسية فرأينا الجبرق يكتب كتاباً آخر عرف باسم (مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيين) - وأخيراً ربط الجبرق بين مذكراته القديمة فى تراجم المئة الثانية عشرة وهذا الكتاب الأخير فى تاريخ الحملة وتألف له من ذلك الربط كتابه المعروف (بعجائب الآثار فى التراجم والأخبار) .

ولكن متى كان الدافع النفسى القوى الذى دعا الجبرقى إلى تأليف كتابه هذا ؟

لقد بدأ الجبرقى كتابه تاريخه عام ١٢٢٠ للهجرة ، ومعنى ذلك فى جلاء تام أن هذا الدافع النفسى الذى نريد أن تبينه إنما هو شعور الجبرقى بخيبة أمله فى الحكم العثمانى عند ما وازن بينه وبين الحكم الفرنسى . وقد ساء هذا الحكم العثمانى إلى درجة كبيرة بعد عودة الأتراك العثمانيين إلى مصر ونجاحهم فى طرد الفرنسيين منها ، فإذا ذاك أصبح الجبرقى - كما يقول بعض المؤرخين المحدثين - أكثر موضوعية وأقل عاطفية مما كان عليه من قبل حين كان يشغل بتأليف كتابه مظهر التقديس الذى تقدم ذكره .

استهل الجبرقى كتابه بسنة ١١٠٦ وأجمل الأحداث إجمالاً إلى سنة ١١٢١ ، وشرح بعد ذلك يتابع السنين واحدة فواحدة ، يبسط أحداثها ، ويترجم لمن مات فيها ، وتوخى الإسهاب فى ذكر بعض العلماء - وخاصة الزبيدى - كما أسهب فى ترجمة كثير من الشعراء ومنهم البدرى الحجازى وابن الصلاحى ، وكان كثير الاستشهاد بشعر الأقدمين والمحدثين على السواء ، ولأنه عالم فلكى فقد ذكر الأحداث الفلكية ، ولأنه عالم حسابى فقد جعل يطيل الجدل فى النقود وسكها وما فيها من ذهب وفضة .

ولما وصل إلى عهد الحملة الفرنسية اكتفى بإثبات كتابه (مظهر التقديس) برمته بعد أن حذف منه مقدمته والفصول التى كتبها صديقه الشيخ حسن العطار .

والحق أن الشيخ الجبرقى قد امتاز عن سبقه من المؤرخين بأمور

منها : عنايته بكل صغير وكبير مع الدقة البالغة والامانة العلمية الكاملة قدر ماوسعه المجهود . ومنها - أنه كان برغم هذا كله يتأثر بنظرة الشخصية إلى الأحداث والأشخاص ، فإذا أحب شخصاً أسهب في مدحه ، وإذا أبغض شخصاً لم يكف عن ذمه ، وهو من هذه الناحية لم يستطع قط أن يرتفع عن مستوى عصره ، ومن ثم لم يذكر شيئاً عن الصلات التي كانت بين مصر وبقية الدول الأخرى فيما عدا تركيا .

أما أسلوبه في الكتابة فلم يكن جارياً على نمط واحد ، فهو مرة بليغ غير مسجوع وأخرى مسجوع ، وفي ثالثة يبدو قريباً من العامية . وهذا يدل على أن تأليفه لم يكن في فترة واحدة من فترات حياته بل كان في فترات متباعدة من حياته .

كتب الجبرتي عن عهود ثلاثة هي : أواخر الحكم العثماني ، والحلة الفرنسية ، وأوائل حكم محمد علي . ولم يكن الجبرتي راضياً عن هذه العهود الثلاثة ، لأن عهد المماليك كان حافلاً بالفساد والدم . وكان لا يأمن فيه أحد على حياته مهما أوتي من الحذر والحرص . وأما الحلة الفرنسية فحسبها أنها هزمت المسلمين ، ومن ثم وقف منها موقف الريية والكره الشديد ، وإن لم يمنعه ذلك من الإعجاب ببعض الأعمال الإنسانية الكبيرة التي قاموا بها في مصر . وأما عهد محمد علي فإنه لم يشهد منه إلا دور التحضير ، وهو الدور الذي كان فيه محمد علي المحتكر الأول لكل شيء ، ثم هو العهد الذي كان فيه هذا الوالي مضطراً إلى اصطناع العسف والشدة والاستبداد بكل شيء . ولو امتد الأجل للجبرتي أكثر من ذلك لكان من المحتمل أن يغير رأيه وأن يدخل فيما دخل فيه أمثاله من

شيوخ الأزهر كالشيخ حسن العطار وغيره من مسايمة النهضة التي بدأها محمد علي .

ولكن حسب الجبرتي أنه ترجم لهذا العدد الضخم من علماء مصر في ذلك الوقت ، ترجم في الجزء الأول من كتابه لمائة وستة وسبعين عالماً ، وفي الجزء الثاني لمائة وثلاثة وثلاثين عالماً ، أما الجزء الثالث والرابع فقد شغل فيهما الجبرتي بالأحداث الجسام .

ولا بأس من أن نورد هنا موجزاً بسيطاً لترجمة الجبرتي لوالده .

الشيخ حسن الجبرتي والد المؤلف :

ذكره المؤلف في وفیات سنة ١١٤٢ هـ وقال إنه حسن بن برهان الدين ابن محمد بن زين الدين بن عبد الرحمن الجبرتي ، نسبة إلى بلاد الجبرت بفتح الباء بأرض الحبشة ، وأسرته من الاقلية المسلمة هناك ، ولا تعرف من المذاهب غير مذهب الإمام أبي حنيفة ومذهب الإمام الشافعي ، ويتنهي نسبها إلى أسلم بن عقيل بن أبي طالب ، وكان أميرهم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم النجاشي الذي آمن بالنبي وإن لم يره ، وصلى عليه النبي صلاة الغيبة ، وقال فيهم إنهم قوم يغلب عليهم الصلاح والتقشف ، ولذا قصدوا إلى الحج أتوا مشاة من بلادهم إلى بيت الله الحرام ، ولهم رواق بالمدينة ، ورواق بمكة ، ورواق بالأزهر ، ولله عز وجل مؤلف في تاريخ أخبار بلادهم وتفصيل أحوالهم ونسبهم ، ومنهم القطب الكبير الشيخ إسماعيل الجبرتي تلميذ ابن عربي ويسمى قطب اليمن ، ومنهم الشيخ عبد الله الجبرتي الذي ترجم له

السيوطي والذي كان يعتقد فيه الملك الظاهر برقوق حتى أوصى عند موته بأن يدفن تحت قدسه الح . وما زال المؤلف يرقى بقومه وآله من الأحباش حتى ذكر منهم بلال بن رباح مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم وخازنه على بيت المال ، وذكر كثيرين غيره على سبيل التباهي .

ثم قال المؤلف عن الشيخ عبد الرحمن الجبرتي إنه المجد السابع من أجداده ، وإنه هو أول من ارتحل إلى مصر ماراً بمكة وجدة والمدينة وإنه دخل الجامع الأزهر وحضر العلم على شيوخه ، وتولى بعد ذلك مشيخة رواق الأحباش ، وخلفه أولاده وأحفاده على قدم أسلافهم من الصلاح والعلم والتقوى حتى كان عهد هذه الأسرة بالشيخ حسن والد المؤلف . فذكر أن ولادته كانت في سنة ١١١٠ هجرية ، وأن أباه توفي وهو رضيع فكفلته أمه . وأتم حفظ القرآن في عشر سنوات ، وتخرج على كبار العلماء في عصره ، وربط المؤلف بين هؤلاء العلماء وبين أبي حنيفة النعمان برباط مسلسل ثم قال : ومع اشتغاله بالعلم كان يعانى التجارة والبيع والشراء والمشاركة والمقايضة ونحو ذلك .

أما المؤلف نفسه وهو الشيخ عبد الرحمن الجبرتي صاحب كتاب (عجائب الآثار) .

فقد نشأ في بيئة علمية عالية ، وعلى رأس هذه البيئة والده الذي كان من كبار العلماء في زمانه ، وتخرج الفتي على أبيه وأصدقاء أبيه من الشيوخ كالشيخ عبد ربه ، والشيخ موسى الجناحي وغيرهما . وكان من عادة والده أن يقص على ولده كل يوم شيئاً من تاريخ آبائه وأجداده في الحيشة ومصر . فأثر ذلك في نفس الفتى وطبعه منذ الصغر

على حب التاريخ ، وبقي الفتى على هذه الحال حتى سلبه أبوه للشيخ عبد الرحمن العريشى شيخ الرواق الشافى بالجامع الأزهر فلقنه المذهب الحنفى .

وترك الشيخ حسن الجبرى لابنه ثروة طائلة وخزان حافلة ، وترك له ما هو أثمن من كل ذلك ؛ محبة لكثير من العلماء والفضلاء وصداقته لهم . ثم ما كانت تنتهى السنة التى مات فيها والده حتى قام برحلة طويلة إلى الوجه البحرى ماراً بكفر الزيات وطنطا وإيبار ، فوه وإدكو ورشيد ودمياط والمنصورة وأبي قير والإسكندرية . ثم عاد الجبرى إلى القاهرة واستأنف اختلافه إلى الأزهر وحضوره حلقات الدرس فيه والاختلاط بالجناحى والصبان والكردى والطائى والصعيدى وأحمد الطهطاوى وعبدربه وغيره من العلماء الذين أجازوه فى علوم شتى ، منها الفقه واللغة ، فأضاف هذا كله إلى ما سبق أن حصله باجتهاده من علوم الحساب والفلك والهندسة .

وبعد قليل غدا الجبرى قائماً بالتدريس فى الجامع الأزهر ، وكان يجتهد فى أن يحتذى طريقة أستاذه السيد المرتضى الزبيدى فى تدريسه ، وكانت طريقة هذا الأخير تبدأ بالشعر الذى يعجب السامعين ويحببهم فى الاستماع إلى الدروس . وكان صيت هذا العالم قد ملأ مصر وتجاوزها إلى غيرها من أقطار العالم الإسلامى . وترك هذا فى نفس الزبيدى غروراً كثيراً وزهواً عظيماً حتى كتب لأحد الأمراء مدعياً أنه المهدي المنتظر ، وبقى الحب بين التليذ وأستاذه على أشده حتى مات الأستاذ الزبيدى سنة ١٢٠٥ للهجرة ، واستمر

الجبرتي في دروسه وتأليفه حتى أضر الإجهاد بصحته وتركه عصبي المزاج سريع الغضب إلى درجة كبيرة !

وأنت الحملة الفرنسية إلى مصر فتغيب الجبرتي أياً ما عن القاهرة ثم عاد إليها فعرف أن عشرة من إخوانه العلماء عينهم بونا برت أعضاء في الديوان الذي أنشأه للنظر في مصالح الرعية . وقبل خروج الفرنسيين بقليل وجدنا الجبرتي يشترك في هذا الديوان الكبير ويصبح له رأى في القضايا الكبرى كما يقول ، وقد ساعده ذلك على الاطلاع على المكاتبات والمراسلات ومحاضر الجلسات ، فأعانه كل ذلك بطبيعة الحال على المضي في تأليف كتابه عجائب الآثار .

(وبعد) فهذه حركة التاريخ ، وتلك جهود المؤرخين في كتابة هذا التاريخ ، وهي جهود تزيينا بوضوح كيف أن مصر وجدت من الذين عنوا بكتابة تاريخها من جميع نواحيه أكثر مما وجد غيرها من المراكز الإسلامية من هذه العناية التاريخية ، فدل هذا دلالة لا تقبل الشك على أن مصر كان لها من السلطان على قلوب أهلها في تلك العصور أضعاف ما للأقاليم الإسلامية الأخرى من هذا السلطان على قلوب أهلها والمنتهمين إليها .

ولا غرابة في ذلك فصر خليفة بكل هذا المجهود الذي بذل في كتابة تاريخها ، والمصريون من أهدي الشعوب إلى مثل هذه الجهود التي أثبتوا بها حبهم لبلادهم ولإثارتهم لوطنهم على بقية الأوطان الأخرى .

الفصل الرابع

الأدب الشعبي في مصر

اختلف الباحثون في مدلول كلمة « الأدب الشعبي » ، ولكنهم متفقون على أنه الكلام الذي يعبر به الشعب — أفراداً وجماعات — عن مشاعرهم وأحاسيسهم . أو أنه نتاج الملايين من هؤلاء الأفراد والجماعات جيلاً بعد جيل . ومعنى ذلك أن الأدب الشعبي لا يمكن أن يكون ثمرة فرد بعينه في زمن بعينه مهما أوتي هذا الفرد من البراعة الفنية ما يجعله قادراً على تصور الحالات النفسية التي مرت بالشعب في الوطن الذي ينتسب إليه . ومعنى ذلك أيضاً أن الفنان الشعبي يتداخل فنه في فن المجموع ويصبح جزءاً منه . ولكن فنه مع هذا يظل محبباً إلى النفوس ، سريع الذبوع بين الجماعات .

وقد عرفت مصر في عصر المماليك — أو قبله بقليل — ألواناً من الأدب الشعبي وصلت إلينا ، وأعجب بها الأوروبيون إعجاباً عظيماً حين اطلعوا عليها . ومن هذه الألوان التي بين أيدينا الآن :

١ — قصص ألف ليلة وليلة ٢ — سيرة بني هلال ٣ — سيرة الظاهر بيبرس وسنعرض بإيجاز لكل واحد من هذه الألوان الثلاثة .

ألف ليلة وليلة

وهو مجموعة من القصص يختلف عددها كما يختلف ترتيبها باختلاف

النسخ التي لهذا الكتاب . وكلها تدور في إطار واحد . والظاهر أنها ليست لمؤلف واحد .

وقيل في أصل هذا الكتاب إنه ترجمة لكتاب هندي فارسي قديم بعنوان (هزار افسانه) ومعناه ألف خرافة . ثم ترجم إلى العربية في القرن الثامن الميلادي . ثم أضيفت إليه مجموعتان : إحداهما بغدادية في القرنين العاشر والحادي عشر الميلادي . والأخرى مصرية في أوائل دولة المماليك - أو بعد زمن صلاح الدين بقليل . ثم ما زالت السنون تضيف إليه ما تضيف حتى إذا كان القرنان الرابع عشر والخامس عشر الميلاد اتخذ هذا الكتاب صورته الأخيرة - وهي الصورة التي وصلت إلى أيدينا بعد ذلك بسنوات قليلة^(١) .

معنى ذلك أن قصص ألف ليلة وليلة مرت بأطوار ثلاثة :

أولها — الطور الذي وجدت في أثنائه على ألسنة العامة ، ووعتها ذاكراتهم ، وتناقلتها أفواههم وأصبحت بعد ذلك نوعان (الفلكلور) الشعبي بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة .

وثانها — الطور الذي تهيأت فيه هذه القصص على أيدي الكتاب والأدباء لأن تصبح قصصاً مكتوبة في كتاب يقرؤه بعض الناس ويستمتع إليه بعضهم الآخر .

وثالثها — الطور الذي شهد قصص ألف ليلة وليلة محددة في مجاميع . منها المجموعة البغدادية ، ومنها المجموعة المصرية .

(١) قبل أن النسخة التي بأيدينا يرجع تاريخها إلى سنة ٩٤٣ للهجرة .

ومعنى ذلك إذن أن الوطن الذى ينسب إليه مؤلف الليالى موضع خلاف بين الباحثين إلى الآن . فبعضهم يقول إن الصورة الأخيرة لهذا الكتاب تدل على أنه كتب فى مصر . وبعضهم يقول إنما تدل كذلك على أنه كتب فى بغداد . وإن كانت الكثرة تميل إلى رأى القائل بأن هذا المؤلف المجهول مصرى البيئة . بل تقول إن هذا المؤلف شخصيتان وليس شخصاً واحداً فى الحقيقة . أحد هذين الشخصين وصف الحياة الاجتماعية فى مصر الإسلامية . والثانى يهودى أسلم وأدخل فى (الليالى) كثيراً من العناصر الإسرائيلية .

مهما يكن من شئ فكتاب ألف ليلة وليلة لا ينسب إلى بيئة واحدة ، أو وطن واحد ، أو كاتب بعينه ، أو قاص بذاته . وإن كنا لا نذكر أن الطابع المصرى عليه أغلب ، وأن الحياة المصرية فيه أظهر وأبين .

على أننا بعد هذا وذاك إن استطعنا أن ندل على أصل هذا الكتاب فإننا لا نستطيع أن نحدد تاريخ هذا الأصل إلى الآن .

والمهم بعد ذلك أن نتعرف على الطابعين العراقى والمصرى فى كتاب ألف ليلة وليلة فنقول :

(أما بغداد) فأثرها فى الكتاب يتضح من أخبار الخلفاء ، وبلاط الخلفاء ، وقصور الخلفاء . ونخص بالذكر منهم هارون الرشيد . فقد وصفت (الليالى) بطريقتها القصصية اللطيفة أسلوب هذا الخليفة فى الحكم وحبه للرعية وحب الرعية له . ووصفت سيره

في ظلام الليل متشكراً ليتفقد أحوال الرعية ثم يخبرهم بها في صباح اليوم التالي . وباختصار شديد كان اسم الرشيد في هذه القصص رمزاً للعصر الذهبي للأمة الإسلامية . وكان من السهل أن تحكى عنه الأعاجيب ، وتدور حوله الأساطير . وهو ما فعلته بالضبط قصص ألف ليلة وليلة . ثم لم تكتف الليالي بكل ذلك حتى أخذت تصف الرشيد بأنه إنسان متعدد الجوانب . فهو متدين كأقصى ما يكون المتدينون ، وهو محب لمباهج الحياة في الدنيا كأشد ما يكون عليه المحبون للحياة الدنيا . (والليالي) في كل ذلك تتفق مع ما نقرؤه في كتب الأدب العربي من أخبار قصار عن الرشيد في هذه النواحي .

وأما (البصرة) فقد كان لها هي الأخرى ظل في كتاب ألف ليلة وليلة . وظهر هذا الظل في بطش حكام البصرة بالرعية . وربما كان لهذا صلة ما تارخ هذه المدينة من مدن العراق . وإلا لما استطاع القاص أن يأتي بهذه الصورة التي اشتمل عليها الكتاب .

وندع الطابع البصرى والطابع البغدادى جانباً ونظر في الطابع المصرى كما يتضح لنا في كتاب ألف ليلة وليلة .

والحق لقد فضحت البيئة المصرية على (الليالي) بكل ما فيها . وكان أعظم ما يمتاز به تلك البيئة المصرية ملاح وأشياء :

فن ملاح البيئة المصرية يومئذ السحر والطلاسم والرق والتائم ونحو ذلك . ومن ملاح هذه البيئة المصرية كذلك التاجر المصرى بصورته المعروفة حتى إنك لتتظر في أيامنا هذه إلى هذا (التاجر المصرى)

في جهة (الغورية) فلا تكاد ترى فرقاً بينه وبين ذلك التاجر المصرى الذى يتحدث عنه كتاب ألف ليلة وليلة .

ومن ملاح تلك البيئة المصرية (الحمام) وهو ملتقى الخاصة والعامة في العصور الوسطى ، ومكان التدابير الخفية ، والمؤامرات الغرامية التى تدبرها عجائز المدينة حينما وخدم السلطان حينما آخر .

ثم من ملاح تلك البيئة المصرية كذلك (سوق الرقيق) وهو مصدر حيوية دافقة في قصص ألف ليلة وليلة . ففي هذه السوق التقت طبقات الحكام ، وطبقات الصناع ، وطبقات التجار . ولكل طبقة تقاليدھا وأخلاقھا ، وعاداتھا ، وأحكامھا ، وقصصھا ، وخيالھا .

وصورت لنا (الليالى) كيف كان الفرق عظيماً بين أخلاق الصناع وأخلاق التجار . فطبقة الصناع تكره الغريب ، وتنظر إليه على أنه جاء ينافسهم في صناعتهم ، ويستأثر بها دونهم . على حين أن طبقة التجار على عكس ذلك - كانت تنظر إلى التاجر الغريب على أنه مصدر جديد من مصادر الثروة واتعاش للحركة التجارية في المدينة . ومن هنا كانت تكرم الضيف وترحب به وتغلب على طباعها الرقة أو الملاينة وحسن المعاملة

على أن خير ما صورته لنا (الليالى) في الحقيقة جانب غريب من جوانب الحياة المصرية في تلك العصور ونغنى به حياة (الشطار) . ويظهر لنا ذلك في قصة علاء الدين أبى الشامات . وهى القصة التى تصف لنا مهارة الشطار في الخطف والضحك من الناس . كما تصف لنا في الوقت

نفسه مروءتهم وشهامتهم ؛ لأنهم سرعان ما يردون إلى الناس ما خطفوه منهم مكتفين بالضحك والتسليه . وفي قصة علاء الدين أبي الشامات ، وقصة دليله المختالة ، وقصة زينب النصابة ، وقصة الزبيق المصرى ما يدل على هذا الجانب الفك من جوانب الحياة المصرية .

من أجل ذلك لم يزن الشعب المصرى أعمال (الشطار) بميزان الأخلاق ، ولا نظر إليهم الولاة والحكام على أنهم خطر على النظام أو الأمن العام ، وإنما نظر الجميع إلى هذه الأعمال التى تصدر عن الشطار على أنها من قبيل الألعاب البهلوانية ، والحركات التى يقصد بها إلى مجرد الضحك البرى . فهم — أى الشطار — لا يؤذون أحداً ، ولا يفسكون دما كما يفعل الطارئون على مصر من الأعراب الذين همهم القتل والسلب والإضرار بمن تصل إليه أيديهم من العباد .

ومن ثم كان الفرق عظيماً فى (الليالى) بين صورة رجل (كأحمد الدنف) وعصابته من الشطار وصورة الأعرابي الذى أتى للنهب والسلب والإيذاء : الصورة الأولى تنزع إعجاب العامة والخاصة ، والصورة الثانية لا تحظى منهم بغير السخط والسخرية .

الحق لقد أفلحت قصص ألف ليلة وليلة فى أن تمدنا بصورة دقيقة من الحياة المصرية الإسلامية فى العصر الوسيط بكل ما فى هذه الحياة نفسها من جد ولهو ، وعادات وأخلاق ، وطباع وخرافات . فوصفت لنا الأعياد والمواسم وفرح الشعب بالسلطان الجديد والمولود الجديد وكيف كان يمتزج هذا كله بالغو عن المسجونين ، ورفع المكوس عن

كواهل المصريين . كما وصفت لنا الليالى كيف كان المصريون يخافون
الحسد ، ويأخذون أنفسهم بالتفاؤل والتشاؤم ونحو ذلك .
وأخيراً وجدنا قصص ألف ليلة وليلة يصف لنا عسف الحكام
وظلم الولاة بطريقة تتفق ومزاج المصريين ، بل تتفق وشخصيتهم التى
تكونت لهم منذ أقدم العصور .

فإذا كان عسف الحاكمين قد اتخذ فى القصص البصرى فى ألف ليلة
وليلة صورة البطش من جانب الحاكم والسخط وحب الانتماء من جانب
المحكوم فإنه قد اتخذ فى القصص المصرى صورة السخرية والفكاهة من
الحاكم الذى صدر عنه هذا البطش . وذلك بالضبط كما نرى هذه الطريقة
فى كتاب من كتب المصريين فى العصر الأيوبي . هو الكتاب الذى
ألفه ابن عماتى بعنوان (الفاشوش فى حكم قراقوش) . فانظر كيف أن
هذه الطريقة لم تخطئ المصريين فى كل عصر من عصورهم وحالة
من حالاتهم ؟
بقى أن نشير إشارة موجزة إلى .

طريقة تأليف الكتاب

ويقال فى هذا إن طريقة تأليفه هندية خالصة . أى أنها طريقة تجعل
الحكايات سلسلة متماسكة الحلقات متعاقبة النسق والخطوات . وذلك بأن
ترتبط جميع الحكايات فى الكتاب بحكاية أصلية تأتى فى أوله .
على نحو ما نرى فى مثل كتاب « كليلة ودمنة » . أو بأن نرى القصص
والحكايات موزعة على عدة أبواب فى الكتاب بحيث تكون الأقصوصة

أو الحكاية في أى باب من هذه الأبواب مقدمة الحكاية أو الأقصوصة في الباب التالى له مباشرة . وذلك على نحو ما نرى في كتاب (فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء) لأحمد بن عريشاه الدمشقى .

والحكاية في ألف ليلة وليلة تجرى على جميع هذه الطرق : تجرى على الطريقة الهندية في الأفاصيص المتداخلة بعضها في بعض كحكايات البنات الثلاث ، والصعاليك الثلاثة ، وحكاية الخياط والأجرب والطبيب ، وحكاية ورد خان ونحوها .

كما تجرى الليالى على الطريقة الفارسية في الحكايات المفردة . فحكايات العشاق وما يجرى مجراها مبنية على نمط فارسي في اعتمادها على الحب الوهمى الذى يصيب ظرفاء الشباب عقب طيف للحبيب يزورهم في الكرى . ثم تجرى الليالى كذلك على طريقة عربية في الأفاصيص الصغيرة المقتبسة من كتب الأدب كحكاية حاتم الطائي ، وحكاية إبراهيم المهدى وحكاية خالد بن عبد الله القسرى .

وأما أسلوب الليالى فأدنى إلى العامية وإلى كثرة الحشو وكثرة التضمنين ، وإلى التصريح دون التلميح . وذلك كله فضلاً عن جريه بجرى السجع على طريقة ابن العميد والقاضى الفاضل . ويتظرف أحياناً بذكر مصطلحات العلوم النغلية ومنها النحو على سبيل التشبيه والتورية . كقوله في قصة قر الزمان « وبتنا على ضم وعناق ، وأعمال حرف الجر باتفاق ، واتصال الصلة بالموصول وزوجها ككتوين الإضافة معزول ، الخ ومع هذا وذاك فإن خير ما يمتاز به أسلوب الليالى هو الوضوح والجرأة والصدق والصراحة وشدة الأسر .

والكتاب لهذه الصفات الأخيرة قد جذب إليه كثير آمن أدباء الغرب ففتتوا به ، ونقلوه منذ أوائل القرن الثامن عشر الميلادى إلى كل لغة . وقال عنه فولتير : « إنه لم يزاوَل فن القصص إلا بعد أن قرأ ألف ليلة وليلة أربع عشرة مرة » . وأما القصص الفرنسى إستندال فكان « بمعنى أن يحو الله من ذاكرته ألف ليلة وليلة حتى يعيد قراءته ليستعيد ذاكرته »

سيرة بنى هلال

من الآداب الشعبية التى عرفتها الديار المصرية — فيما خلا ألف ليلة وليلة — أدب السير ؛ مثل سيرة عنتره ، وسيف بن ذى يزن ، والوزير سالم ، وسيرة بنى هلال ، وسيرة الظاهر بيبرس . وغيرها .

وقد تسلسلت مصر هذه السير جميعها بعد العصر الفاطمى . أو بعبارة أخرى بعد أن أصبح الساطان الفعلى فى يد غير العرب . أفلا يدل ذلك إذن على أن مصر بعد إذ تمَّ إسلامها وتم استعراؤها أرادت أن تقف أمام الدول غير العربية موقف المؤمن بشخصيته ، الشاعر بذاتيته ، الحريص على التعبير عن كل ذلك ؟

بلى — وجدت مصر فى جميع هذه السير التى أشرنا إليها انتصاراً للعروبة ، واستمساكاً بها ، وإخلاصاً لها وللإسلام . أى أن مصر بعد أن استقرت من الناحية السياسية — وكان ذلك بعد مضى قرن أو قرنين من الزمان على الفتح — أصبحت لا تعنى بالعصبية القبلية ، ولا بالتفرقة بين عدنان وقحطان ، أو بين القيسية واليمنية ، وإنما قصرت عنايتها على العروبة من حيث هى . وكما أن مصر كانت تقبل

كل فاتح أجنبي عنها مادامت تعرف أنه مسلم ، فكذلك حاولت مصر في القصص الشعبي أن تخلع على أبطالها وشجعانها صفة العروبة . فعلت ذلك بالظاهر بيرس ، فأخرجته من الجنسية الجركسية التي ينتمى إليها وخلعت عليه صفة العروبة التي أرادتها له . وكذلك فعلت مصر في معظم القصص الشعبي الذي وصل إلينا .

على أننا لا نستطيع هنا أن نتحدث عن جميع السير الشعبية التي مرت بالديار المصرية . بل نحن مضطرون إلى الاكتفاء منها بسيرتين فقط هما . ١ — سيرة بني هلال

٢ — وسيرة الظاهر بيرس

فأما (سيرة بني هلال) فكما يتبين من اسمها ليست سيرة فرد بل جماعة . ومعظم أحداث هذه السيرة وقعت في غرب العالم الإسلامي لا في شرقه في الحقيقة . أي أن مسرح هذه الحوادث هو شمال إفريقيا ، والتاريخ يحدثنا عن هذه البلاد أنها اضطربت عقب وفاة الفاتح العربي الأول (عقبة بن نافع) . فقد ارتدت قبائل البربر هناك عن الإسلام ، حتى إن الوليد بن عبد الملك اضطر إلى فتحها من جديد على يد (موسى بن نصير) . ومنذ يومئذ والعروبة والإسلام في كفاح دائم مع سكان تلك الجهات ، ولا شك أن سيرة بني هلال صورة من صور هذا الكفاح . وهي صورة رسمت بطريقة شعبية لا تاريخية . ومع هذا وذاك فإنها تعتبر وثيقة تاريخية لا تقل في أهميتها مطلقاً عن الروايات المدونة في أمهات الكتب . ثم هي في الوقت نفسه — كأغنية رولان

في الأدب الأوربي — تعبير صحيح لشعب كامل عن مشاعره الجماعية
لا الفردية .

سراهل السيرة الهرملية :

وقورخ سيرة بني هلال بطريقتها الشعبية لأجيال ثلاثة من أبناء الهلالية

فالجيل الأول

هو الجيل الذي نشأ في نجد منذ الجاهلية . وجاء الإسلام فاتصل
جدهم الأعلى (هلال بن عامر) برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورضى
عنه الرسول ، وأسكنه وادياً يقال له وادي العباس .

وولد لجدهم الأعلى ولد سماه « المنذر » . وتزوج المنذر هذا بامرأة
يقال لها « هذباء » ، لم تنجب منه ولداً . فحزن المنذر لذلك حزناً عظيماً
وسافر إلى بلاد السرو وعبادة . وهناك تزوج بأخرى يقال لها (عذباء)
وهي ابنة ملك السرو . ثم شاء القدر أن تنجب الزوجتان في ليلة واحدة
فرزقت هذباء (بجابر) . كما رزقت عذباء (بجبير) .

واستقر أولاد هذباء في نجد . كما استقر أولاد عذباء في السرو .

وكبر جابر وبلغ سن الزواج ، وأعقب أولاداً كثيرين منهم غلام
اسمه «رزق» . وحدث أن تزوج «رزق» هذا بعشر نساء لم ينجب منهن إلا ولداً
مشوه الخلقة . فحزن لذلك . وصمم على الزواج من الحادية عشرة ، واسمها
«خضراء» . وهي ابنة شريف مكة . فولدت له فتاه تسمى «شبيحا»
وفتي أسود اللون يسمى «بركات» . والسبب في سواد لونه أن «خضراء

خرجت مع بعض النساء . فرأت طائراً أسود ينقض على جموع الطير كلها فيغلبها ، ويقتل جانباً عظيماً منها . فأعجبت به ، ورفعت يدها إلى السماء ، ودعت الله أن يرزقها غلاماً على شاكلته . فاستجاب الله لها . وغضب زوجها الأمير رزق ، وأنكر الغلام . وأشار عليه أصحابه في حفل (السبوع) أن يطلق (خضراء) ففعل ذلك على كره منه . وخافت الأم أن ترجع إلى أبيها بهذه التهمة . ومشت في الصحراء حتى لقيها الأمير فضل الله بن يسم فعرفها ، واحترمها ، وأكرمها وترك ولدها « بركات » ينشأ مع ولديه نعيم ومنعم . وتعلم بركات الفروسية وعلوماً كثيرة أخرى . ثم عرف بركات في يوم ما أن فضل بن يسم ليس أباه . وأما أبوه فقالت له أمه إنه قتل على يد أمير اسمه (رزق بن نائل) .

وكان هذا الأمير منذ فارق زوجته خضراء قد استبد به الأسى فاعتزل قومه في خيمة عاش بها . ثم حدث بعد ذلك أن هاجم الهلاليون بلاد الزحلان . وأظهر بركات في هذه الحرب الأخيرة كل ضروب الشجاعة . ومن ثم أطلق عليه قومه اسم « سلامة » فأصبح من ذلك اليوم يعرف باسم « أبي زيد الهلالي سلامة »

وأصرت القصة بعد ذلك على أن يقع أبوه في أسره ، وكل منهاها لا يعرف الآخر ، وكاد الابن يقتل أباه بسيفه ، لولا أن أمه بادرت في هذه اللحظة بتعريف الابن حقيقة الأمر . إذ ذاك استرد الأب ولده وزوجته معا ، واعترف بنو هلال بمكان « بركات » وزوجوه بعد ذلك من ابنة أمير الزحلان واسمها « غصن البان »

الجيل الثاني

ومن أبطال هذا الجيل أبو زيد بن رزق المعروف بأبي زيد الهلالي سلامة ، والحسن بن سرحان ، ودياب بن غانم .

وفي هذه المرحلة من مراحل القصة اضطر الهلالية إلى ترك نجد والجزيرة العربية إلى بلاد الغرب ، وذلك بسبب الجلب . وتطوع ثلاثة نفر من شباب الغبيلة بارتداد الطريق . وهؤلاء الثلاثة هم مرعى بن نافلة ، ويحيى بن عمرة ، ويونس بن سرورة . وتسكروا إذ ذاك في زى شعراء متجولين . وانتهى بهم المطاف إلى تونس ، وهناك وقع الجميع في قبضة صاحب هذه المدينة . ولم ينجح منهم إلا أبو زيد الهلالي سلامة الذي كان قد رافقهم في هذه الرحلة ، ثم عاد منها إلى بلاده ، وأخبر قومه بما رآه فأعدوا لكل شيء عدته ، وتهيئوا جميعاً للسير إلى بلاد المغارب .

وفي طريقهم إلى تلك البلاد التقوا بالعجم تارة ، وبالمغول تارة أخرى ، وبالتركان تارة ثالثة ، ومروا في أثناء ذلك بحلب ، وحصص ، وحماء ، وبعلبك ، ودمشق ، والقدس ، وغزة ، والعريش ، وقتلوا أميرها البردويل ، ودخلوا مصر ، وضربوا خيامهم بجهة بلبيس ، ثم فروا إلى صعيد مصر حيث لقيهم أمير عربي اسمه (الماضي) فأكرمهم وتزوج امرأة كانت تسيرهم وتحمسهم للقتال ، وكانت تسمى (الجارية) وبالرغم من زواجه بها فإنه تركها تعود مع قومها إلى مباشرة المهمة التي سارت معهم من أجلها .

ووصل الهلالية إلى تونس الخضراء ، وملكها يومئذ هو (خليفة

الزناتي) . واتسهى الأمر بقتل زناته هذا وفك أسرى الهلالية مرعى ويحيى ويونس ، وقسمت البلاد على كبار القواد : -

فأخذ الحسن بن سرحان بلاد (القيروان) . وأخذ دياب بن غانم (تونس) . وأخذ أبو زيد الهلالي سلامة (الأندلس) . وبعد ذلك تنتقل السيرة إلى .

الجيل الثالث

ويعرف هذا الجيل في السيرة الهلالية (بالآيتام) إشارة إلى ما فعله دياب بن غانم الطاغية بآباء أولئك الآيتام . ومن ثم قام هذا الجيل كله على الأخذ بالتأثر من هذا الطاغية وأصحابه .

وأعاد التاريخ نفسه فإذا (بزيدان) بن أبي زيد الهلالي سلامة يجمع العرب من الشام والحجاز ويلتقي بهم جميعاً في صعيد مصر . ثم يسير بهم حتى يملكوا برقة وطرابلس . وكذلك يفعل الهلالية في الأندلس ، يخرجون منها سراغاً ليشدوا الحناق على تونس . ويشترك الفريقان بعد ذلك في فتح هذه القلعة المنيعه وفي قتل أميرها دياب بن غانم ثم يعاد تقسيم البلاد من جديد :

فيتنازل الهلالية عن تونس لابن خليفة الزناتي . ويباع الهلالية كذلك ابن الحسن بن سرحان أميراً عليهم . ويصبح أبناء القاضي (بدير) قضاة كذلك في المدينة . وتستقر كل عشيرة في مكانها القديم من بلاد المغارب . ويعود زيدان بن أبي زيد الهلالي سلامة إلى صعيد مصر .

رُيعود الذين جاءوا من الأندلس — وهم أبناء أبي يزيد الهلالي وأحفاده — إلى الأندلس .

على أن استقرار هذه القبائل خارج الجزيرة العربية لم ينسها ذكر نجد ولا غيرها من أجزاء هذه الجزيرة العربية .

وقد عبّر (مرعى) عن هذا الحنين أو الحب بقوله يخاطب (سعدة) بن خليفه الزناتى :

يا سعدة (نجد) العريضة مريّة ربيت بها أهلى وكل جدود
بلدى ولو جارت على مريّة وأهلى ولو شحّت على تجود



تلك سيرة بنى هلال — وهى السيرة التى يقضى فى إنشادها المنشدون فى المقاهى البلدية وفى الريف ستة شهور أو تزيد . وقد تأثر الأدب الأوروبى بهذه السيرة كتأثره بقصص ألف ليلة وليلة . وظهر هذا الأثر بوضوح فى شعراء (التروبادور) . كما ظهر كذلك فى قصة أوروبية تعرف باسم « أوكلسان ونيكوليت » .

الأنوار التى مرت بها السيرة

ومرت سيرة بنى هلال فى طورين ظاهرين :

أولهما — الطور الغنائى . وكان قبل القرن السادس الهجرى — يؤيد ذلك شواهد لابن خلدون تدل على أن السيرة فى أول أمرها كانت عبارة عن قصائد غنائية توزعتها أجيال مختلفة وبيئات متعددة .

وثانيهما — الطور القصصى . وقد ظهرت أماراته أيام ابن خلدون كذلك فى القرن الثامن الهجرى . وقد أورد ابن خلدون كذلك بعض نصوص عن خليفة الزناتى .

على أن هذا التطور الذى حدث للسيرة لم يحدث فجأة ، ولا تم طفرة وإنما استغرق من حياة الأمة العربية وقتا ليس بالقليل .

وتم سؤال يعرض للباحثين دائما فى سيرة بنى هلال وهو : هل من حق العرب أن ينظروا إلى هذه السيرة نظرة الأوربيين إلى الملاحم ؟ لأن المستشرق نيكلسون يقول .

« إن الأدب العربى لم ينتج ملحمة شعرية . وكل الذى أنتجه فى الواقع عبارة عن قصص تثرية لها طابع قريب من الملاحم . فأولى بها إذن أن تسمى قصصاً تاريخية ،

أما الذين درسوا السيرة الهلالية وسيرة الظاهر بيبرس وسيرة عنتر وغير ذلك من السير المعروفة فى تاريخ العرب فلا يوافقون على رأى نيكلسون ولهم فى هذه المخالفة حجج .

منها — أن هذه السير ليست من وضع فرد بعينه . ولكنها من وضع جماعة . ولا يمكن أن تنسب إلى جيل معين ، ولكنها منسوبة إلى أجيال وبيئات متعددة .

ثم منها — أن السيرة الظاهرية قائمة كلها على الشعر . والشعر فيها يقوم بوظيفة السرد ووصف مواقف الحب وغيره من العواطف البشرية . وبعض هذا الشعر فصيح والآخر عامى .

وفى السيرة الظاهرية — التى سأأتى شرحها بعد قليل — ثر . ولكنه

نثر مسجوع ومقفى . وفي هذا تختلف السيرة الظاهرية في أسلوبها عن ألف ليلة وليلة في أسلوبها كذلك .

وكذلك الشأن تماماً في السيرة الهلالية . فالشعر فيها يستوعب جميع الأحداث . ومعنى ذلك أن الشعر هو الأصل الذى تقوم عليه السيرة في الحقيقة . وما النثر في السيرة الهلالية إلا " ترديد للشعر وشرح له لا أكثر ولا أقل . ثم إن النثر في هذه السيرة يقوم بوظيفة أخرى لها أهميتها . وهى وصل القصائد الشعرية الطويلة والقصيرة في سياق واحد . ولا تنس أن هذه القصائد الشعرية ظهرت في فترات متباعدة وبنات متباعدة أيضاً . وهنا تظهر أهمية العمل الذى يقوم به النثر في السيرة الهلالية .

أليس في ذلك كله إذن ما يدل على وجود الملاحم في الأدب العربى ولكن بالصورة التى تتفق والتذوق العربى ؟
وتم ملاحظة جديدة بالذكر لا بد منها فى الحديث عن هذه السيرة .
وخلصتها أن الحب فيها حب واقعى ؛ إذ هو حب الزوج لزوجته ، يحزن لفراقها ، ويفرح للقاءها . وهو حب متبادل بين الرجل والمرأة .

السيرة الهلالية فى مصر

ولكن ما هى الصفات التى ظهرت فى السيرة الهلالية وجاءت مسيطرة للتقاليد المصرية والشخصية المصرية ؟
هل هى صفة الفروسية ؟
هل هى عبادة البسالة ؟
هل هى المعجزات ونحو أرق العادات ؟

هل هي الآثار والعاديات ؟

— ليست هذه الصفات هي كل ما استهوى المصريين ، وحبهم في هذه السيرة . بل إن الذى حببهم فيها على الحقيقة إنما هو عروبة السيرة . وكما يقول بعض الباحثين :

« ولا شك أن بقاء الخطوط البارزة في السيرة الهلالية على حالها ، إنما يعنى مسابقة هذه الخطوط للروح القوي المصرى ، ولفلسفة الحياة التى درج عليها المصريون في جميع عصورهم ، وملاءمتها للتقاليد القصصية المتوارثة في هذه البيئة . ويبلغ هذا الروح القوي أوجه في الجزء السابع من السيرة ، وهو الجزء الذى يتحدث عن صلة العرب الهلالية بالمصريين ، وهو المعروف بديوان مصر » .

ولقد صورت لنا السيرة كذلك كيف حكم بعض الهلاليين مصر ، وكيف أن منهم من طمع في الاستقلال بها مثل دياب بن غانم . ولكن المصريين قد تعودوا السخرية من الحاكمين . ولذا أجرت السيرة على بعض الشخصيات المصرية مثل هذه الكلمة ؛ وهى قول هذه الشخصية «... ولكن العرب لا يملئون أعين المصريين» . وفي هذه العبارة وأمثالها مسابقة للذهنية المصرية والخلق المصرى .

وفي السيرة الهلالية انطباعات كثيرة من هذه الخلقية المصرية والمعتقدات المصرية . مثال ذلك قولهم « مصر محروسة من عدوها بالآقطاب الموكلين بالأرض » . ومثل تعظيمهم لرجال الدين إلى حد أنهم أجلسوا شيخ الأزهر على كرسى السلطنة في قلعة الجبل . ومثل

اعتقادهم في الغيب عن طريق النجوم والرمل ونحو ذلك ، وإيمانهم
بالتقدير إيماناً لا حذله .

أما (المرأة) في سيرة بني هلال فهي المرأة المحجبة لأن الحجاب
كان هو الغالب على نساء مصر في تلك العصور وإلى عهد ليس بعيد .
وأما (القاهرة) فلها طلالها الواضحة في سيرة بني هلال . وهي طلال
لا تقل عن مثيلاتها في قصص ألف ليلة وليلة . فالقاهرة تبدو في السيرة
الهلالية واضحة كل الوضوح بخططها وأسواقها وحماماتها ودكاكينها
ومساكنها ونحو ذلك .

وأكثر من هذا وذاك أن مصر استطاعت أن تطور العصبية
القبلية في هذه السيرة إلى عصبية وطنية ، وأن تطور النزاع القبلي إلى ما يشبه
النزاع السياسي . وفي هذا ما يكفي للدلالة على عظم الأثر الذي تركته
مصر في هذه السيرة . فلنتقل منها إلى :

سيرة الظاهر بيبرس

وهي قصة فريدة من قصص الفروسية العربية . جمعت بين الحقيقة
والخيال . وجاءت صورة دقيقة من عادات الشعوب التي تحدثت عنها
— وأخصها الشعب المصري — ومعتقدات هذه الشعوب وما نسب
إليها من خرافات وخوارق العادات .

ولقد قام المستشرق لين Lane في كتابه (المصريون المحدثون)
بتلخيص هذه السيرة من أولها إلى آخرها . وهي سيرة طويلة تقع

فى خسين جزءاً . وقد وصلت القصتان الأخيرتان منها بتاريخ مصر إلى العصر الحاضر . ولهذه السيرة فرق ذلك خاتمة تيجيش بالعاطفة الوطنية لا القبلية . وفى ذلك ما فيه من مسامرة هذه السيرة لمقتضيات الأحوال وتطور الحياة المصرية ذاتها عبر الأجيال .

وعلى الرغم من ذلك ذهب الباحثون إلى أن القدر لم يقيض لسيرة الظاهر بيبرس من المؤلفين البارعين ما قيضه للخليفة العباسى هارون الرشيد فى قصص ألف ليلة وليلة . فكان الموهبة القصصية أخذت تضمحل بعد ظهور هذا الكتاب الأخير ؛ وهو ألف ليلة وليلة .

وعلى هذا وذاك فهناك طائفة من القصص الطويلة فى سيرة الظاهر بيبرس . ولكن من الصعب استخلاصها وروايتها منفصلة عن غيرها ،

أما التاريخ الذى ألفت فيه هذه السيرة ، والمؤرخون أو القصاص الذى اشتركوا فى تأليفها جيلاً بعد آخر فمن الصعب كذلك أن ندلى فىهما برأى . فقد نسبت هذه القصص تارة إلى (ابن الدينارى) وإلى أصحاب له عاونوه فى وضع بعض القصص . كما نسبت تارة أخرى إلى محمد بن دقيق العيد المتوفى سنة ٧٠٢ هجرية . وإن عرف عن هذا الأخير أنه كان مولماً بالأغاني الشعبية كالأزجال والموالي أكثر من ولعه بالقصص . ثم نسبت السيرة إلى أشخاص آخرين وهكذا .

بيبرس بين الواقع والخيال :

وقد لا يعنينا كل ذلك بقدر ما يعنينا أن نوازن بين صورة بيبرس في التاريخ وصورته في الأدب الشعبي .

فقد سمي الظاهر بيبرس في السيرة باسم (محمود) وجعل له نسب غريب . وخلعت عليه السيرة صفة العروبة ، ونزعت عنه صفة « الجركس » التي له في الحقيقة . وفي هذا كله ما يرضى الذوق المصرى والخيال المصرى كما سبق ذكر ذلك .

وتصور لنا السيرة كذلك كيف أن الظاهر وفد على مصر من حلب والتحق بخدمة الصالح نجم الدين أيوب . وكيف أن كل من كان يلقى (الظاهر) يتبأ له بمستقبل حسن . وظاهرة النبؤ تمثل جانبا من حياة المصريين كما يبدو ذلك من المثل الشائع بينهم ، وهو قولهم : « الديك الفصيح في البيضة يصيح » .

ويوصف الظاهر في التاريخ بأنه أسمر اللون ويأحدى عينيه بياض . أما السيرة فلم تشر إلى هذا العيب ، وإنما وصفته بالذكاء والشجاعة والحسن ، وبأنه إذا غضب ظهرت في وجهه جدريات ، وبدا بين عينيه شبه سبع من اللحم . حتى إذا سكنت عنه الغضب ذهب كل أثر لهذه العلامات على اختلافها . وفي إخفاء عيوب الظاهر الجسدية ما يتفق وأذواق المصريين الذين يقرّبون بأبطالهم من مرتبة الرسل ، ويصفونهم بالسجال التام في الحلقة . وربما كان للحديث عن « الجدريات » التي تظهر في وجه بيبرس عند الغضب صلة ما بالحديث عن « الحسنه »

و « الحال » والعلامات المميزة لأجساد بعض الناس . بل ربما كانت له صلة كذلك بما تميز به رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن له شامة أو علامة يعرف بها ، ولا نظير لها في أجساد سائر الخلق .

وقد أسند التاريخ إلى الظاهر بيبرس وظائف ، وأسندت السيرة إليه وظائف أخرى كذلك . وهو في هذه الأخيرة — ونعني بها السيرة — رئيس لفرقة من المماليك اسمها الوجاقية . وهو وال على مصر من قبل الملك الصالح . وهو كاشف للجيزة . ثم هو أمير للقدس . وكل هذه الوظائف أسندت إليه في السيرة قبل أن يستولى على مصر .

كما حرصت السيرة على أن تجعل في يده الحل والربط ويبقى على هذا زمانا إلى أن أرادت له القصة وضعا آخر يخالف الوضع الأول . فقد أضعفت القصة بعد ذلك من شخصية الظاهر بيبرس ، وجعلته مجرد رمز للدولة لا عمل له إلا الذهاب إلى البلاد المفتوحة بعد الفراغ من فتحها ، وال انتهاء من المعركة . وفي ذلك ما يدلنا على موقف المصريين من الحاكم ، وكيف أنه لا يبدو قريبا من نفوسهم ، ولا محببا إلى قلوبهم في معظم الأحيان .

أما صفات (الظاهر) النفسية فالتاريخ يحددنا أنه كان سياسيا ماهرا يعتمد أحيانا إلى اصطناع الدس والمكيدة في سبيل الوصول إلى غايته . والسيرة تصفه لنا بالدهاء ، وتصف أعوانه بأنهم أشد منه دهاء وأوسع حيلة . تريد بذلك أن تقول إن الظاهر بيبرس رجل تغلب عليه (الطيبة) ولذا تنفي عنه صفة التآمر . ولكنها إن وصفته بهذه الصفة وضحت لنا أنه لا ينجح فيها كل النجاح . مع أن القارى لمصرع

تورانشاه أو قطز لا يسعه إلا أن يتهم الظاهر بيبرس بهذه الصفة الأخيرة التي هي صفة التآمر .

ثم إن السيرة أسبغت على الظاهر صفة الدين ، وجعلت منه ولياً من أولياء الله الصالحين . وهو ما يتفق كذلك وطبيعة المصريين وميول المصريين .

ولا تنس أن القصة أفلحت كذلك في وصف الظاهر بالشجاعة النادرة ، وهي الشجاعة التي استطاع بها التغلب على اللصوص وقطاع الطريق ، ثم هي الشجاعة التي اقترنت إلى جانب ذلك ببعض الصفات الخلقية العالية التي ارتقت بالظاهر إلى حد الأسطورة ، وأرضت بذلك خيال القاص وذوق هذا القاص .

وأخيراً نصرت القصة على الصورة التي مات بها الظاهر بيبرس . فتجعله يموت شهيداً بعد أداء فريضة الحج وزيارة قبر الرسول صلوات الله عليه . وفكرة الشهادة نفسها تريح نفوس المصريين وتتفق وميولهم الدينية التي أشرنا إليها .

(والخلاصة) في سيرة الظاهر بيبرس أنها سيرة بطل يشاركه أبطال آخرون في محاربة الصليبيين . والأحداث كلها بعد ذلك كرت وقرت بين العرب المسلمين من جهة والصليبيين من جهة ثانية ؟

خاتمة الكتاب

خاتمة

- ١ -

تحدثنا في أول هذا الكتاب عن الشخصية المصرية في المجال السياسي والمجال العلمي ثم المجال الروحي والمجال الأدبي، ورأينا كيف أن مصر أصبحت زعيمة العالم الإسلامي في العصور الثلاثة التي أُرِخنا لها . وكانت زعامتها أكثر وضوحاً في العصرين الأيوبي والمملوكي . وذلك لأنها دفعت الثمن غالباً في سبيل الحصول على هذه الزعامة . ففي العصر الأيوبي كانت مصر قطب الرحى من الحروب التي اشترك فيها المسلمون ضد الصليبيين . وفي العصر المملوكي استطاعت مصر أن تحمي العالم الإسلامي من خطر المغول .

والحق لقد كان هذا الخطر الأخير سيئاً في نهضة المصريين في عهد المماليك . فقد هبوا مدفوعين بغيرتهم الشديدة على الإسلام وتراث الإسلام ، وشرعوا يستنقذون الثقافة الإسلامية من جميع أطرافها فجمعوا هذه الثقافة في موسوعات بعضها أدبي ، كما في نهاية الأرب ، وبعضها جغرافي كما في مسالك الأبصار ، وبعضها لغوي كما في المعاجم الكبيرة المعروفة مثل القاموس المحيط ولسان العرب ، وبعضها ديواني كما في صبح الأعشى . ولولا الخطر المغولي ما بادرت مصر إلى القيام بهذا الواجب الشاق نحو الثقافة الإسلامية وصيانتها من الضياع .

— ٢ —

ومن السهل على قارئ هذا الكتاب أن يتعرف على بعض ملامح هذه الشخصية المصرية في الدين والآداب : (فأما من حيث الدين) فقد لاحظنا أن المصريين قوم متدينون بطبعهم . ومن ثم كانت بلادهم تربة صالحة للتصوف . حتى ذهب بعض المؤرخين إلى أن التصوف مصرى النشأة . ومن أجل هذا أقبل الولاة والحكام على بناء الأماكن التي يقضى فيها المتصوفة أكثر حياتهم ، يفرغون فيها للعبادة ، ويشغلون في أثناء ذلك بتحصيل العلوم . وهكذا طغت الخوانق والمدارس في العصرين الأيوبي والملوكي على الأزهر ودار الحكمة في العصر الفاطمي . وبقي الحال على ذلك حتى كان العصر العثماني فعاد للأزهر شيء من قديم مكانته . وعنى الولاة العثمانيون بأن يكون للأزهر شيخ ، أو رئيس على جميع العلماء . ومنذ يومئذ وللأزهر الفضل كل الفضل في أنه حامي الثقافة الإسلامية من الضياع إبان العصر العثماني بالرغم من أنه العصر الذي لم يستطع منافسة العصرين الأيوبي والملوكي في مجالات الأدب والعلم .

وثمة تأثير آخر للدين في الحركة الفكرية ؛ وهو أنه صرف المضربين عن الفلسفة وبسبب ذلك لم تنتفع مصر في العصور التي أرخنا لها بفلسفة الإسكندرية قبل الإسلام ، ولا بالفلسفة الفاطمية بعد ظهور الإسلام .

— ٣ —

هذا كله من حيث الحركة العلمية . أما من حيث الحركة الأدبية

فقد وجدنا الشخصية المصرية في الآداب العامية الهزلية أوضح منها في الآداب الفصيحة أو الرسمية . كما وجدنا ديوان الشاعر الواحد من الشعراء ينقسم إلى قسمين : قسم للشعر الرسمي يصاغ فيه الشعر بالطرق التقليدية المعروفة عند المشاركة ، وقسم للشعر غير الرسمي ينطلق فيه الشاعر من كل قيد .

وهذا الذي يصدق على الشعراء يصدق مثله كذلك على الكتاب الأدباء . فمكتابات هؤلاء تنقسم أيضاً إلى ديوانية جدية ، وهزلية أو عامية . فأما الديوانية فصورة من الأدب العربي كله في ذلك الوقت ، وهو الأدب الذي قطع مراحل عديدة تنقل في أثناءها من دور البساطة في التعبير على يد الجاحظ وابن المقفع ، إلى دور التعقيد والبديع على يد ابن العميد والصائغ ونحوهما ، إلى دور الإغراب الشديد أو الإغراب الذي أضحت به الكتابة العربية نوعاً من الألفاظ والأحاجي على يد أبي العلاء ، ثم إلى دور التغالى في البديع والتفنن في ألوانه الكثيرة والوصول في كل ذلك إلى آخر الشوط على يد القاضي الفاضل ، وعند هذا الأخير ازدحم سيل من الزينة اللفظية والزينة المعنوية كان بعضه مصرى النشأة كما قلنا مثل التورية .

حتى إذا جاء العصر المملوك رأينا محي الدين بن عبد الظاهر يسلك نفس الطريق وينجح في هذا السلوك .

أما في العصر العثماني فقد ضعف الكتاب والشعراء عن بلوغ هذه الغاية في مضمار البديع . وذلك أن الأدب الذي يبنى على البديع يحتاج في إتقانه إلى أمرين : أولهما ثقافة عريضة يعتمد عليها الكاتب

أو الشاعر . وثانيهما حضارة عظيمة يكون النثر أو النظم صدى لها واستجابة لانطباعاتها . وهذا كله ما لم يتوافر للأدباء في العصر العثماني . ومن ثم ضعفوا عن اللحاق بإخوانهم الذين سبقوهم في العصرين الأيوبي والمملوكي . وقد استثنينا من هؤلاء بعض الشعراء كالبدري الحجازي وبعض العلماء الأدباء كالسيد مرتضى الزبيدي .

— ٤ —

ومرة أخرى ننظر نظرة عامة إلى الحركة العلمية التي نشطت في تلك العصور فنستطيع تسجيل بعض الظواهر التي تميزت بها هذه الحركة ومنها :
أن مصر كانت في العصر الأيوبي محصورة جهود علمائها وأدبائها في غاية واحدة ؛ هي نجاح المسلمين في الحروب الصليبية . فالعلماء والأدباء عليهم تعبئة الشعور العام خارج ميدان القتال وفي داخله ، والمؤرخون عليهم تسجيل الأحداث بدقة وأمانة بالغة . أما مصر في العصر المملوكي فتتشط نشاطا عظيماً في المحافظة على تراث المسلمين من علم وأدب على نحو ما شرحنا ، وأما مصر في العصر العثماني فتسكتفي بعمل واحد فقط هو الشروح ، وشروح الشروح ، والخواشي والتقارير على نحو ما أوضحنا كذلك . ولكن رجلاً واحداً فقط في العصر العثماني أمكن استثناءه من هذه القاعدة وهو (الزبيدي) — انحصر عمله في شرح القاموس المحيط فيما سماه (بتاج العروس في شرح القاموس) . ولكن هذا العمل نفسه يعتبر من نوع العمل الذي مارسه علماء العصر المملوكي قبله ، ونعني به تأليف (الموسوعات) .

وفي (كتابه التاريخ) لاحظنا أن الغالبية العظمى من المؤرخين في العصر العثماني لبسوا سوى ذبول لمؤرخين سابقين ، ومقلدين لهم في أسلوب التاريخ . وربما كان ذلك لأنهم أرادوا بهذه الطريقة أن يستمدوا لأنفسهم شيئاً من شهرة السابقين ، ليعتمدوا عليها في رواج كتبهم التاريخية ، ولكننا نستثنى المقرئ من هذه القاعدة ، ومع ذلك فقد ذيل المقرئ على نفسه في كتابه (السلوك) وقال إنه كتبه ليكمل به سلسلة مؤلفاته في تاريخ مصر الإسلامية .

— ٥ —

وعلى ذكر التاريخ والمؤرخين نحب أن ننبه القارئ هنا إلى أننا لم نكتب شيئاً عن (ابن خلدون) رغم أنه زار إمام مصر في عهد السلطان برقوق ، وقد أعرضنا عن الكتابة عن هذا المؤرخ الكبير لأنه يعتبر من الناحية العلمية أوثق صلة بالثقافة العربية الأندلسية المغربية . قدم ابن خلدون إلى مصر ، فعينه السلطان برقوق أستاذاً للفقهاء المالكيين بالمدرسة الكاملية . ثم عين قاضياً للمالكية ، ثم عزل عن منصبه بعد أن شغبت العامة عليه . واكتفى يومئذ بمنصب مدرس . وعاش هادئاً في ظل السلطان مدة من الزمان فأعانه ذلك على النظر في مؤلفاته . فنظر فيها وهذبها بقدر المستطاع ،

ومات السلطان برقوق وكان تيمورلنك يومئذ قد وصل الشام . وذلك في عام ٨٠٣ هـ (١٤٠٠ م) فسار السلطان المصري لملاقاته . وصحبه جمهور من العلماء والقضاة والصوفية فيهم ابن خلدون . ثم اضطر السلطان إلى العودة إلى مصر . لقيام فتنة هناك . واستطاع ابن خلدون بذلك

وحيلته أن يحصل من نيمورلنك على إذن بعودة العلماء إلى مصر ،
ومات ابن خلدون سنة ٨٠٨ للهجرة .

والذى لا ريب فيه أن ابن خلدون ترك في البيئته المصرية العلمية أثرا
لا يمحى ، وأب التاريخ ينظر إلى مؤرخي القرنين التاسع والعاشر
للهجرة على أنهم من تلامذته . وإن عجزوا عن أن يتأثروا بمنهجه في
كتابة (المقدمة) . ذلك أنه ليس عندنا دليل واحد على أن المؤرخين
المصريين ابتداء من المقرئى إلى الجبرقى قد تأثروا بفلسفة ابن خلدون
في المقدمة بالمعنى الصحيح . وليس عندنا دليل واحد كذلك على أنهم تابعوا
العلم الذى أنشأه ابن خلدون لإنشاء وهو علم (العمران) بنفس الروح .

نعم اتجه المؤرخون في العصر المملوكى إلى كتابة الموسوعات وكان
النويرى من أولئك المؤرخين الذين آثروا هذا الاتجاه . ومن المحقق
أن هذه الميول أعانت كثيرا على درس الشعوب : ومع هذا وذاك فإن
ابن خلدون يعتبر صاحب الفضل في الاهتداء إلى قوانين علم العمران
حتى ليمكننا أن ننظر إليه على أنه أول فيلسوف مؤرخ اتخذ من المجتمع
موضوعا لهذا العلم الذى أشرنا إليه .

(والخلاصة) أن الشخصية المصرية إنما تبلورت تبلورا تاما وأخذت
صورها الأخيرة في عصر المماليك . وقد أشرنا إلى ظلال هذه الشخصية في الأدب
والعلم والتصوف . وفي التاريخ بنوع خاص ظهرت آثار هذه الشخصية
بكل قوتها ، ورأينا المؤرخين الأيوبيين يكتبون في سير الأشخاص تارة

سير الدول تارة أخرى . والذين كتبوا في سيرة الدول من هؤلاء المؤرخين في العصر الأيوبي عنوا بمصر عنايتهم بالشام سواء بسواء . ولكن في العصر المملوكي وجدنا كبار المؤرخين يحصرون عنايتهم أو يكادون يحصرونها في مصر . ولا يكتفون بذلك بل يجعلون (مصر) مركز الدائرة من التاريخ العام ، وفي ذلك ما يخالف القاعدة التي كان يتبعها المؤرخون الأقدمون الذين جعلوا من (بغداد) مركزاً لهذه الدائرة . ثم لا يقف المؤرخون المصريون عند هذا الحد حتى يبدوا اهتماماً خاصاً بمقاييس النيل ويذكروا ارتفاعه وانخفاضه في حوادث كل سنة . فعلوا ذلك شعوراً منهم بأن النيل في مصر هو كل شيء . وفي ذلك ما يدل دلالة واضحة على النزعة المصرية الصميمية عندهم . فهم يكتبون ما يكتبون بنوع مصري ومزاج مصري ، وروح مصرية ، وذهنية مصرية .

وانقضى عصر المماليك وتبعه العصر العثماني فوجدنا من أبناء هذا العصر الأخير من تبع أسلافه في هذه الطريقة ، وكتب في تاريخ مصر وحدها وعنى بعلمائها وأدبائها وفضلائها أكثر من عنايته بأمرائها وحكامها - كما فعل المؤرخ الكبير المعروف (بالجبرتي) .

ولئن كان صحيحاً أن الشخصية المصرية وجلت لها مجالاً كبيراً للظهور في الأدب الهزلي أو العامي أكثر من الأدب الجدي أو الرسمي فأصح من ذلك أن هذه الشخصية المصرية تجلت لنا بوضوح

فى الآءب الشعبى الذى لم يكن له مؤلف معين ، وإنما كان نتاج الشعب العربى عامة والشعب المصرى خاصة عبر العصور التى مرت بهما .

غير أن العصر المملوكى بنوع خاص هو العصر الذى تبلور فيه الآءب الشعبى أيضاً ، وسار هذا التبلور جنباً إلى جنب مع تبلور الشخصية المصرية برمتها . فلأمر ما إذن برز الآءب الشعبى فى عصر المماليك . ولأمر ما كذلك ظهرت النسخة الكاملة من قصص ألف ليلة وليلة وأكثر الألوان الأخرى من الآءب الشعبى .

والحق - لقد كانت قصص ألف ليلة وليلة مرآة للشعب المصرى فى أخلاقه وعاداته وخيالاته وخرافاته ، وعقيدته الإسلامية التى ملكت عليه كل حواسه ، ونوع السخرية التى كان يسخر بها من حكامه ونحو ذلك .

وهذا الذى حدث فى ألف ليلة وليلة حدث مثله تماماً فى سيرة بنى هلال وسيرة الظاهر بيبرس . فقد جاءت هانان السيرتان فى كثير من المواضع كذلك صورة دقيقة من الحياة المصرية والذهن المصرى . والقاص فى هاتين السيرتين متفق مع القاص فى ألف ليلة وليلة فى وصف أبطال هذه القصص بالشجاعة والمهارة التى تذكر بمهارة (الشطار) وما ينسب إليهم من أعمال خيفة للناس فى أول الأمر ، مطمئنة لهم ومريحة لأعصابهم فى نهايته .

وفى هذا كله ما ينهض دليلاً على تبلور الشخصية المصرية من جميع جوانبها بشكل نهائى فى عصر المماليك أكثر من أى عصر من العصور السابقة له .

فهرس

الصفحة

المقدمة ٥

الكتاب الأول

في الحياة السياسية والعلمية والروحية في مصر
من قيام الدولة الأيوبية إلى الحملة الفرنسية ٩

الفصل الأول

الشخصية السياسية ١١
بم قويت مصر الأيوبية ومصر المملوكية ؟ ١٥
لم ضعف مصر الثمانية ؟ ١٧

الفصل الثاني

الشخصية العلمية ٢٢
اليثبات العلمية في العصرين الأيوبي والمملوكي ٢٥
الميل العلمية لسلطين الدولتين الأيوبية والمملوكية ٢٩
الحياة العلمية في العصر الثاني ٣١
المعات العلمية لكل عصر من هذه العصور التاريخية ٣٤
العصر الثماني عصر المروج والحواشي ٣٩

الفصل الثالث

الحياة الروحية ٤٦
الحياة في مصر ٤٨

الصفحة

٥٠ المتصوفة في مصر
	الكتاب الثاني
٥٥ في فن الشعر
	الفصل الأول
٥٧ دواعي النهضة الأدبية في مصر
	الفصل الثاني
٦٦ الشعر السياسي
٨٠ الشعر السياسي وخلفاء صلاح الدين
٩٢ حملة صليبية كبرى من أوروبا تسترجع بيت المقدس
	الفصل الثالث
٩٧ الشعر الصوفي
	الفصل الرابع
١٠٧ أساليب الشعر المصري في تلك الفترة
	الفصل الخامس
١١٣ شعراء البدیع
	الفصل السادس
١٣٥ مدرسة المثنائي في الأدب المصري
	الكتاب الثالث
١٧٧ في فن الكتابة

الفصل الأول

الصفحة

١٧٩ الكتابة الديوانية

الفصل الثاني

١٩٣ الكتابة الهزلية

الفصل الثالث

٢٢٠ الكتابة التاريخية

٢٢١ مؤرخو مصر الأيوبي

٢٣٢ " الملوك " " "

٢٤٧ " العثماني " " "

الفصل الرابع

٢٥٦ الأدب الشعبي في مصر

٢٥٧ ألف ليلة وليلة

٢٦٤ سيرة في هلال

٢٧٤ " الظاهر بيبرس " " "

٢٨١ خاتمة

٢٨٩ فهرس



مطابع دار القلم
١٨ شارع سوق التوفيقية
بالقاهرة

أهداف هذه المجموعة

* تكوين مكتبة عربية متكاملة ، يجد فيها القارئ العربي كل ما هو بحاجة إليه من المعلومات في شتى الموضوعات ، معروضة عرضاً سهلاً ، يقبله القارئ العادي ، ويجد فيه المتخصص الحقائق والنظريات والآراء البسطة بغاية الدقة ، متشعبة مع آخر ما وصل إليه العلم في تلك الموضوعات .

* نشر هذه المكتبة في أوسع نطاق ممكن ، وذلك بتخفيض السعر قدر الإمكان ؛ وإشراك أكبر عدد من الناشرين في نشرها .

* التمهوض بالكتاب العربي من حيث الشكل والموضوع .

* تشجيع عادة اقتناء الكتب وقراءتها .

* الاستفادة بصورة عملية من جهود العلماء والأدباء في شتى الأمم ، بأتاحة الفرصة أمام القارئ العربي للاطلاع الواسع على ما عندهم .

* أفراح المجال أمام الشباب الطامح إلى الاشتغال بالعلم والأدب للمساهمة بصورة إيجابية في النهضة العلمية والأدبية .

* تشجيع الناشرين في مصر والدول الشقيقة على الاقبال على كتب العلم والثقافة العالمية ، وتعويمهم تعويضاً مجزياً .

* تجديد النشاط الفكري في العالم العربي عن طريق الارتقاء بالقيمة التي تحملها إليه العلم والمعرفة .

